(1)

في الواحدةِ والعشرينَ من العمر ... أيتغيَّرُ المرءُ عندَ دخوله في حقبة جديدة؟

مَرَّرْتُ بيدي على النورج الصدئ الذي تُرِكَ منذُ سنواتٍ جامداً في مكانه, كانَ ملمسُهُ خشناً ويُسبِّبُ آثارَ ندوبٍ على أصابعي بين الفينة والأخرى، حيث كنتُ أذهبُ إلى تلك الزاويةِ من المزرعة، أذكرُ والدي عندما كان يربطُ الثورَ بالنورج ويحرثُ الأرضَ, كنتُ أنا أو أحدُ إخوتي نجلسُ بجانبِهِ بعدَ أن نتشاجرَ للحصول على تلك الجولة ... لكنَّ المكانَ فَنِيَ بموتِ والدي؛ ليس بأشجارِهِ ولا بأعشابِهِ الصفراءِ أو بثمارِهِ الجافَّةِ، بل بغياب روحه التي جعلت شكلَ المكانِ كالمقبرة, ذلك ما أبصرته حينما كنتُ أتمعَّنُ حولي.

كانَتْ قريتنا من أفقر القرى وأكثرها تخلُّفاً, فلا يوجدُ أتراكٌ بيننا يراقبون، ولا تجارٌ يسعَوْنَ لقوت عيشِهم من خلال البيعِ والتجارةِ بيننا, وما مَيَّز قريتَنا عن غيرها من القرى عزلتها، حيث كانت مدفونةً بين الجبال والسهول، وتبعد عن مدينةِ دمشقَ ما يقارب يومين أو أكثرَ.

لم أكُنْ أراها مقبرةً فحسب، بل سخرتُ يوماً وقلتُ إنَّها الصحوةُ بعدَ الموت، فلا تدري من أنتَ؟! وأينَ سبيل الخروج؟ ولا تسعى لشيء إلا ليومك، وقد جعلها هذا وَكْراً صغيراً للمتمرِّدين, تماماً مثل شقيقي آزر الذي أصبح واحداً منهم، فقد كان يحلمُ بسقوط الدولة العثمانية، وإنشاء دولة عربية واحدة ومتّحدة, لكنَّنا لم نمتلك في قريتنا أيَّ مدرسةٍ أو مكتبةٍ، أو حتى حبراً نُسطِّرُ به أحلامنا التي لم تخطر في بالنا بعدُ, ولا تكادُ تجدُ أيضاً كتاباً أو قلماً.

لكنَّ والدي كان رجلاً مُثقَّفاً، أتى من دمشق ليبتاع مزرعةً ويحظى بحياة هادئة, وعندما كنتُ في الثامنة من عمري، اعتَدْتُ على التنزُّه والتغنّي بين الورود, فلاحظَ عزلتي, وكان يأتي ليُرَفِّهَ عني. وأذكرُ أول مرةٍ نطقَ لسانه بشعرٍ ألهمني, ومع أنَّي لم أفهمِ الكثيرَ من تلك المعاني، إلَّا أنَّي أذكر أبسطَ اختياراتِهِ عندما جاءَ إليَّ بِشِعْرِ "حسن بن علي بن وكيع"، وحملني عالياً وهو يقول:

"ألست ترى وَشْيَ الربيعِ المُنَمْنَما ... وما رصع الربيع فيه ونظما

فقد حَكَتِ الأرضُ السَّماءَ بِنورِها ... فلم أدرِ في التَّشْبيهِ أيُّهما السَّما

فَخُضْرتُها كالجَوِّ في حُسْنِ لَوْنِه ... وأنوارُها تحكي لعينيكِ أنجما"

كان آزرُ الوحيدَ بيننا الذي طلبَ من والدنا أن يقومَ بتعليمِهِ, وقد استمعَ لحديثِهِ عندَما قال: "الزمنُ على وشكِ تدميرِ أربعةِ قرونٍ من خلافة إسلامية, فقد خاف العالمُ أجمعُهُ من أبطالٍ أتراكٍ صنعوا التاريخ, فقد نظَّموا الاقتصادَ العربيَّ، ومنعوا تدخلاتٍ خارجيّةً بتدمير أوطاننا, وأنا أؤمنُ أنَّه لو سقطتِ الدولةُ ستعودُ على أقدامِها أكثرَ قوةً، وربما لن تسقطَ أبداً".

أتساءلُ ما قد يقوله لو رأى حياتنا فيما بعد, فقد توفي في المناوشاتِ التي حصلت بين الجنود والأفراد, وعندما دخل شقيقي (آزر) إلى المنزلِ لم يَقْوَ على النطقِ, أمَّا شقيقتي الكبرى (أخيلة)، فتهاوَتْ على الأرضِ وهي تبكي, وبالنسبة لوالدتي فقد صفعت آزر متَّهِمةً إياه بالكذب، وغَرِقا بالبكاءِ معاً.

كنتُ حينَها قد بلغتُ العاشرة, تمنَّيْتُ لو أبديتُ ردَّةَ فعلٍ، إلَّا أنَّي بقيتُ ثابتةً, فلم تنزلْ دمعةٌ من عينيَّ، ولم أصرخ أو أسأل, بل تسمَّرْتُ بالوقوف مُتيبِّسةً، بينما كان صراخُ الجميعِ وبكاؤهم مجردَ إزعاجٍ بطيءٍ غيرِ مفهوم, ارتجفَتْ يَدي بشكلٍ مُخيفٍ، فَثَبَّتُّها بالأخرى التي كانَتْ تهتزُّ بهدوء, وأصبح لوني مثلَ الشحوبِ الذي يُسبِّبُه الاختناق, وبصعوبةٍ حافظتُ على رباطة جأشي عندما بدأ انهياري وسيوفُ الحزنِ تَجُزُّ بي ببطءٍ من الداخل.

بقيتُ على تلك الحالةِ لأيامٍ وأنا أرجو أن أبكيَ أو أذرفَ دمعةً واحدةً, لكنّي لم أستطِعْ, حاولتُ ذلك وحدي، لكنَّ الصدمةَ كانت تنغزُ في صدري فأبكي من الداخل, رجوتُ اللهَ بدمعةٍ واحدةٍ فقط, فقد تَمَنَّيْتُ الموتَ على ذلك الألمِ الذي كان يُوهن عظامي, لم أستطعِ الوقوفَ وبقيتُ طريحةَ الفراشِ لأيامٍ، لكنّني نهضتُ بعد ذلك، وقد كانت البدايةُ لمرض والدتي العقليّ جرّاء صدمتها, وجدتُها مبتسمةً تُعِدُّ طعامَ الغداء، وعندما رأتني قالت:

– لماذا ترتدين ملابسَ النوم يا جودى؟ والدك سيصلُ في أيِّ لحظة!

وعندما بلغتُ الحاديةَ عشرةَ من العمر, تَمَسَّكتُ بشيءٍ للنجاة في هذه الدنيا المعتمة, وعلى الرغم من أنَّي كنتُ مجرّدَ فتاةٍ هَيّنةٍ لا تُغيِّرُ أثراً في قشّةٍ تُلقيها الرياح, امتلكْتُ عقلاً احتاجَ إلى الكثيرِ من النور، وقد كان في أغلب الأحيان مُجرَّدَ عبءٍ, وَتَمَنَّيْتُ لو أنّي عمياءُ عن محاولة معرفة حقائق هذه الحياة, كنتُ أنظرُ إلى السماء في جميع الفصول ولا أُفكِّرُ في جمالها,

بل كنتُ أفكّرُ في ارتفاعها، وسببِ ثبات القمر والنجوم في الهواء، وقوة الشمس عندما تشتدُّ في الصيف, وكانت الغيوم عبارة عن شيءٍ يشبه الخيال، فكيف لها أن تحملَ الماءَ وتُنزله فوق رؤوسنا؟!

في تلك السنواتِ بدأتُ بملاحظاتي للأشياء, فأصبحتُ عندما أضعُ قِدْراً على النَّارِ أُلاحظُ تجمُّعَ البخار على الغطاء، وتحوُّلَهُ لقطراتِ الندى, وكنتُ أقفز عالياً فألاحظُ أنَّ الأرض تَشُدُّني إلى الأسفل, كان ذلك يعني أنَّه كلما ارتفع شيءٌ عن الأرضِ تخلَّصَ من الذي يشدُّه إلى الأسفل, أيعقلُ أنَّ الله رفع السماءَ وما فيها بالمنطق؟

كانت تجتاحني الغيرةُ عندما أرى آزر يسعى لعلمه, كنت في عمر السادسة ولم أجرؤ على تقليده أو طلب ما أريده, فقد رُبِطَ لساني بشيءٍ لم أعرفْ سَبَبَهُ يوماً، ولذلك لم تصبحْ حياةُ العزلةِ صَعْبَةً بعدَ وفاته, لكنَّ والدي في السابق كان يصيبني بالدُّوَار وهو يرقصُ برفقتي, كنتُ أضحكُ بجنونٍ لدرجةِ أنَّ والدتي كانت تخاف أن أختنق, تلك الأبياتُ جرت بداخلي, أيقظَتْ حُبَّ الفضولِ لبدايةٍ معرفيّةٍ.

لم يكن الحُكمُ السياسيّ العائقَ الوحيدَ من أجل ذلك, فقد اكتفينا بتفادي الأخطار والعيش على ساحل الأمان بدلَ الغوصِ في مطالبة الحقوق والحقائق الحياتية, وبعد أن فقدناه كان الناس عطوفين مَعَنا، فكانوا يأتون لتفقُّدِ حالنا ووضعنا المعيشيّ, لكنَّهم توقَّفوا عن ذلك منذ سنوات، بعدَ أن كانَتْ والدتي ترشُقُهم بالحجارةِ ليُغادروا المنزل, وقد تسبَّبَتْ بأذيَّةِ بعضِهم, فكلُّ من كان يحاول اعتراضها كان يتلقّى نصيباً من ذلك الغضبِ, بمن فيهم أنا, وكُنَّا نجدُها في الخارج في منتصف الليل تجلسُ وحدها، حتى في الأيام الماطرة, فقد طَوَّقَ آزرُ المزرعةَ بألواحٍ خشبيّةٍ، وبذلك غدونا أكثرَ عزلةً، فأصبحنا لا نرى أيَّ إنسان مطلقاً, ولم نكن نهوى الخروج كذلك, فكثيراً ما أرسلوا خَلْفَنا بأن يأتوا لزيارتنا ويتفقّدوا حالَنا، لكنَّنا فضَّلْنا البقاءَ وتجنُّبَ الناسِ حولَنا.

كان آزرُ مؤمناً بمعتقدات والدي, فأحبَّ العثمانيين وكان مخلصاً لهم، ودعاهم بالوطن, لكن تغيَّرَتْ أفكارُهُ عندما أصبح يغادر القرية لعدةِ أيامٍ أو أسابيعَ كي يكتشفَ بلاد الشام ويزيدَ من ثقافته, كانَ أولَ شابٍّ في قريتِنا يفعلُ ذلكَ، ولم يَحْذُ حَذْوَهُ أحدٌ من الشبّان، ولم يحلموا بالخروج لرؤية العالَم, بعد ذلك جلب للأولاد كتاباً تعليميّ لجِرْجِس همام، عنوانه (مدارج القراءة)،

وأصبحَ يجتمعُ بهم ويقوم بتلقينهم القراءة والكتابة, وقد تعلَّمَ صُنْعَ الحبرِ بنفسِهِ، حيث كان يأخذ من جذوع شجرة السلم الغراء, وكانَ يُضيف إليها بعضَ الماءِ ويتركها لمدة عشر ساعات, ثم يسكب الماءَ والغراءَ على المِطْحنةِ ويفركُ بهما الفحمَ إلى أن يختلطَ بالسائل, ثم يأخذُ قطعة من القماش المبروم ويضعها داخل زجاجةٍ، ويُضيف إليها السائلَ إلى أن تمتصَّ الخِرقةُ المحلولَ، ثم يتركها إلى أن تتجمّد, وعند الكتابة كان يُضيف قطراتِ ماءٍ ويصنع أقلاماً من الشجر القصبيّ ويوزّعه على الصغار، وفي السنوات الأخيرة رأى وَكْرُ المتمردين إمكانياته فتعرَّفوا عليه، وأدخلوه إلى عالَمِهم الصغير, ولم يتطلّبِ الكثيرَ لإقناعِهِ، فسُرعان ما أصبحوا رفقاءَ وأصبحوا يقضون أيامَهم معاً.

خلال تلك الفترةِ كان قد مَرَّ على موت والدي عشر سنوات, وقد ترك لنا مزرعةً كبيرةً وبيتاً من الطين؛ لنعيشَ فيه دونَ حاجةٍ لأحد, لكن كيفَ يعيشُ الإنسانُ في هناءٍ وعقلُهُ مُقيَّدٌ في سجنٍ بِحُكْمِ المُؤبَّد, فالبعضُ لا يخطرُ لهم حتى محاولة النهوض مجدّداً, فعندَ موتِ الثقافة يعيشُ الاستعمار بسهولة بين الأفراد, أمّا موتُ الجسدِ فهو الراحةُ في بعض الأحيان, وعندَما نخسرُ بلادنا وأحبّاءنا نناضل غَضَباً, ثم نشعرُ بالإحباط من نومِ الباقينَ عن الحقِّ, لذلك أنا على يقينٍ أنَّ موتَ العقلِ يقضي على الإنسان قبلَ فناءِ الجسد, فلا يعلمُ بأيِّ حياةٍ يعيشُ، ولا يخطرُ له النهوض على قدميه للمحاولة مجدداً, وفي الماضي كثيرٌ من العرب انتمَوْا إلى الدولة وكانوا مخلصين لها, لكن لا لومَ عليهم، فمنذ بداية استعمارهم اعتادوا على فوزهم في أقسى المعارك.

ذلك بالإضافة إلى تحقيقهم حُلْمَ المسلمين بفتح القسطنطينية، وقد أصبحوا رمزاً لوَحْدةِ المسلمين، ممّا منع وصول الاحتلال الأوروبي إلى البلاد العربية, وحمى الأماكن المقدسة, فعندما حاولت قواتُ الأسطول البرتغاليّ أن تحتلَّ مكةَ، وقفت في وجهها الأساطيل العثمانية, وبذلك أصبحوا من أقوى الجيوش التي شهدها التاريخ، وتركت أسماءً بارزةً مثل سليمان القانوني, فمنذ عهده أدخل إصلاحاتٍ قضائيّةً تهمُّ المجتمعَ والتعليمَ والجبايةَ والقانونَ الجنائيَّ، ولو أردتُ أن أشرحَ المزيدَ عن إنجازاتِ الدولة العثمانية لأرّخْتُ كتاباً كاملاً, لكنَّ النهايةَ لن تكون فألاً بعدما حصل.

بعد أن انتشرت إشاعات عمّا يدعى بالاتحاد والترقي, اختار آزر أن يكون متمرّداً, فساعد على إنشاءِ جماعةٍ سِرّيّةٍ تقوم بتثقيف الصغار على القومية والتمرّد, فهو لم يصدّق أنَّ

تلك الجماعةَ مُجرّدُ وهمٍ, كان يقول إنَّ والدي على حق, فقد كان الحُكم العثماني من أفضل الأمور التي حصلت للعرب إلى أن غادر عبد الحميد الثاني الحكم, وكان يؤمن بإشاعات أنَّ الاتحاد والترقي هو من أسقطه، لكن بعد أن أصبح محضَ شكوكٍ وتساؤلٍ، عاد إلى المنزل ليملأَ قلب والدتي بالقليل من الأمل, فانسحب من تلك الجماعات وأصبح يحيا على إرضائها.

عندها أي عندما بلغت الحاديةَ عشرةَ, قلتُ إنَّه لم يكن هناك وقتٌ للخوف، فأنا كنتُ على طريق الوصول، إلى أين؟ لم أدرِ, لكنَّ الهواجس لم تكن تجري في عروقي في ذلك الوقت, بل كنتُ على يقين أنَّي أفعل شيئاً، وإن لم يكن له مغزى أراه أمامي، فإنَّه كان كافياً ليُعطيَني سبباً للبقاء على قيد الحياة, فأنا لم أكُنْ حزينةً ولم أكُنْ سعيدةً، لم أكن شيئاً ولم أكن لا شيء، كنتُ فقط ذلك الوجود الذي يجبُ أن يسريَ مع نظام هذا الكون, فهذه الدنيا لم تختر نشوءها, لذلك أنا لا أعاتبها ولا أُكلّمُها, وفي أغلب الأحيان لا أشعر بوجودها، كنتُ فقط مجرد جسدٍ يأخذ مساحة كونية, كنتُ فقط جودى الرقبان.

دائماً ما بحثتُ عن أجوبة، وقليلاً ما كنتُ أجد إجابة لها, وتسبّب لي ذلك بالضعف, أردتُ تحطيم القوقعة التي أعيش بداخلها، إلَّا أنَّ كلَّ شيءٍ بالخارج كان مخيفاً لدرجة الموت, في البداية حملتُ كتاب مدارج القراءة ولم أفهم شيئاً من الأحرف التي دعوتها في ذلك الوقت بـ "الرموز", بعدها قمتُ بنسخ الكتاب بأكمله، وأَعَدْته دون أن أخبرَ أحداً, بعد ذلك أصبحتُ أجلس خلف الباب، وأنا أسمع صوت آزر وهو يلقِّن الأولاد, فحفظتُ وميّزتُ ما سَطَّرَ على الورق, وبعد عامٍ من اختلاس السمع تمكَّنْتُ من القراءة والكتابة, لم يكن إخفائي للأمر بهدف أن يكون سِرّاً فأنا على يقينٍ أنَّي لو أخبرته بما أردتُ لأجلسني بينَهم, لكن كانت عائلتنا تعيش بصمت ولا تلتقي إلا عند تناول الطعام؛ وذلك لإرضاء والدتي فحسب, لكن حين بلغتُ الخامسةَ عشرةَ أردتُ شيئاً مختلفاً، عندها بدأت آخذُ من كتب والدي، واضطرَرْتُ إلى أن أجعلَ الساعة الثانية في منتصف الليل وقتاً لتحقيق الأحلام.

أذكر أول مرة لامست قدمايَ فيها الأرضَ الطينيّةَ الباردةَ, كُنَّا في شهر ربيع الثاني, وقميصُ النوم الأبيض الطويل لم يُحَصِّنِّي من البرد, لكنَّ شعري المُنسدلَ الذي يصل إلى خصري حاول تدفئتي, كنتُ أجعلُهُ مثلَ كنزةٍ صوفيّةٍ، وأرتدي فوقه مِعطفاً شتويّاً, وفي كلِّ مَرّةٍ

أصل فيها إلى الباب، كنت أنظر إلى الظلام الحالك في الخارج, وكانَتْ تظهرُ على سماتي ابتسامةٌ ناعسةٌ.

في تلك الليالي كنت أنجح دائماً بالوصول إلى منتصف المزرعة, وكانت تستيقظ الماشية عند مروري من حولها, وقد اعتبرتُ وجودَها مع المزروعاتِ اكتفاءً ذاتياً, فالكثيرون اقْتِيدوا لحياةِ الجوعِ والمعاناةِ, وكثيراً ما كنتُ شاكرةً لكلِّ شيء جيد في حياتي، ومع هذا لم أفهَمْ وجودي حَقَّاً, كنتُ أُفكّرُ لماذا أنا في هذه الدنيا؟ وهل هذا كابوس من عالَمٍ آخرَ بِحَقِّ الجحيم؟ لم أَكُنْ تعيسةً ولا متفائلةً, لم أشعُرْ بشيءٍ مطلقاً, كنتُ أنتظرُ الموتَ بفارغِ الصَّبْرِ وأنا أُفكّرُ بأنَّه حُرِّيَّةٌ وليس مأساةً تستحقُّ أن نبكيَ عليها, إنَّنا نشتاق للأحبةِ فقط, عدا ذلك يَجِبُ أن نُصلّيَ من أجلهم ونَسْعَدَ لحرّيتهم.

عشتُ ذلك الشعور عندما قُتِل والدي واقْتِيدَ إلى تلك المعسكرات مع الأسرى, لم أعلم كيف قُتِل أو ما فعلوا به، كل ما عَلِمْتُهُ أنَّ حياته انتهت على أيادٍ شيطانيّةٍ، لم نصبر على ذلك قطُّ, فكانت والدتي تُخرج ثيابه وتقوم بترتيبها كلَّ أسبوع!! كانت تبتسمُ وأصبحت تعتني بمظهرها وجمالها أكثرَ بعد موته!! وهي تقولُ إنَّه سيأتي من العمل في أيِّ لحظة, وبعد أن أدركَتْ أَنْ لا مجالَ لعودته أصابها البؤس، فأصبحت حادّةَ المزاجِ, لكنَّها سرعان ما تعود في اليوم التالي لتعتنيَ بمظهرها، وتُكرّرُ ذلك كُلَّ يومٍ كأنَّه شيءٌ جديدٌ.

كنتُ قد وجدتُ طريقةً لإخفاء أوراقي بين الأخشاب وحمايتها من المطر, كنتُ أُخرج ورق البردى بكلِّ سهولةٍ، ولكيلا تُصدر المواشي صوتاً كنتُ أرمي لها بعضَ العلف والأعشاب, ثم أجلس تحتَ شجرةٍ وعلى ضوء المصباح الزيتي، أبدأُ بنسخِ صفحاتٍ من تلك الكتب دون هدف محدّد, بعدها كتبتُ أولَ فكرةٍ لي، وقد كان فحواها: "أيها الشبح الهرم، دع اليوم يتكلّم، والمرء يتعلّم، أما للعين أن تلتئم، جعلتَ النورَ أسحم، والغراب يترنَّم، في غوابرَ تنسجم، وسرابٍ لا يبتسم، بصورٍ قد تنصرم..."

يا إلهي!! كان ذلك سيئاً... سيئاً جداً, يا ليدي الفاشلة, قلت في نفسي وأنا أتذمر، لا بُدَّ أنَّ عقلي كان يطوف في مكان آخر.

في السنة الأولى لم أُميِّزْ بين الحاء والخاء والجيم, وبين الطاء والظاء، والضاد والصاد, كلُّ ما تذكرته هو الألف والباء، وبعضَ الأحرف مثل الكاف والياء والنون, لكنّني كنتُ أنسخ جميع الأحرف كي تتخلّص يَدي من ثقلِها على القلم, كان خطّي رديئاً ومتعرجاً, أثار استفزازي في أغلب الأحيان، لكنّني صمدتُ بأن أقارنَ في سهولة الكتابة كلَّ يوم, كانت تخطرُ لي أفكار لكنّي لم أتمكّن من تدوينها, وسرعان ما كان عقلي يتجمّدُ من البرد, وأكاد أتساءل أحياناً لماذا لم أبقَ في المنزل بدلَ الخروجِ في ذلك الجو الجليديّ, أظنُّ أنّني أحبَبْتُ عيشَ الحياةِ بطريقة صعبة, ربما بطريقة مبالغ بها, وغالباً كنت أنظر حولي في تلك العتمة وأنا مملوءة بالخوف, فقد كان المكان ساكناً وبارداً, وكنت أتخيَّلُ الأسوأ, كيف سأتصرف لو قفز شخص داخل الأسوار, لكنّي طَرَدْتُ تلك الأفكار محاولةً التركيزَ على ما أفعله, ثم تخلَّصت من تلك المعضلات بعد مرور سنوات على خروجي, حيث كانت التركية سَتُصبح اللغة الرسمية, وكان عليَّ إنقاذ كل ما أستطيع الحصول عليه من اللغة العربية, واكتفيت أن يكون ذلك من أجل نفسي وملاذي.

كنتُ قد بلغت إحدى وعشرين من العمر، عندما تذكَّرت في تلك الليلةِ جميعَ اللحظاتِ التي عَبَرَتْ على مَرِّ السنوات, فقد كانت قراءتي سَهْلةً، وخَطّي جميلاً، وكنتُ أُدوِّن آرائي وأفكاري على الورق, وأذكر عندما كان آزرُ دائمَ الجلوس في غرفته، واعتاد على أن يحمل أوراقاً يضعها في غرفته, في البداية لم يتساءل أحد عمّا كانت، وفي أحد الأيام التي كنتُ أستيقظُ فيها، احتجتُ إلى شيءٍ لقراءته, لم أكن أملكُ إلا الكتابَ القديمَ الذي تركه والدي، وفي تلك الليلة لم يَعُدْ آزر إلى المنزل، وبذلك تسلَّلْتُ إلى غرفته وأنا على يقين أنَّه يُخبِّئ شيئاً, كنتُ قد بلغتُ السابعةَ عشرة.

تراجَعْتُ في البداية، وقلتُ إنَّ السرقةَ ليست من طبعي, كنتُ أفكّرُ مع كلِّ خطوةٍ أنَّه يَجِبُ التراجع، وأنَّ ذلك كان خاطئاً، لكنَّ فضولي غلبني، فوجدتُ نفسي أحملُ القنديل وأقفُ داخل غرفته, وجدتُ صندوقاً خشبياً في زاوية الغرفة، فتقدَّمْتُ إليه بحذرٍ، لكنَّه كان مقفلاً, جلستُ على الأرض وأنا أفكّر بمدى حُمْقِ تلك الفكرة، وأنَّه يجب النهوض والتوقّف عن تلك التصرّفات, لكن عندَ نهوضي وجدتُ كتاباً يتدلّى من أسفل ملابسه المتراكمة على الأرض, قُمْتُ بسحبه، وإذا بي أجدُ كتاباً مهترئاً لمَلِكات مصرَ القدامى.

قمتُ بسحبِهِ ببطءٍ فتدلَّت ورقةٌ مكتوبةٌ بخطّ اليد خلفَ ذلك الكتاب, أزحتُ الملابسَ بأكملها، وهناك وجدتُ مجموعاتٍ من أوراقٍ مترابطةٍ في حزمٍ، جميعُها كُتِبَتْ بخطِّ اليد, كانت عبارة عن ستِّ حُزَمٍ، كُلُّ حزمةٍ حملت حواليَ خمسين ورقةً, قرأتُ العناوينَ التي كُتِبَتْ عليها فوجدتُ بعضَها صَعْبَ النُّطقِ، وليس مفهوماً, قلتُ: "ما هو أفلاطون؟ ما الذي تعنيه تلك الكلمة؟".

وجدتُ في الصفحة الأولى عبارة "المدينة الفاضلة"، وأسفل الصفحة كتبَ آزرُ بخطٍّ صغيرٍ "كُتِبَ بواسطة أفلاطون". قلت لنفسي: "إذن هو عبارة عن شخص". تفحَّصْتُ باقي الحزم، فوجدتُ أنَّها كتبٌ لستةِ أشخاصٍ، هم (أفلاطون, هيباتيا, فولتير, ديوتيما, أرسطو, سقراط).

قمتُ بتفحُّصِ ما كتبه آزر، وتساءلتُ عمَّا تعنيه تلك الأسماءُ؟ وهل كانَتْ من اختراعِهِ؟ هل كان يحاولُ كتابة شيءٍ صعبٍ لا يَسْهُلُ فَهْمُهُ؟ وجدتُ ملاحظةً صغيرةً تقول إنَّ أفلاطون تلميذُ سقراط، وإنَّ أرسطو تلميذُ أفلاطون، وبعدها بدأتُ القراءةَ إلى أن غفلت عن التواء قدمي وجلوسي على الأرض الباردة, فنهضتُ فجراً من غرفته، وأنا أشعرُ بألمٍ شنيعٍ في قدمي, بعدها علمتُ أنَّ آزر يقوم بترجمة الكتبِ بخطِّ يده، لكنِّي لم أعلمْ عن سبب ذلك, وبعد التمعُّنِ في جميع أعماله، لاحظتُ أنَّ لديه شغفاً في الفلسفة، التي بدورها تُعتبَرُ شيئاً محرماً, فهي تطرحُ أسئلةً تخرج عن نطاق الدِّينِ، وتحاولُ اكتشاف الوجود, وقد اعتبر وجودها شيئاً مسموماً، لكنّي لم أتراجعْ عن قراءتها، ولم أَجِدْ فيها سُمّاً.

بعدَ ساعةٍ من قضائي في الخارج، أَعَدْتُ الأوراقَ إلى مكانها, وفي طريق العودة تأمَّلْتُ قليلاً في تلألُؤِ السماء, حاولتُ ألا أسمحَ لليأس بالوصول إلى داخلي, لم يكن مهماً على أيّ حال, فعند إنقاذ عقلٍ واحدٍ، يكفي ذلك عن الجلوس في زاوية مظلمة والتفكير باستحالة تغيير هذا العالم, أما التأمل فهو لا يصنع شيئاً, لكنَّهُ قد يكون حلماً صغيراً نعملُ على تحقيقه.

عُدْتُ إلى الداخل، وأغمضتُ عينيَّ بدفءِ فراشي, وفي اللحظة التي أردتُ الغرقَ بها في النوم، سمعتُ دَوِيَّ صراخٍ في الخارج, نهضتُ وعلمتُ أنَّ تلك الليلة ستحمل الكثير من المصائب.

(2)

"هدوء!!" ضربَ العميد على الطاولة بالمطرقة، وهو ينظر من أعلى منصته التي اعتلت القاعة، فهدأت التمتمة وأخذ البعض يَهُزّون رؤوسهم في خيبة أمل, طَوال تلك الساعة لم تتفق الأطرافُ على حَلٍّ لأزمتهم.

قال العميد: لا يمكن افتعال المزيد من التشتيت للدولة بعد سقوط عبد الحميد الثاني، وخصوصاً بعد أن أخذ الاتحاد والترقي بالحكم.

صرخَ عربيٌّ: "هراء!"

نهض الجميعُ وهم يجادلون ويعارضون، فضرب العميد بقوةٍ أكبرَ على طاولته دون جدوى, فنهضَ أحد الجالسين وصرخ بهم، فبدأ البعض يستمع، ثم تبعه هدوءٌ تامٌّ في القاعة، "فلتكن ثورة فكرية ولنعترض على إلغاء اللغة العربية من مؤسساتنا".

– لا تنجح الحربُ إلا بالسلاح.

– وهل لدينا المال.

قال عجوز: بل لدينا اتهامات...

عاد الجدلُ لكِنْ أخفّ وطأةً ممّا بدا عليه, وقد كان ذلك يومَ شتاءٍ مَرَّ بتوتُّرٍ سياسيّ في باريس، حيث جلست نخبةٌ من الطلاب المفكرين العرب، وعددٌ من السياسيين الفرنسيين الذين تشاحنوا مع الدولة العثمانية بعد اتهامهم بالتعاقد مع العرب ونشر أفكار قومية عربية عن طريق مراسلات وصلت إلى بلاد الشام. وبعد نشوب الثورة التركية وظهور قانون التتريك، التقى أولئك القوميون معاً لمحاولة نقاش أفكار وأساليب إنشاء دولة عربية مستقلّة، تنفصل عن حكم الدولة العثمانية.

في الخلفِ جلسَ النقيب لا ينبس بكلمة, جمع في عروقه تلك الأصول الثلاثة لكنَّه لم يَنْحَزْ لأيٍّ منها, تماماً مثل جلوسه الهادئ وشعوره المنفصل عن الواقع, فقد أُجبر على الذهاب لتلك القاعة؛ ليراقبَ رجلاً جزائرياً، لم يكن أقلَّ هدوءاً منه، يجلس متقدماً بمحاذاة يساره، يدعى

حمزة, كان يتفرَّسُ فيه كأفعى تكاد تنقضُّ, وتحتَ ذلك المظهر الجليدي، كان إيليا يتخبّط بعنفٍ آملاً أن تكون تلك مهمته الأخيرة.

قليلٌ من فهم ترتيب أصله المُعقّد، الذي كان بالنسبة لإيليا مجرد أمر بسيط لم يختره على أية حال, نسله من والده عربي، أما جدته فكانت تركيةً من أصول عريقة، وقد اعتاد أن ينادي أولئك الأقارب الأتراك بأعمامه، حتى لو كانت قرابتهم بعيدة, فقد جمعت بينه وبينهم أمور سياسية، فاعتنَوْا به وقاموا على حمايته، أمّا والدته فكانت فرنسية الأصل، تحوَّلت من امرأةٍ متمردةٍ إلى ضحية منزل.

بعدَ حضوره ذلك المؤتمرَ بأمرٍ ممّن يعلوه شأناً، خرج من القاعة كي يعود إلى غرفته في الفندق, مشى على الأرض اللامعة التي بلَّلها المطر، ولفح وجهَه الهواءُ الذي كان يشبه التعرُّضَ لصفعةٍ جليديّةٍ, كان يرتدي كعادته معطفاً أسودَ أنيقاً يصل طوله إلى ركبتيه، وقبعة صوفية لم تنجح تماماً في تدفئة رأسه, عاد إلى حجرته وهو يشعرُ بصداع رهيب.

لم تَعُدْ تَعنيه الأمورُ السياسيّةُ حَقّاً، ولم يعشْ لهدف أو سبب وجيه, كان يحصل على الثناء بين الجنود ورؤسائه، وكثيراً ما كان يُثير الرهبة بين أعدائه, لكنَّهُ لم يجد يوماً فخراً بكونه رجلَ الحرب المتوحش, ففي إحدى المرات أخذَ بعضَ جنوده، وغادروا للتجسُّس على أرض العدو, ثم تفاجئوا بكونه كميناً، فسقطوا في حفرة عميقة، فأخذ الأعداء أسلحتهم وسخروا منهم. خاف جنود إيليا وبدؤوا بالبكاء والتوسّل بالبقاء على حياتهم، بينما كان هو يُحدِّق فقط بالجندي الذي يقف فوقه, وكانت فكرته في تلك الأثناء ألَّا يموتَ خاضعاً، فسحبَ قدمَ العدوِ وأسقطه، ووضع مِعْصَمَهُ حول رقبته ليقوم بتثبيته, فأطلق باقي الجنود النارَ داخل الحفرة، فأصابت جنوده.

وأثناء إطلاقهم الرصاصَ، أكلَ من رقبة العدو الذي أمسكه كأسدٍ انقضَّ على فريسته, فطارت الدماء من شراييه، وجاءت رصاصات العدو في جسد رفيقهم, لكن توقَّفوا عن الإطلاق ولم يقووا على التحرك من ذهولهم بسبب وحشية إيليا, كيف تمكَّنَ من قضم رقبة إنسان وإماتته بتلك الحركة! تماماً كسرعة الأسد أخذ إيليا السلاحَ الذي سقط مع ضحيته، وقام بإطلاق النار عليهم, وطوال تلك الحادثة لم ينبس بكلمة واحدة, ثم وجد أحد جنوده في حالةٍ حرجةٍ، فأخرجه من الحفرة وقام بإنقاذه, ومن هناك اشتهر إيليا بوحشيته المطلقة.

ذلك غير تعذيبِهِ لمساجينَ أراد أن يُخرج من أفواهِهم حقائقَ مختلفةً, وقد اعتاد أن ينظر إلى يديه ويشتمَّ رائحةَ البارودِ منهما، وإن لم تكن رائحتهما كذلك, وفي الحرب كان أكثرَهم صلابةً وتركيزاً، وأفضلَهم تصويباً للسلاح, كان إطلاقُ النارِ على رؤوس الجنود أمراً اعتيادياً، ولم يكن ليشفقَ على أحد, حتى على أولئك الشباب الذين لم يتعدَّوْا فترة المراهقة، كانوا يبكونه ويرجونه أن يَدَعَهم يذهبون في حال سبيلهم, لكنَّه كان يتخلّص من نُواحهم، فيفجّرُ رؤوسهم برصاص بندقيته، ثم يعود إلى جنوده ليعطوه الثناءَ محاولين التشبُّهَ به وتقليده في هدوئه، لكن قلّما أعجبه ذلك.

ما كان يقتلُ روحه حقيقةً أنَّه لا يتألّم بجرائمه, كلا, فقد عُذِّبَ بضميرٍ خالٍ من المشاعرِ المؤلمةِ في قلبه, متسائلاً في خُلده عن سبب ذلك الشعور اللعين الذي نهشه بعدم تألُّمِهِ على البشرية, ما أغربَ وَضْعَه!! ويا لهذه اللعنةِ التي استبدَّتْ به!! فقد كان ينهض في منتصف الليل بسبب حُلْمٍ شنيعٍ، يبكي بشدةٍ ويقرّر أنَّه سَيُغيّر من أسلوبه غداً, لكنَّ الغدَ لم يأتِ قطُّ، بل كان أمسه يكرّرُ نفسه، فيُعيد ذلك المتوحشَ إلى أرضِ القتال، جاعلاً الجنود يطمحون بالمشي على دربه.

ذهب في أحد الأيام إلى الكنيسة وتضرع قائلاً: "أنا أقتل ولا أشعر بشيء, وفي عقلي أشعر بضمير مجرد من قلبي... فهل من جواب؟".

ذهب إلى المسجد وسأل نفس السؤال، لكنَّه لم يتلقَّ جواباً أيضاً، فَكَرِهَ الوجود والبشرية كلَّها, وأصبح في مرحلة من حياته غريباً وأكثرَ عزلةً ممّا كان عليه، ولم يُحِبَّ أحداً إلا بشكل سطحي كعائلته, لكنَّه ترك جوفه فارغاً من أيِّ صديقٍ يحبُّه أكثرَ من نفسه.

لم يُشعِلْ شموعاً كما اعتاد أن يفعل، بل اكتفى بفتح الستائر ليدخل ضوء النهار الباهت الذي غشيته الغيوم, خلع معطفه وقبعته ونظر في المرآةِ إلى تسريحة شعره الجانبية المرتبة، التي كانت تحت قبعته, وضع يده اليسرى على رأسه وجعل من شعره البنيّ الداكن أشعثَ, أعطاه ذلك المظهرُ الفوضويّ شعوراً جيداً, أمَّا وجهه فكان دونَ لحيةٍ، ويبدو كصحراءَ من دون أيِّ تعبير أو شيء مميز, فهو لم يكن وسيماً ولا بَشِعاً، بل كان تماماً مثل أسئلته المحيّرة التي لا يَجِدُ المرء لها جواباً.

صَبَّ قدحاً من الخمر وأشعل سيجارةً، ثم أخذ الجريدة وألقى بنفسه على الأريكة بتململٍ, قلَّبَ صفحاتها بشكلٍ عشوائيّ، ثم رمى بها بعيداً, شرب القدح على مَعِدةٍ فارغةٍ لكنَّه اعتاد شعورَ ذلك الانقباضِ في مَعِدَتِهِ, وعلى قَدْرِ ما كانت بنيته قويّةً، كان قليلاً ما يأكل, فقد كان بطولِ ستةِ أقدامٍ، وبِمَنْكِبينِ عريضينِ مُتَيبِّسين بفعل أسلوب حياته.

كانت يده اليمنى مصابة بجرح بليغ بسبب ما فعله بنفسه, ففي أحد الأيام ألقى زجاجةً على الأرض ثم انحنى بهدوءٍ، وقبضَ بشدّةٍ على قطع الزجاج المُحطَّمة, فاحمرَّ وجهه من الألمِ، لكنَّ مظهرَ قطعِ الزجاجِ التي التصقت بقبضته أعطاه – مع امتزاجها بالدماءِ – نشوةً غريبةً. لعنَ يدَهُ التي تحبُّ حمل السلاح، ولعنَ قلبه الذي ينبضُ برأيه دون فائدة, وها هو يقارب الدخول إلى عقده الرابع من العمر ولم يَنْتَبْهُ شعورٌ عائليّ إلّا تجاهَ عَمِّه خليل الذي اعتنى به, أمَّا النساءُ فكانت لعقدته أمراً آخر؛ فكُلّما حاول التقرُّبَ إليهن كانَتْ تظهر في مُخيِّلته صورة والده العربي وهو يعذب والدته الفرنسية, فبعد أن يعتديَ عليها أمامه – وهو في العاشرةِ من عمره – كان والده يبصقُ عليها ويدعوها بالكافرة المسيحية, وفي ليالٍ عديدةٍ كانت تبقى بدمائها على الأرض وتغفو إلى الصباح، وإيليا يجلس أمامها دون أن تكونَ في يده حيلة، وكثيراً ما ظنَّ أنَّها لقيت حتفها, لكنَّها كانت تستيقظ كُلَّ صباح إلى اليوم المشؤوم الذي ماتت فيه، كان يحاول أن يثملَ عَلَّ الحَظَّ يحالفُهُ, لكنَّه كان يتقوَّهُ بغضبٍ عن ذكرياته، وأنَّه كان يتمنّى لو قطع العضو الذكري لوالده، فسرعان ما كانت الفتيات يهربْنَ منه, أمّا هو فلم يستوعب قطُّ ما كان يتكلّم.

خرج من ذكرياته عندما سمع طرقاً على الباب, فقد وصلت إليه رسالةٌ يطلب فيها العميدُ منه الحضورَ إلى الفندقِ فوراً, ارتدى ملابسه وخرج مباشرة إلى ذلك اللقاء. انتظرته مركبةٌ، وفي غضون عشرِ دقائقَ وصل إلى الحُجرة, كان أثاث الحُجرةِ ثميناً وفَخْماً، وَوُضِعَتْ على رفوفه المرتبةِ بعضُ الكتب، وعلى الطاولة في المنتصف وُضِعَتْ زهورٌ أيضاً, أمَّا العميد نفسُهُ فكان أنيقاً ومتناسقاً مثل حجرته تلك.

سمح له بالدخول، ثم صافحه بكلتا يديه تعبيراً عن امتنانه لإخلاصه وفخره به, فهو لم يُخَيِّبْ ظنَّهم قطُّ، وكان يُنجزُ أعمالَهُ على أكملِ وَجْهٍ, ومع أنَّ والده عربيٌّ، فإنَّه حصلَ على معاملةٍ خاصّةٍ كالأتراك، على الرغم من أنَّه من جهةٍ أخرى لم ينتمِ لجانبه ذاك أبداً, حتى إنَّه لم يَسْتَطِعِ القراءةَ والكتابةَ باللغة العربية، بل تمكّن من التركية والفرنسية والإنجليزية بطلاقة.

تحدَّثا بالتركية، قال العميد: هل رأيته في المؤتمر اليوم؟

– أجل لقد رأيت حمزة وعلمت أنَّه سيغادر اليوم عائداً إلى القرية في الشام

– جيد جداً, هل تعلمُ يا إيليا كم أنتَ فخرٌ لنا! لقد رفعت رؤوسنا أمام الإنجليز والعرب، فأنتَ لستَ مجردَ مقاتلٍ، بل سياسي دبلوماسي محترف.

ردَّ دون شعورٍ بالفخرِ داخلَه: أشكرك على الثناء يا سيدي.

– والآن بَقِيَتْ لكَ مهمةٌ أخيرة، وهي ما ستجعلك ترتقي لرتبة لواء، إنَّها صعبة أعترف بذلك، لكن تخيَّلْ فقط مكانتك والراحة التي ستحصل عليها بعد كل ذلك القتال.

– ما الذي يَجِبُ أن أفعلَه؟

– أريدك أن تُغادرَ إلى قرية سربة، وتعملَ متخفياً للإمساك برفقاء حمزة المتمردين, إنَّها قرية منعزلة بين الجبال، أصبحت وَكْراً للمتمرّدين بسبب قلة الرقابة عليها, وقد أمرتُ بعض الجنود بالمرور عليها كي يثيروا القلقَ فيها، فينتشر المتمرّدون كالذباب الذي يقفُ على شيءٍ فاسدٍ.

– لا أفهم يا سيدي كيف سأعرف عنهم وأنا سأكشف بمظهري الصلب أنَّي جندي؟ سيعلمون ذلك، حتى لو ارتديتُ ملابسَ عربيّةً.

– لا بأس لو علموا، ولستَ مضطرّاً للاختباء تحت مظهرٍ معيّنٍ، فالجنود يمشون بشكل طبيعي هناك، لكن استخدمْ نفوذَكَ وذكاءك، وستجدُ أنَّك مُنجِزٌ بحقّ.

صمت الرائد وقال بخيبةِ أملٍ: "إنَّ الدولة العثمانية تخسرُ مَرْكَزَها، فكما تعلم لقد خسرنا الحُكمَ على رومانيا وصربيا والجبل الأسود، هذا غير الديون المتراكمة بسبب الإصلاحاتِ التي لم تنجح تماماً".

رفع يديه موقفاً نفسَهُ عن الكلام، ثم أردف قائلاً: "المغزى هو عدم زيادة هموم الدولة ومشاكلها، خصوصاً من الأفراد داخلَها".

– وماذا عن التدريبات العسكرية وجميع المهام؟

– سَتُعفى عنها تماماً، وقد تواصلت مع علي باشا وهو خالُ والدك التركيّ الأصيل, سَيُراقبك ويُخرجك من جميع المشاكل, أنتَ محظوظٌ بأنَّ جِدَّتَكَ كانت تركيةً، طالما علمتُ أنَّ لديك تلك العروق.

وجدَ الرائدُ عدم الرغبة على وجه إيليا، ولم يكن ليُلامَ عليها, فَقَبْلَ عدةِ شهورٍ أخذ أمراً بالذهاب إلى مهمة، فانتهت بشكل شنيع وتحوَّلَتْ إلى مجزرة عائلية كانَ هو مَنْ تسبَّبَ بها, كانت تلك الحادثةُ الحَدَّ الفاصل بينه وبين كونه جندياً متفوقاً، فقد أراد الانتقام من اللواء لكنَّه أخبرَ أنَّه مفقود، وربما مُتخفٍ لفترة معينة, وتلك المهمة الأخيرة التي جاءته هي تماماً ما احتاج إليه في الآونة الأخيرة، فقد كان يُفكِّرُ في طريقةٍ للتخلّص من تدريب الجنود وإنشاء المزيد من المجرمين الذين يحاولون التشبُّهَ به, كانوا يسعون إلى أن يكون مدربهم، فهو لا يصرخ في وجوههم، ويتساهل معهم ليكونوا باردينَ في الحربِ، وقد نجح في جَعْلِ بعضهم عديمي المشاعر مثله تماماً, فتمسَّكَ به رؤساؤه، وأصبحوا يعطونه مهماتِ تدريبٍ ويَذُرّون عليه أموالاً زادت عن حاجته, وقد علم الرائد ذلك اليومَ عن سبب تَجَهُّمِ إيليا, فقبل عدة سنوات أخذ مهمة بسبب اللواء تحولت إلى مجزرة.

قال الرائد: "لم تكن الأشهرُ الماضيةُ سهلةً عليك أيها النقيب، وكان الأمر بأكمله مجردَ سوءِ تفاهُمٍ".

– لم أجد اللواء كي أسأله عن ذلك.

– أرجوك يا إيليا... نحن فخورون بك، وعلى استعدادٍ لتنفيذ أيِّ تعويضٍ تطلبه، لكن لا تُشكِّكْ في رؤسائك، وستعلمُ في يومٍ من الأيام أنَّ إلقاءَ أوامرَ خاطئةٍ هو جزء لا نُحبّذه، لكنَّنا نتعلّم التعايش معه, وهل تظنُّ أنَّ اللواء كان سعيداً بأمره عليك، ولما حصل لتلك العائلات؟ لقد اختفى من شدة وطأة الألم التي شعر بها تجاهَ قراره.

لم يقل إيليا شيئاً، فوضع العميد يده على كتف إيليا وركَّزَ بالنظر إليه قائلاً: ستكون الأمور على ما يرام، وقد أرسلتك عمداً لهذه المهمة كي تختليَ قليلاً, وأيُّ شيء تحتاج إليه تواصل فيها مع علي باشا، وهو سيصدر طلباتك لنا، اذهبْ وخُذِ الوقتَ الذي تحتاجه.

– لكن هذه ليست نقاهةً بل مهمة أخرى.

– إنَّها نقاهة ولا يَضُرُّ أن تنفع إمبراطوريتنا، وهي مهمة بشكل هادئ, فلا ضغط عليك فقد اذهب.

استهزأ إيليا في داخله من جملة "لا ضغط عليك", أراد أن يقول "لا ضغطَ عليَّ بكوني من يفتعل الجرائم ويحلمُ بها في الليل!"

لكنَّه أرادَ أن يستغلَّ الذهاب على أية حال؛ كي يتجنّبَ التواصل مع أحد, وهناك لديه عمُّهُ خليل الذي اعتنى به ليراه من فينةٍ إلى أخرى.

(3)

في منتصف قرية سربة نَشَبَ حريقٌ وصل إلى أرزاق الناس، فأخذته النيرانُ حطباً لها إلى أن وصلت إلى مزروعاتهم ومواشيهم وبعض دكاكينهم, فعامت رائحةُ شواءٍ ممزوجةٌ بالقمامة المحروقة، وخنقت أنفاسهم وفتحت شهيتهم الفقيرة التي لا تحصل إلّا على ما يقارب كسرةَ خبزٍ في النهار, لكن مع شعورهم بالحقد والخوف من أولئك الجنود المكسوّين ببدلاتهم العسكرية الخضراء, شعر الناس بالراحة لأنَّ تلك النيران لم تلتهم إنسانا كحطب لها.

هُرِعَ الجميعُ لحماية ممتلكاتهم حول منازلهم الخشبية المهلهلة الشبيهة بقطع إسفنج مُمزَّقة ومهترئة, بينما وقف الجنود لمشاهدة تلك الأحداث مستمتعين بأصوات الصراخ والمناداة للنجاة كأنَّها سيمفونيةٌ تعزف ألحانَ النصرِ والسيطرة عليهم, فكلُّ امرأة قامت بحساب عددِ أفراد عائلتها، وتنادي هنا وهناك عَلَّها تجد مَنْ يختبئ ليطمئنَّ قلبها, وبعضهن غَنّى بألحانٍ ثكلى, والتراب قد وصل إلى حلوق الرجال وهم يُطفئون به النيران بسبب ندرة المياه, أمَّا الرماد فكان على هيئة جثثٍ حتى لو خلت من اللحم والعظم, فقد لُعِبَ دورُ المأساةِ ببراعةٍ لأولئك الجنود المشاهدين, فظهرت لقطة الموت بصورة جيدة, لكنَّ السكان المُحطّمين تمنَّوْا في أعماقهم لو تنتهي هذه الحياة، حتى لو كانوا يحاربون أولئك الجنود كما يحاربون اقترابَ المَنيّة, فقد سئموا من حكم العثمانيين لهم ما يقارب 600 سنة, فمنذ (1299م) إلى ذلك اليوم (1912م)، حيث الراحة والأمان كانا حُلْمَ يقظةٍ, فلا وقتَ للنوم بقرّةِ عينٍ، بل وَجَبَ إبقاءُ عَيْنٍ مستيقظةٍ, بعد أن تحوّل ذلك الحكم من أفضل قوة في العالم إلى أسوأها.

بين المَزارعِ والمنازلِ وقف إيليا بملابسه العسكرية في زُقاقٍ واضعاً يديه خلف ظهره، وهو يتأمل تلك البقعة الهادئة بسكون, كلُّ مَنْ مَرَّ بجانبه كان يُسرع ملتصقاً بالجدار بنظراتٍ يملؤها القنوط والتوسّلات, عَبَرَت امرأةٌ مع صبيّ لها، فوضعت يديها على عينيه لتحميَهُ من رؤيته, لكن كُلّما جاءت لحظة انعزاله كان يُراقب منزلاً معيناً داخل إحدى تلك المزارع, ثم يعود مجدداً ليجولَ في الأرجاء.

بقي هناك إلى أن خمدت النيران, وعاد الجميع إلى منازلهم مطمئنين لذهاب أولئك الجنود، وشاكرين الله على عدم وجود أيّ خسائر بشرية, فالقريةُ لم تكن معتادةً على وجودهم, لكنَّهم كانوا يظهرون عند المصائب لمحاولة إخمادها, أما إيليا فلم يُغادر أبداً, بل بقيَ يتلفّت هنا وهناك بحثاً عن أيّةِ أخطاء, ألقى سيجارته على الأرض ومشى في الأرجاء إلى أن وصلَ إلى زُقاقٍ آخرَ قاده إليه صوتُ رجلٍ عجوزٍ يتغنّى بشعرٍ مأساويّ ويبكي قائلاً:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيتَ كُلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

والعينُ بعدهم كأنَّ جُفونَها سُمِلَتْ بشوكٍ فهي عُورٌ تدمعُ[1]

[1] من قصيدة لأبي ذؤيب الهذلي يرثي أبناءه الخمسة بعد وفاتهم.

اقترب إيليا ببطء ليستمعَ للعجوز، فرآه يمتلك لحيةً بيضاءَ طويلةً، وشعراً مشابهاً في طوله ولونه الثلجيّ, كان يرتدي قمبازاً بنياً مهترئاً، وعمامةً سوداءَ، ويحمل كتاباً بين يديه. ما كان للعجوزِ إلَّا أن خبَّأه تحتَ مِعْصَمِهِ مُتشبِّثاً به على خصره، وأسرع هارباً عَلَّه ينجو بحياته.

جرى إيليا خلفه واستغرب من سرعة أقدام ذلك العجوز المسكين بين الأشجار والطبيعة, فلم يتعبْ أو يسقطْ خائراً، وبدا مظهرُهُ مخيفاً, احتار في أمره، وأصبح لديه فضولٌ لمعرفته, أراد أن يُمسك به فتتبَّعَهُ إلى أن وصلا لوادٍ مظلمٍ لا يُنيره إلا القمر, وأخيرا سقط العجوز متعثراً بصخرة صغيرة جاءت بين أقدامه, طار الكتاب من يديه وفُتِحَتْ صفحاتُهُ من الهواء مثلَ جناحي حمامةٍ حاولت الطيران، ثم سقطت هائمةً على وجهها, أخذ إيليا الكتاب ونظرَ إلى عنوانه, كان عبارة عن كتاب أدبيّ يجمع أهم الأعمال الأدبية العربية من أيام الجاهلية إلى يومهم ذاك, لم يكن هناك مَفَرٌّ للعجوز، فقال بصوتٍ مسكينٍ مرتجفٍ: "أنا مجرد عجوز فضولي". ثم لوَّحَ بيده وأردف قائلاً: "يُمكنك الحصول عليه".

تفحَّصَ إيليا وهو يتمعّن كلماته ويتلمس أطرافه ببطء, وقلَّبَ داخل صفحاته غيرَ آبهٍ بما كُتب, لم يعرف قراءة اللغة العربية, انحنى على قدم واحدة بمستوى العجوز، وقال بصوتٍ يقترب إلى الهمس: "من أين حصلتَ على هذا؟"

استغربَ العجوز وقال: "تتكلّم العربية بطلاقة!"

لكنَّه في الحقيقة خافَ من صوت إيليا الأجشّ، ومن هدوئه وثبات عينيه عندما يتحدّث.

فكر إيليا لا بُدَّ أنَّ هذا العجوز أخرق أو يدّعي الغباء, لكنَّه شعر بشيءٍ غريبٍ تجاهه, شيءٍ يوحي بتمثيله الحماقةَ, حدَّقَ في ملامحه، لكنَّ العجوزَ تجنَّبَ النظرَ في عيونه, أمسكه من يده وقام بإنهاضه، ثم دفعه على ضوء القمر كي يرى ملامح وجهه, كان العجوز يغمض عينيه تارةً ويفتحهما تارة أخرى, ويثني فمه ويُجعّد عينيه. صرخ به إيليا: "توقّف عن فعل ذلك".

تذكّرَ إيليا قول اللواء عن شاب أبهق متمرّد ضدَّ الدولة، ويدّعي أنَّه عجوز, قال اللواء أن لا أحدَ يعلم بحقيقة ذلك الشابّ، وقد يُصدِّقُ الناس أنَّه مسكين في عقده الثامن من العمر, فقد كان يرجف صوته عامداً، وكان قارئاً نَهِماً, وكلّ ما ينطق به يظهر في حكمة ووقار.

مثّل إيليا أنَّه اكتشف أمرَه وَحْدَهُ، وقال: "أنت مجرد شابّ! كم تبلغ من العمر؟"

بقي الشابُ صامتاً فضغط إيليا على فكّه "كم تبلغ من العمر؟"

– السادسة والعشرون سيدي

قام بتركه وبدأ يطرح الأسئلة

– ما اسمك؟

– بلال

– كيف لك هذه اللحية البيضاء؟

– هل ستقومون بتعذيبي، لكنّي لم أؤذِ أحداً.

– أَجِبْ عن السؤال فقط

– لقد ورثتها يا سيدي

– وأين تقطن؟

– في منزل وسط القرية

نظر إيليا إلى الكتاب وتفحّصه جيداً، ثم قال: من أين أتيت بهذا؟

– من الظاهر شغموم

– الظاهر شغموم؟

– أجل إنه رجل عجوز ألعبُ معه النردَ، وهو مشعوذ يتنبأ بالأمور فتحصل حقّاً, لقد راهنت معه في إحدى المرات، ولم يمتلك المال فقبلت، عندها أعطاني الكتاب بدلاً من خسارته.

لم يُصدِّقْهُ إيليا, فتلك كانت قرية صغيرة لن يُخفى عنها سِرٌّ وجود مشعوذ, وقد أراد أن يعلم أين سيصل بلال بحماقته.

– ألم يتنبأ المشعوذ بتلك الخسارة؟

خاف بلال من إجابته فقال مدافعاً: أقسمُ إني سآخذك إليه غداً

– لا حاجةَ لذلك, لكن لا أريد رؤيتك في ذلك الزُّقاق مرة أخرى.

قال بصوته المرتجف: لا.. لا لن تراني بعد الآن.

لاحظ إيليا أنَّ بلالاً يدّعي الخوف أيضاً، وأنه في الحقيقة يريد المغادرة فقط، وليس في مزاج بأن يخوض تحرّيات, فكّر أنَّهُ معتاد على الوقوفِ أمام الناس والجنود، ولَعْبِ دور العجوز الذي يريد العودة إلى المنزل فقط, أعجب بذكائه, لكنَّه أخذ الكتاب على أية حال وتركه في تلك الظلمة.

غادر إيليا وامتطى حصانه لكنَّه غَيَّرَ مساره عن منزل عمِّه، الذي كان يحميه ويراقبه, فقد كان يدَهُ ما يحتاج أن يذهب به إلى مكان أسراره, ذلك المكان الذي اختاره منذ مجيئه من باريس ليلجأ إليه في ظلام الليل الدامس, كانت عبارة عن خيمة مثبتة على تَلّةٍ في مكان معزول داخل مغارة مهجورة, أخرج القنديل الذي كان يُخبّئه بين الصخور وقام بإشعاله كي يدخل إليها, إنَّه المكان الذي احتاجَ دائما أن يلجأ إليه حتى لو لم يَفْهَمْ شيئاً من كنزه.

أنار الخيمة ونظر بتمعُّنٍ بحثاً عن بقعة فارغة, كانت الخيمة مليئة بالكتب المرتبة والمغلّفة بقطع قماش بعناية، وقد حافظ عليها جيداً, عشرات الكتب قام بترتيبها حسب حجمها, وذلك الكتاب الذي أخذه من بلال كان قد أضاعه منذ أيامٍ عندما تركه في حقيبته على حصانه, تصفّحه قليلاً ثم وضعه جانباً, مسح على وجهه ثم وقف يُفكِّر في حاجته إلى تلك الكتب، فهو لم يعد يُحَبِّذُ العيش، وأصبح هدفه في الحياة إيجاد اللواء ومعرفة حقيقة فعلته, لكن وجد نفسه في تلك البؤرة التي عادت به إلى زمن مراهقته، حيث كان يهوى قراءة الأدب والبقاء وحيداً.

ظَنَّ دائماً أنَّه يُغذّي عقله، وتخيّلَ نفسه في المستقبل متزوجاً ويعيش في مزرعة بسيطة مع إسطبلٍ للأحصنة، والكثير من الأبناء الذين سيعاملهم بلطف ويحبّهم دون قيود على عكس ما فعل والده عندما كان يُشبعه ضرباً، عَمِلَ على ألّا يشبهه لكنَّه لم يحزرْ أو يتخيّلْ أنَّ نتيجة حياته هي السعي إلى الموت!

أتقن عمله وحقَّق حلمه بأن يكونَ متميزاً وذا مكانةٍ عكس والده, لكن ما هي المكانةُ التي جعلت منه مصدراً للشرّ؟ هكذا كان الضمير يعود إليه كما يفعلُ مراراً وتكراراً في عقله وليس في قلبه، فهو يعلم أنَّه لو عاد إلى ساحةِ قتالٍ أو أخذ مهمة سَيُجْرِمُ مجدداً, نظر إلى الكتاب كأنَّه سيعود به إلى الزمن الذي كان فيه حالماً, فكّرَ في ذلك العجوز ثم قال في سِرّه لا بُدَّ أنَّه كان يستحقّ الرهان, بل إنَّ أيَّ كتاب في زمن تقبع فيه المعرفة، يُعتبر فوزاً عظيماً، وهو كذلك سيفعل لو مُنِعَ في سنواته السابقة عن القراءة.

قرَّرَ البقاء هناك في تلك الليلة, فردَّ حصيرةً وارتدى ملابس سوداء كعادته, وجعل من ملابسه العسكرية وِسادةً لينامَ عليها, لكن سرعان ما اختفت تلك الراحة عندما سمع صوت أقدام في الخارج, رفع رأسه ثم نهض بهدوء, كان معتاداً على سماع خطوات بعيدة في الخارج، لكنَّ تلك الخطوات لأول مرة كانت تقترب, كانت تبدو كصوتِ أقدامٍ تتقدّم وتختفي بهدوء, رأى حاجةً لارتداء بدلته العسكرية والخروج بشكل طبيعي, لكن من سيأتي في هذه الساعة إلى هذا المكان المهجور؟

ذهب إلى الخارج وهو ينظر دون حذرٍ حولَه, فلم يكن لديه شيء ليهابه، لكنَّه لم يجد أحداً, بل مجرد هدوء في ذلك الجبل الفارغ، فعاد إلى خيمته لكنَّ القلق لم يغادره, فكَّرَ في سرّهِ أنَّه يجب إيجاد طريقة للتخلّص من كوابيس حربه, عَلَّه يعود إلى طبيعته أو يتصرّف كرجل عادي, فهنا لا توجد حرب, لكنَّ التخلص من العادات التي ترافق المرء في حياته تكون كالبَتْرِ.

مَرَّت الدقائق وهو يراقب أيَّ خيال ينعكس تحت ضوء القمر, لمح رجلاً يمشي على أصابع قدميه ويحاول الابتعاد, فخرج وهو يمشي بغير حذر إلى أن رأى بلال.

– أنتَ مجدداً؟

رفع بلال يديه مدافعاً عن نفسه

– لا تؤذيني

فما كان منه إلّا أن أمسك بذراعه ولواها خلف ظهره إلى أن شعر بلال أنَّ يده على وشك الانكسار, صرخ من الألم فقام إيليا بإسكاته بدفعه على الأرض.

قال إيليا: لقد امتلكتَ فرصةً للمغادرة

– لقد تَبِعْتك... أَثَرْتَ فضولي فَتَبِعْتك.

في تلك الأثناء سَمِعا صوتَ شخصٍ قادمٍ, أنهضه إيليا ونظر حوله بحذر, كان المكان هادئاً يُسمع فيه أصغرُ حَسيسٍ, فسمع صوت قدم على أوراق شجر يابسة مجدداً, أخذ بلال وأدخله إلى الخيمة وقال:

– سَتَتَّبع أوامري

أمسك بلال الفانوس بينما إيليا يراقب المكان, رفعه ليرى ما يوجد حوله وقد أذهله ما التقطت عيناه, بدا كأنَّه رأى أطيافاً ذهبية، وبدأ بقراءة أسماء الكتب مندهشاً:

– ابن الرومي, أبو العتاهية...

رفع كتاباً آخرَ ثم قال بسخرية: "علم العروض للخليل بن أحمد الفراهيدي, هل تُفكِّرُ أيُّها الجندي أن تُصبح شاعراً؟"

قاطعه إيليا وقام بإسكاته, لم يدرِ لِمَ يقومُ بحمايته؟ أو لماذا لا يُفكِّرُ في أذيّته؟ أشار إليه أن يلتزم بالصمت، ثم أطفأ المصباح وراقب المكان مجدداً, سمع صوت جنود يتكلمون بالفرنسية والتركية, أمسك بلال وقال: "سنخرج إليهم".

ذُعِرَ بلال قائلاً: "لا... سيقضون عليَّ، فنحن لسنا معتادين على وجود جنود في القرية، ولا بدّ أنَّهم تبعوني إلى هنا، فهم يراقبون المكان منذ فترة".

– لا تملكُ خياراً حقّاً.

سَحَبَهُ من ياقته وحاول إخراجه

قال إيليا: هل تريد الخروجَ من هنا على قيد الحياة؟

– نع... نعم

– اتّبعْ ما أفعله فقط

مشيا إلى أن اقتربا من صوت الجنود، فخرج جنديان ووجّها سلاحهما إلى الشاب وإيليا, تكلّما باللغة التركية وتكلّم هو بدوره بطلاقةٍ باللغة التركية, أما بلال فكان حائراً بينهم, اقترب جنديٌّ وتكلّم مع إيليا بأنَّه سيقوم بأخذه, لكنَّ إيليا وضَّح لهما أنَّه سيقوم بتسليمه بنفسه, لاحظ أنَّهم مُصرّين على مرافقة إيليا, فما كان من بلال إلا أن يضرب إيليا على وجهه كي يطرحه أرضاً, وقد نجحت خُطّته عندما قام إيليا بضربه أيضاً, تبادل التحية مع الجنود، وقال أحدهم: "لقِّنْه درساً قاسياً"، ثم غادروا مبتعدين.

ساعد بلال على النهوض فقال وهو يئن ويتذمر: "لقد أشبعتَني ضرباً في هذه الليلة اليائسة".

– ما زالت روحك في جسدك.

– كيف تمكَّنت من التكلّم بطلاقة؟ هل أنت جندي خيّر أم كائن غريب؟

– ستغادر الآن ولا أريد أن أراك مجدداً.

لم يَرَ إيليا الخطرَ في بلال، إذن لماذا كان النقيب يُحذِّر منه؟ لا بُدّ أن يُعطيَ الأمرَ مزيداً من الوقت دون إثارة شكوكه، وذلك بأن يجعل مقابلاته به صدفةً, لكنَّه رآه من أولئك الرجال الذين يقتلهم الفضول، ويعيشون داخل عقولهم فقط, فلو كان شخصاً آخرَ لقام بتهديده وتخويفه.

– حسناً

مشيا بهدوء تلك الليلة, كان بلال ينظر بطرف عينيه إلى إيليا، ثم يعود بنظره للأمام, ثم ينظر مجدّداً ويُفكِّر في أمره, قال: كيف أقنعتَ الجنودَ بأمري؟

– قلتُ إنَّك أسيرٌ عجوزٌ سأُلقيك بين أفراد أسرتك

– أنتَ لستَ العدوَّ لي ولهم, ما أمرُك؟

– أنا مجرد جندي

– وما أصلك؟

لم يُجِبْ إيليا على ذلك السؤال, بل اكتفى بالصمت

– لم أرَ في حياتي رجلاً هادئاً مثلك, فأنتَ ترهب من أمامك دون أن تصرخ أبداً

– لا يزأرُ الأسدُ عند تثبيت فريسته

– كم هذا مرعب!!

صمتا قليلاً ثم قال بلال محاولاً أن يقتطع الصمت: "أتعلمُ أيُّها النقيب, منذ أن فتح محمد الفاتح القسطنطينية وأنا أحلم بزيارتها، وما زلتُ كذلك، فهي إسطنبول حالياً".

– افترضْ أنَّك بنيتَ القلاعَ معهم عام 857هـ عندما أرادوا...

قطع إيليا كلامه بسخرية باردة ثم أردف: "أعني عندما أردتم منع المساعدات من البحر الأسود".

ضحك بلال بتوتر وقال: "أنتَ مضحك, كما ترى أنا أقرأ كثيراً وأتفوّه بمداخلات كثيرة".

وقف إيليا عند مفترق طريق وقال: "فلتذهب الآن".

كان الليل دامساً والمكان خالٍ

قال بلال: لاحظتُ أنَّك جديد هنا, إذا أردتَ أيَّ مساعدة في شيء ستجدني.

– وهل تساعد جميع الوافدين الجدد؟

– لا يوجد وافدون في هذه القرية المنعزلة, لكنّي مدين لك لإنقاذك حياتي.

– احذَرْ أيُّها الشابّ من سذاجتك, أنا أراقبك وسأكسر رقبتك إلى قسمين إذا رأيتك حول ذلك التل.

– فهمتُ يا سيدي.

(4)

كانت حدودُ القريةِ بالنسبة لنا هي العالَم, وكُنّا ننظر إلى المصائب مثل مساجين لكن في حكم ذاتنا, بقينا نجلس هادئين عند حصول المصائب، فالحِدادُ لدينا لم يكن لينتهيَ حَقّاً, كلّ صباح لوالدتي كان عبارة عن تفاؤل وانتظار، وفي مسائها تُعْلَنُ جنازة الحزن على غيابه, أحياناً تلومه وأحياناً أخرى تقول إنَّه هو مَنْ خسرنا، لكن على جميع الأحوال لم تكن لتعترفَ بحقيقة موته, بل أحياناً تشعر بالسعادة لدرجةٍ تجعل أشقائي (أخيلة وأدهم وآزر) يغرقون في البكاء, أما أنا فبدأتُ أرى الأمر اعتيادياً, لم تذرف عيني دمعةً منذُ عشرِ سنوات, جميعنا متساوون في الحزن والخسارة, لكنّنا لسنا متساوين في ذلك ظاهرياً، فردّة الفعل لا تُعبّر عما في سبرنا, لا نعي ذلك ولا نتحكّم فيه دائماً, المصائب أحياناً هي ما تجعل تخيّلاتِ العنفِ تطغى إلى الخارج، لكنّنا لا نعترف بذلك الجزء إلا نادراً.

طردتُ تلك الأفكار، وقلتُ إنّي لن أُضيّعَ استيقاظ تلك الليلة هباءً, استلقيت على ظهري وفعلت ما أكرهه, التأمل, لم يتأمّل المرءُ وهو يعلم ما يريد؟ أظنُّ أنَّنا لا نجهل لكن نتجاهل الحقائق, خصوصاً إذا كانت أموراً سيئةً جداً في أطباعنا, لكن من أنا لأتكلّمَ عن الجميع على أيّ حال, أنا حَبّةُ رملٍ تحاول أن تصبح بذرة, إذا شققتُ الأرض أعلمُ أنَّي على وشك التحرّر, وإذا لم أفعل أكون مثلَ ساعةٍ تتكرّر، فيعود يومي نفسه إلى أن أشعر بالدوار, وأصبح لا أرى حولي إلا خيالاً مشوباً... جيداً.. جيداً جداً.. تمنّيتُ لو أُعبّرُ عن ذلك بكلمات شعرية, لكنَّه كان يبدو مستحيلاً، وكأنّي أخاف أن أقرأ دماغي على الورق.

اكتفيتُ بتلك الساعة وعدتُ إلى المنزل. كنّا منفصلين في الداخل, نمضي معاً في أسلوبٍ منعزل, سلمى زوجة شقيقي أدهم – وهو أكبر أشقائي – كانت تشاركنا بمأساتنا, كأنَّها نشأت في ذلك المنزل معنا, وفي مرحلة معينة بدأت أتفادى أيَّ اصطدامٍ مع أحد، مع أنه كان نادراً, فقد كانت سلمى لطيفة وتحاول في بعض الأحيان أن تجمعنا معاً بقولها:

– جودى, أتودّين الخروج معي ومع أولادي؟

وأحياناً كانت تقول: "لنذهبْ أنا وأنتِ وأخيلة ونجلس بجانب النهر, فشقيقتك تبدو في مزاج جيد اليوم".

كنتُ أتعذَّرُ قائلةً إنَّ لديَّ توعُّكاً, أو لا يجبُ أن نغادر ونترك والدتي وحدَها، فهي خطيرة على نفسها. كانت سلمى تعلم أنّي أتفادى الأمر لكنَّ ذلك لم يمنعها في كلِّ مرة حاولت أن تجمعنا معاً, فكم أحببتُها وقدّرتُ جهدها, وكان سؤالها كافياً بأن يجعلني بخير, لكنّي فضَّلْتُ البقاءَ وتفقُّدَ الأوراق التي اعتدتُ على سرقتها من غرفة آزر, حتى لاحظت مدى صغر البؤرة التي نعيش فيها, فقد علمتُ أنَّ هناك علماء وعظماء في التاريخ, هذا غير غرابة الحضارات ونشأة العالم المتحضر, لقد علمتُ أنَّ الأممَ تنهض بنسائها أيضاً, ويا عجبي أنَّ ذلك كان في الشرق، وما يزال معاصراً ليومي، مثل (ملك حفني) التي قامت بتشجيع الفتيات على إكمال دراستهن. سرحتُ في نفسي قائلة: "ما أعظمَ تلك الفكرة, مدرسة للفتيات"، وكنتُ قد تمنَّيتُ لو أعلمُ بها إن وُجِدت.

خرج آزر إلى عمله، كان هو ربّ المنزل الذي يُخفي تهوُّرَهُ, فالعرب في تلك الفترة ما قبل الثورة كانوا متشابهين بالاستسلام الفعلي, دائماً ما احتاجوا للمساعدة في حكمهم على الأقاليم، وهذا ما جعل الأتراك يزحفون إلى أراضي العرب كخدمٍ في البداية وسكانٍ مسالمين ومساعدين، حتى وجدوا طريقهم إلى أعلى المناصب, لكنَّ شهامة العربي وجرأته كانت كبيرة ونادرة بين أقوام العالم, ونقص تفكيرهم في أهمية الحياة المادية قلّلَ من اهتمامهم بالمحاولة؛ وذلك قد يكون بسبب قلة العلم.

كثيراً ما نسمع أنَّ الدِّينَ يبني الأممَ بالأخلاق، لكن كيف يمكن للأخلاق أن تبنيَ قوميين يعملون في الصناعة؟ كيف نصنع الأسلحة بكتب أدبية وفلسفية؟ وإذا ما قاوموا عادوا مستسلمين إلى صحرائهم وأفكارهم الروحانية غير قادرين على الموازنة والتفرقة بين الدين والقوة، وبين الحياة الدنيوية والحياة ما بعد الموت, وبعد أن زرع الأتراكُ الجهلَ بينهم أصبحوا أقواماً ضعفاء, لكنَّهم لم يكونوا كذلك في البداية, فتحوَّلوا من أقوى الأقوام وأفضلها قولاً وديناً إلى أقوامٍ مستضعفةٍ لا تقدرُ على التفكير المنطقي من أجل تحقيق العدالة والحصول على الحقوق, فإذا اكتفينا بتبجيل عظمة الخالق منذ شروق الشمس إلى غروبها، ولم نعلم حقيقة دورانها, سيكون العقل نقمةً وليس نعمةً.

كان آزرُ يعمل في مزرعة كبيرة بجانب قريتنا، وقد بدأ العملَ فيها بالقانون الإقطاعي, كانت أقربَ إلى مدينةٍ مصغّرة، عمل فيها حوالي أربعين عاملاً. وقف الحراس الأتراك برؤوس شامخة مع رئيسهم قصير القامة ناعم الوجه, وذي الشاربين المُحلّقين فوق فمه، الذي وُظِّفَ لمراقبة شؤون العمل, ففي ذلك العام لم تكن الأمور هادئة بل كان العرب يحاولون الوقوف على أقدامهم, وقد سبّبوا القلق للجنود حتى أصبحوا لا يبرحون مكانهم إلَّا عند التأكُّد من وجود الجميع في مواقعهم وعملهم المخصص, كان آزر اجتماعيّاً ويُثير الريبة بتصرفاته القيادية, فعلى قَدْرِ ما تعمَّدَ أن يبدو أحمقَ، كان أستاذاً للجميع, كانوا يستشيرونه حتى في أمورهم، ويطلبون مساعدته عند الوقوع في مأزق، ولو عاد القرار إليه لقام بتعليمهم جميعاً، وأنشأ المكتبات لهم, ليس بهدف خيري, بل بهدف أنانيّ، بأن يصبح قائداً ويحقّق حلمه بالحصول على الاحترام والعظمة.

توقَّفَ عن حَرْثِ الأرض عندما سمعَ صوتَ صديقٍ قديمٍ ينادي باسمه, لهفة للماضي القديم قد عادت إليه عندما كان يمتلك الأصدقاء, فرفع رأسه ورأى صديقه حمزة الشلبي, بدا حمزةُ مجردَ راعي أغنامٍ لا أكثر, لكنَّه كان أكبرَ من ذلك, فقد كان ممّن هاجروا من الجزائر إلى بلاد المشرق عام 1911 بسبب حرمانهم من حقِّ التعليم، وعدم نيلهم الحقوق السياسية من قبل الفرنسيين، ثم غادر إلى فرنسا، وكان مِمَّنْ دعموا جمعية (العربية الفتاة), وبعد اقتراب الخطر عليه بتعرّضه للإعدام، عاد إلى الحياة البسيطة بعد أن توقَّفَ عن المقاومة, أمّا عائلته فبقيت في الجزائر، ولم يرغبوا في ترك بلادهم.

– هل ما زالت عيناك تتكلّم؟

كان ذلك أسلوباً مجازياً بمعنى "هل تقرأُ ما أُرسل إليك؟"

قال كاذباً: لم أَجِدْ وقتاً لذلك.

– هل تعلم يا رفيقي، لم يكن الأمر سِيّان من دونك؟

– علينا أن نمضيَ بعد تلك الخسارة, رحم الله من غادر ظلماً

– سنذهب كي نُصلّيَ عليهم غداً، ما رأيك لو تنضمّ لي ولبلال؟

ابتسم آزر عندما سمع اسمه

– لم ألتقِ بصديقِنا الأبيض منذُ مدةٍ طويلة.

– إنَّه يقضي أغلب وقته مع الظاهر شغموم

– الظاهر شغموم!!

– إنَّه رجل يبدو في العقد السادس من العمر، قيل إنَّه سكن هنا وعاد بعد خمسة عشر عاماً إلى القرية

– ما أمرُه؟

صرخ جنديٌّ بهما أن يعودا إلى العمل, قال حمزة قبل أن يغادر: "فلتأتِ اليومَ إلى المتجر الأثري".

اختلف الأمر كثيراً في ماضي آزر, كان ذلك القيادي الذي تأخذ الأغلبيةُ مشورتَهُ, كانت في قراراته حكمةٌ لهم حتى لو لم تكن كذلك لوالدينا, إلى أن أُعدم اثنان من جماعتهم أمام العامة, وعُلِّقت رؤوسهم لمدة يوم في القرية عبرةً للناس, هكذا قام الجنود بترهيبهم, وبوضع كلِّ متمرّدٍ بصورته الحقيقية والدموية أمامَ العيان.

في تلك الآونة الأخيرة كان يقضي أغلب وقته وحيداً يعمل ويعود إلينا, يحاولُ التكلُّمَ مع والدتي، لكنَّها دائماً ما تنتهي بكلام غير منطقي, فيعود إلى غرفته, كان يقرأ تلك الكتب التي احتفظ بها وأعاد قراءتها عشراتِ المرّات حتى حفظها تماماً, فهو لم يملك غيرها, وأصبحت أيامه عبارة عن دائرة من غير ثغرة لتغييرِ نمط الأيام المتشابه, لم تكن هناك أهمية للتغيير, بالنسبة إليه هو لعائلتنا الأولوية, فبعد أن توفي والدنا تخلّى آزر عن أنانيته، فهو لم يكن ذلك الرجل الجيّد المطيع لوالديه, بل امتلك غروراً جعله يأخذ قراراته بنفسه، حتى لو كانت غيرَ صائبةٍ في بعض الأحيان, وفي بداية رشده كانت أغلب قراراته تعود إليه بالمصائب، فيتحمل والدانا عواقبَ أفعاله، ويقومان بمعاقبته, لكن نادراً ما نجحا في امتلاكه، فقد كان يعود إلى ذلك الطريق الشائك الذي كان في نظره يستحقُّ الألم والمحاولة, حيث كان يقول: الحياة هي حقٌّ امتلاك!

لكنَّه لم يعلم يوماً أنَّ الحياة هي تحمّل المسؤوليات، واحترام الأفراد الذين يعيش بينهم, وتصبح تَملُّكاً عند الوعي والإدراك، ولا تكون تحكُّماً بالنسبة لصاحبها، بل حكمة تعود إليه.

أما نقصه الآخر فقد كان أخلاقياً ودينياً لتلك التصرفات السيئة تجاه والديّ, لكنَّ شعوره بالذنب عاد كي يضيء طريقه عَلَّه يُعوِّض عن تلك الأفعال, وكان الثمن غالياً، وهو الندم الذي شعر به بعد وفاة والدي, فقرَّر تعويض أخطائه بالتفكير في غيره قبل التفكير في حياته, وعاد إلى المنزل في ذلك اليوم كما في باقي الأيام, ملابسه مُهلهلة, كان يبدو رثَّاً بعجاجِ التراب الذي علق بثوبه كالحشرات, لكنَّ الراحة كانت دائماً ما تبدو على وجهه, هل كان يتخلّص من شعوره بالذنب حتى بعد تلك السنوات؟ لم أكن أدري حقاً, تمنَّيتُ أن يكون الأمر طبيعياً, لكنَّ الأمور لم تكن كذلك تماماً بالنسبة لوالدتي.

اعتادَ على تقبيل رأسها في أول لحظات دخوله قبل أن يغتسل أو يأكل؛ كي يعلم إذا كانت بخير, غالباً ما تكون تعيش الماضي الذي جعلها حاضراً مؤلماً, فتقول لآزر كم يشبه والدي, وأنَّها ستخبره بذلك عندما يعود إلى المنزل, مضت السنوات وهي ما زالت تنتظر حضوره، فعندما نقوم بتحضير الغداء نحرص على أن نضع طبقاً فارغاً بجانبها, وهي تقوم بملئه وترتيبه, لكنّها بذلك الفعل كانت تملأ اليأس والحزن في داخلنا, فنتناول القلق ونحن ننظر إليها مبتسمة، وتعيش حياتها بطريقة طبيعية في وضعٍ غير اعتيادي, وعقلٍ قد اختار عدم المواجهة والاختباء خلف التوهّم والخيال, أحياناً أفكر بانتزاعُ الألم بحقيقة مبرحة كالندوب، "لقد ذهب يا أمي ولن يعود"، على قَدْرِ ما يؤلمني أيضاً واقع فراقه، لكنّي أردتُ بشدّةٍ مواجهتها بالقول: "والدي مات ولن يعود يا أمي !", لكنَّي كنت أكتفي بمواكبة الكذب، وأقول: "أتمنى ذلك", وكنت أخاف أن أخسرَ عقلي وأصبحَ مثلها, لكن سرعان ما كنتُ أطردُ ذلك الخوف بسبب شعوري بالانحطاط عندما أقارن وعيي بها.

أخذ آزر ينظر إليَّ ثم قال: تبدين شاحبة.

قلت: يزورني الأرقُ أحياناً.

– ألا يوجدُ تغييرٌ جيّد؟

أومأتُ برأسي نافيةً لكنّي طمأنته قائلة: "الأمورُ فعلاً بخير، ومرضُ والدتي سيتحسن مع الوقت, هل تريد بعض القهوة؟".

جلس أمامي بقلقٍ، وكنت أبادله شعورَ الخوف من شيءٍ قادم, ثم أردف قائلاً: "أحياناً لا أرجو لوالدتنا أن تتحسن".

– ولا أنا كذلك

نظر إليَّ بغرابةٍ ثم أكملتُ قائلة: "ليسَ غريباً أن نفكّر بهذه الطريقة، فلا بُدَّ أنَّ الآخرين يشعرون كذلك أيضاً, فهذا عالَم مخيف لن تقدر على مواجهته بالقلق علينا".

– يَجِبُ أن نستمرَّ بمجاراتها, فقط أخبريني إذا حصل أيُّ تغيير في حالها

– جميعنا في المنزل لا بُدَّ أن نلاحظ ذلك

– يَجِبُ أن أغادرَ اليوم

– إلى أين؟

– إلى المتجر، سأعود متأخراً

نظرتُ إليه بحدّةٍ وقلتُ: "أنتَ لم تَعُدْ إلى المنزل الليلةَ الماضية، أتريدُ من والدتي أن تزدادَ كآبةً؟"

– سأحرصُ على العودة الليلة، أَعِدُكِ بذلك.

أومأتُ برأسي رافضةً، ثم أردف قائلاً: "لن أستطيعَ خوضَ جدلٍ مع أدهم".

قلتُ بحدّةٍ: ولم يجدرْ بي ذلك؟

– لأنَّكِ ستفهمين يوماً من الأيام يا جودى

لم أدرِ معنى ذلك, ولم أحاول التفكير في الأمرِ حَقّاً، وبعد الظهر اهتمّ بمظهره وغادر, وحين التقى بحمزة غادرا يومَ الاثنين في رحلةٍ دامت يوماً كاملاً قبل ذهابهم إلى المتجر, وجدا حشداً من الناس يتهامسون عن إعلان خبر...

– هل تظنُّ أنَّنا سنخرج بشيء من هرائهم؟

قال حمزة: صَهْ! لا تتكلّم بذلك جهراً.

– "أجل لا تتكلّمْ كذلك يا بُنيّ". قال بلال، فالتفتا إليه, كان يضعُ عمامته حول وجهه مُخفياً الكَدَماتِ التي تلقّاها من إيليا.

قال حمزة: ما الذي حصل لوجهك؟

قال بلال: خُضْتُ شجاراً

– مع مَنْ؟

قال كأنَّه يُلقي بالكلمات من يده: كان الأمرُ مَحْضَ غباءٍ فحسب!

قال حمزة ساخراً من بلال: انظر إلى نفسِكَ أيُّها العجوز! هل أحصيتَ سنواتِكَ بعد؟

ضحك بلال قائلاً: يا لحظي الرائع بهذا الشَّعر الأبيض والتجاعيد التي لم أفهمْها قطّ!

– إذا كان يُعزّيك يا رفيقي، فلم يتغيّر مظهرك منذ ستِّ سنوات.

– وهل ذلك يُعجب امرأة؟

قال آزر: إذا كانت بالسبعين من العمر

– هنيئاً لي إذن...

بدأتِ الهمسات تتعالى, إلى أن وقف والي القرية وقال معلناً: "لقد تعرَّضَ محمود شوكت باشا للاغتيال في مدينة إستانبول, وقد اخترقته خمسُ رصاصات..."

أصبح تكلّمُ الناسِ جَهْراً, بعضُهم هتف وبعضهم الآخر اكتفى بإبداء رأيه, قال بلال: "هو مَنْ أجبر السلطان عبد الحميد الثاني على التنازل عن العرش".

– هل تؤيّد اغتياله إذن؟

– بالطبع لا, لكن لا يعني أن آسفَ على ما حدث.

في المساء ذهبوا إلى متجر الأدوات الأثرية، كان عبارة عن خيمة وسط متاجر شعبية أخرى تبيع التوابل والأطعمة والملابس, وقد امتزجت تلك الروائح مع عبق التراب المبلول بالمطر

والحطب الذي أشعله أصحاب المتاجر للحفاظ على دفئهم, كان آزر وبلال صديقين منذ الطفولة, ومن ثَمَّ جاء حمزة ليصادقهم فيما بعد حينما أصبحوا متمردين, ودائماً ما امتلك آزر وبلال نفس الأفكار القومية, فقد علَّم والدي آزر القراءة، وقام هو بدوره بتعليم بلال عندما كان أمّيّاً, كان بعضُ الناس يسخرون من شكله، لذلك فضّل الانعزال وعدم التواصل مع باقي الصغار، ونظرات الكبار التي كادت أن تغمد في صدره الانطواء والاختباء خلف هيئته, لكنَّ آزرَ أخرجه من بؤرته المظلمة، وكان يبقى معه ولا يهتمّ لحديث الناس عن رفيقه, فأصبح بلال يُكِنُّ له الحبَّ والثقة ويعدّه شقيقاً له, وكان لهم رفيق يدعى إدريس يتسكع معهم من فنية إلى أخرى، إلى أن تزوّج وانتقل إلى لبنان، فأصبح يزورهم فقط كلَّ عام ليتفقّد أحوالهم, أمّا حمزة فعرفاه منذ عامين فقط، لكنَّه أصبح مقرباً لهما، وبذلك بدأت قصة أولئك الرجال الأربع.

كان حمزةُ متمكّناً من القراءة بالإنجليزية والفرنسية والعربية، وعَلِمَ أنَّ بلالاً يهوى الاطلاع، وأنَّه يتمنّى لو تعلّم هو وآزر كي يقوموا بتثقيف الصغار عن الغرب وأفكارهم, لاحظ حمزة حنكة بلال وأُعْجِبَ بها، فقام بتشبيهه بِـ(سنّ تزو)، وهو مؤسس مخططات الحرب, لم يفهم بالطبع ما قاله حمزة، وبعد أن تواصل بلال مع بعض رفقائه في الخارج، جلبَ له كتاباً يدعى (فنّ الحرب)، ومن هنا بدأت فكرتهم بترجمة الكتب.

قال حمزة: سأترجمُ لك ملخص هذا الكتاب بخطّ يدي.

– وهل سأستفيدُ من ذلك؟

– بالطبع... إن لديك فكره يا رفيقي إنه يتحدث عن فهم العدو ومحاولة محاكاته

– وهل تكفي الكتب بذلك؟ ولم أتحدّث عن الغرب كعدوّ.

قاطعه حمزة: "أعلمُ ما تودُّ أن تقوله، لكن ثِقْ بي وابدأ في قراءة كلّ ما أجلبه إليك، وعليك بتعليم الصغار ما تجده مناسباً".

بدأ حمزةُ بجلب المزيد من الكتب، لكنَّه كره مهمة الكتابة والترجمة، وكان يتذمّر منها, فأصبح يقرأ لبلال أهمَّ الأسطر من كلّ صفحة، ويساعده على اختصارها وترتيبها، وأحياناً كان

آزرُ يكتب بدلَ بلال كذلك, وفي البداية وجدوا غرابة وعدم حاجة لنقل كتب الفلسفة، فقال لهم حمزة: "الأمرُ ليس سيئاً كما تعتقدون".

قال آزر: لا نخافُ من التساؤل لكن في بعض الأمور نخسر أنفسَنا عند التعمّق فيها.

– لقد أُعْدِمَ سقراط وهيباتيا وكثيرون غيرهم، لكن لا يمكنك لوم مَنْ وُلِدَ بعقل أكبر من حجمه.

قال بلال: حسناً اشرح لي المغزى!

– يتّفق الكثير من الفلاسفة على العفة.

قال بلال: لقد سمح أفلاطون بزواج الأخ من أخته!

– قديماً أيها الأحمق... حدث ذلك قبل الميلاد، وكان الهدف الحفاظ على سلالات معينة، تُرينا الفلسفةُ أنَّ الحفاظَ على الجسدِ وعدمَ الاستسلامِ للشهواتِ هي صفاتٌ يتملكها القادة وأقوى البشر, وتلك صفاتٌ يحاول الكثيرون الاحتفاظ بها بسبب الدين، لكنَّهم يضعفون عند شهواتهم، أمّا إذا قُمْنا بتعليمهم أن يمنعوا شهواتهم من أجل أنفسهم فلن تجد نفاقاً بينهم.

قال بلال: أجد كثيراً من المتدينين عفةً وإخلاصاً.

– ولا نُنكر ذلك، لكن عليهم بالوعي.

(5)

أى شانلى أوردو أى شانلى عسكر

هيدى غضنفر عمانى صفدر

بر الده قلقان بر الده خنجر

سر حده دوغرو أى شانلى عسكر

دريادە أولسه هر شى مظفر

ديللرده تكبير الله أكبر

الله أكبر الله أكبر

اردومز السون دائم مظفر

هكذا غنّى الجيش أثناء احتفاله في تلك الليلة, كانوا يرقصون ويرتشفون الخمر، وهم يتغنّون بالسلام الوطني بالكلمات التركية, بينما مجموعة صغيرة من الجنود العرب يتغنّون بولائهم باللغة العربية.

يا خير جيش يا خير عسكر

أنت الغضنفر في البحر فاظفر

في اليد درع في اليد خنجر

سر نحو الأعادي يا خير عسكر

لو كان كلّ شيء في البحر ينصّر

فنحن ننادي الله أكبر

الله أكبر الله أكبر

وليكن جيشاً دوماً مظفّر

كان إيليا منهكاً, فقد أُجْبِرَ على حضور ذلك الاحتفال لكونه سيترقّى إلى رتبة لواء في تلك السرعة, أمّا الرائد فقد أمر بذهابهم إلى القرية ليكونوا بجانب إيليا، وبذلك جاء الجميع من أجله, أما هو فاكتفى بجلوسه على المقعد وهو يشاهد رفقائه، فقد أنهكم القتال في كوسوفو لإخماد ثورة الألبان التي دامت طويلاً، وقد التقى بهم إيليا بأمرٍ من العميد في إحدى مناطق دمشق.

جاء العميُد ليجلس بجانبه, فقال: أسعيدٌ أيُّها النقيب بما أحرزنا؟

– وهل هناك أجملُ من استحقاقه؟

– المستحقّ يأتي بشجاعة وجرأة, لهذا نظنّ أنه حان الوقت لترقيتك

– لا أدري كيف أشكرك يا سيدي

– بل نحنُ مَنْ يَجِبُ أن نشكرك، فقد قمتَ بأداء واجباتك على أكمل وجه، وكنت فخراً لنا, لهذا ستقود فيلقاً من الجنود عند ذهابنا إلى طرابلس.

قطّب إيليا حاجبيه وقال باستياءٍ: تُريدني في الحرب على القوات الإيطالية؟

– هذا ما يحصل عندما تُجيد عملك, يأخذك بعيداً عن قوقعتك فقط لتعود وتجد مكانتك صارت أكبر.

– لكنّي ظننت أنّي سأبقى هنا، ومع كامل احترامي يا سيدي أنت مدين لي بذلك.

أخفى إيليا استياءه وامتعاضَه للأمر, فالذّهاب يعني الابتعاد عن عمّه وحمايته لعائلته, كان معتاداً على السفر والعودة، وفي أغلب الأحيان على الاحتفال بالنصر الذي كان غالباً ما يحصل, لكنَّ درعه بدأ بالتكسّر, وثقل رأسه بما لا يمكن شرحه, لم يعد يلوي على أحدٍ إلا عائلته, لكنَّه قام بالوعد في ذاته، ألَّا ينسى تلك البذرة التي تُعارض من يسمّيهم بجيشه, فهكذا كان عمّه العربي, يمقت الحكم العثماني ويتمنّى انفصاله عن الدولة التركية، بقوله: "القوة لا تعني العدل, بل التحكّم".

لكنّ إيليا لم يوافقه بذلك أبداً, فلولا العثمانيون وبسالتهم على مدى أربع قرون، لكانت العرب تحت حُكْمٍ غربيّ مستبدّ, ليس هناك خلاف على أنَّهم أقوى جيوش العالم التي قامت بحماية المسلمين, ذلك قبل أن تبدأ جمعية الاتحاد والترقي بالصعود بقراراتها, التي قاوم إيليا نفسه بالتفكير في تفاصيلها إلى أن بدأ بخطوات بسيطة.

– هل أنت سعيد بترقيتك؟

– أجل يا سيدي

خرج ليلتقط أنفاسه ويدخّن سيجارةً, لفحه الهواءُ الباردُ، لكنَّه لم يعبأ بالأمر, أخذ يتنشّق من السيجارة بنَفَسٍ طويل دون أن يشعر بذلك, وعندما زفرها بدت كغيمة كثيفة أمام وجهه, بدا مختلفاً, شعر أنَّه ينظر إلى مظهره في المرآة ليرى شخصاً آخر, فيداه صارت أكثرَ غلظةً من كثرة استعماله الأسلحة, ووجهه اصطبغ بكدماتٍ تحت جلده لم يَعُدْ يشعر بوجودها, وفي تلك اللحظة بالذات شعر بدمائه المختلطة بأصول والدته الفرنسية ووالده العربي وجدته التركية، سخر من نفسه قائلاً: "يبدو أنَّ الوحش يضطرب". "إنك تُنجز القتال على أكمل وجه"، كم كَرِهَ تلك الجملة وتمنّى ألا يسمعها مجدداً.

جاء رفيقه من الداخل وجلس بجانبه وقال: "لِمَ هربت من الاحتفال أيُّها اللواء؟".

قال إيليا وهو يبتسم ويبدو محذراً بيده التي تحمل السيجار: "لم يحصلْ ذلك بعدُ".

طوَّقه رفيقه بذراعه وربت على كتفه

– انظر إلى تواضعك! يجب أن تدخل للغناء احتفاءً بنفسك

لم يُجِبْه إيليا

فأردف قائلاً: تهانينا على أيّة حال, وقد جئتُ لك ببرقية.

ناولها لإيليا ثم قال: أمّا أنا فما زال لديّ الليلُ بأكمله.

نظر إيليا إلى الطرد ولاحظ أنه غيرُ العنوان, قال: "انتظر".

التفت رفيقه

– ما الأمر؟

– مَنْ الذي أرسل هذا الطرد؟

– لا أدري وجدته فوق كومة بريدنا باسمك فقط

غادر رفيقه ثم تفحّص إيليا الطرد جيداً, قام بقلبِهِ وهو يبحث عن شيء يدلُّ على صاحب المُرسِل لكنَّه لم يَرَ شيئاً, وعندها قرّر فتحه عَلَّه يعلم مَنِ المرسل, كان داخلَ الطردِ صندوقٌ كرتونيّ بحجم الورق, وفي داخله كتاب باللغة الإنجليزية, قرأ إيليا عنوان الكتاب (تيودور هرتزل – الدولة اليهودية)، تفحّصَ الكتاب جيداً وقلّبه، ثم عاد ليقرأ عنوانه, تساءل إذا كان الطرد مُرسَلاً بالخطأ إليه أم إذا كان الأمر محض دعابة.

لم يهتمَّ لذلك كثيراً وغادر الاحتفال متعذراً بالتعب, ركبَ حصانه وذهب حيث خيمتُهُ المنعزلةُ, وعندما اغتسل جهّزَ لنفسه وجبةَ عشاءٍ من البطاطا واللحم والأرز, جلس وهو يشعر بالغثيان, لم يأكل جيداً منذ أن أصابته كوابيس الحرب من عدة أشهر, وفي تلك الليلة ألقى بالطعام خارجاً وفضّلَ البقاء بمعدة خاوية, تمدّد على ظهره وأضاء القنديل ليبدأ بقراءة الكتاب, وعندها, سقط مغلفٌ على صدره عنوانه مكتوب باللغة العربية, نهض ليلتقطه ثم قام بفتحه, كان عبارة عن رسالة مكتوبة باللغة العربية أيضاً, لم يتمكّن من قراءتها؛ لأنَّه لا يقرأ سوى بالإنجليزية والتركية والفرنسية, أغلقها بإحباطٍ، ثم عاد ليقرأ الكتاب, وقد أثار العنوان فضوله حيث يبدو كمخطوطةِ مجلدٍ عبر العصور، لكنَّه كان عبارة عن مجرد ثلاثٍ وستين صفحة.

تجاوزت الساعةُ الثالثةَ بعدَ منتصف الليل، وعندما انتهى من قراءته للمرة الثانية, وضع الكتاب على صدره وأراح رقبته وهو يمدّد رأسه, أخذ نَفَساً عميقاً وأغمض عينيه ليستريحَ قليلاً, باغته السهو، لكنَّه لم يتمكّن من النوم بعمقٍ، وبعدها غَرِقَ في صرخات ودوي مدافع، ورأى جنوداً وأناساً يركضون, وأمامه وقف حشد من الرجال والنساء والأطفال يضعون كفَّ أياديهم على أعين بعضهم, بدوا كسلسلة مترابطة، وترتجف في حقل فارغ مليء بالضباب, أمّا إيليا فوقف أمامهم ببندقية، وهو يتمعن بهم في خوف, ويأمره أحد رؤسائه: "افعلها".

أراد أن يرفع بندقيته لكنَّه أنزلها وهو يشعر بالقلق, صعدت الدماء إلى رأسه، فشعر بغلیانٍ كالبركان في جسده, أمّا الأشخاص الذين وقفوا وهم يغطّون أعينَ بعضهم، فقد سكنوا بهدوء مرعب جعل إيليا يشعر بضغط سينفجر داخل أذنيه, "ما الذي أفعله؟" فكّر في نفسه، وصرخ به الآخر قائلاً: "لا تقف مثل صبي مخنث"!

نظر إلى البندقية ولم يعلم طريقة استعمالها, بدأ يرى ما حوله يتحوّل إلى لون رمادي, ثم أخذ الضابط البندقية، وأطلق النار على السلسلة المصنوعة من الناس حتى ارتفع صراخهم إلى أن سالت الدماء من أذنيه, وضع يديه على رأسه وهو يشعر بالطلقات التي تخترق أجسادهم أنَّها تخترق جسدَه هو... حاول أن يُغلق أذنيه لكنَّ يديه كانتا ثقيلتين, وشعر أنَّ روحه تخرج ببطء من جسده إلى أن استيقظ ببحر من العرق.

نهض من مكانه لاهثاً, هدأ قليلاً وشعر بصداع يأكل رأسه, كتم على فمه وتذكّر آخر ما فعل, وضع يديه الباردتين على وجهه وكتم على ضيقه, ثم مسح بلحيته الخفيفة كأنَّه يُلقي بالألم بعيداً، ألقى نظرة إلى الخارج، وكان الضباب يشبه حلمه الرمادي, أخرج ساعته الدائرية التي اعتاد أن يضعها في جيبه، كانت تشير إلى الخامسة والنصف صباحاً, على ذلك المرتفع البارد بدا أنَّه آخرُ رجلٍ على الأرض, تقدّم لينظر إلى الحقول التي جرى فيها الضباب كالدخان، ولم يلمح روحاً في تلك الساعة, إنَّه ذلك السكون المزعج الذي يجعل المرءَ يتساءل عن نهايته, نظر إلى السماء لكن سرعان ما أنزل رأسه وهو يدعو نفسه بالمنافق, ثم عاد إلى خيمته ليستعدّ للقاء الذي انتظره طويلاً.

في الساعة التاسعة ارتدى معطفاً أسودَ وقبعةً سوداء, خرج إلى الشارع المُبلل, بدا كرجل أوروبي بندوبٍ لم تختفِ تماماً, لاحظ أنَّ سطوع الشمس يحاول اختراقَ جدار الغيوم المكثفة, فاكتفت بأن تملأ السماءَ بلونٍ كئيبٍ كشوارع تلك القرية المُحطّمة. على بُعد عدة أميال وصل إيليا إلى منزل عمه, كان عبارة عن منزل داخلي تحيط به مزرعة صغيرة تكاد تُقاس بنظرة واحدة, وفوق ترابها نهضت مزروعات ذابلة, طرق الباب حيث كان ينتظره عمّه, وقد تجنّب كعادته أن يُبرز أيَّ شيءٍ يُظهره كرجل عسكري, فقد كره عمّه الجنود والقانون، وكلَّ ما يتعلّق بالسياسة, لكنَّ ذلك لم يقع عائقاً أمام إخلاصهما، واعتاد إيليا أن يظهر أمامه بهيئة رجل آخر, فعمّه لا يعلم عن توحّشه بالحروب، ولم يتخيّله قطُّ جندياً مع أنَّه علم بذلك, ربما لذلك السبب

شعر إيليا بالانتماء إليه، لكنَّ حبَّه لم يكن كافياً وإن لم يلاحظ ذلك, فما زال يعود إلى شخصيته الأخرى التي لا يعلم عنها أقربُ الناس إليه، وحتماً لن يتقبل أحدٌ حقيقته.

طوّق خليل ذراعيه حول ابن أخيه: "لم أرك يا بُنيّ منذ مدة طويلة فلتدخل إلى الدفء". بدا عمُّه أكبرَ من عمره بعشرين عاماً, كان في عقده الخامس، لكنَّه بدا عجوزاً, ظهرت زوجته ياقوت فحضنها إيليا وقبَّلَ رأسها ويديها كأنَّها أمّه.

– انظر كم تبدو وسيماً, لقد كانت الأشهر المنصرمة كالدّهر.

– أتمنّى أنَّها لم تسرق ذكراك الجيدة بي يا سيدتي.

وضعت يدها على وجهه وقد لمعت عيناها بالدموع

– المرأةُ لا تنسى إنساناً قامت بتربيته

همس لها إيليا وهو يُمسك بيدها التي وضعتها على خده

– ولا الإنسان أيضاً

عندما كان والده يبرحه ووالدتَه ضرباً, كان عمّه يعتني به ويحاول إخفاءه عن والده, لكنَّ قلق إيليا على والدته جعله يعود دائماً إلى منزله المشؤوم, لكنَّها لقيت حتفها عندما بلغ العاشرة، وبذلك أخذه عمّه ووضعه بين أولاده بشكل دائم.

تناولوا الغداء معاً وهم يتبادلون الضحكات والأحاديث, لكنَّ إيليا لم يتطرّق ليتكلّم عن حياته أبداً, دخل إلى غرفته القديمة التي يُشارك فيها أولادَ عمّه الاثنين, كان سريره ما يزال مُجهّزاً كما تركه وهو في الثالثة عشرة, أخرجت ياقوت صندوقاً من أسفل السرير، وقالت: "لقد أبقينا على أغراضك كما هي, دائماً ننتظر عودتك".

كانت عبارة عن قصاصات لم يستطع قراءتها قطّ, ووشاح رُتِّبَ بعناية عن الغبار، امتلكته والدته فيما مضى, حمل إيليا الوشاح وتذكّر ضحكاتها عندما كانت تحتضنه وهو يسحبه ويضعه على وجهه ليقوم بإضحاكها. سقطت قطعة ذهبية من الوشاح، كانت عبارة عن مفتاح, تفحَّصها إيليا وتذكّر حماقته عندما أضاع جوهرتها، تذكّر الكثير من الأشياء, منها حلمه بأن

يصبح طبيباً في أوروبا، حيث كان سيحصل على تعليمٍ عالٍ, لكن شاء القدرُ أن يُجنّد بصفته عربياً بسبب والده, ودائماً ما كره والدَه وعنفَه له ولأمِّه، وبذلك اعتاد الهروب إلى عمّه خليل للاختباء وطلب الطعام لوالدته، التي سبّب نحولُها ضعفاً شديداً في جسدها، كاد أن يُحطّم عظامها بسبب إهمال والده بها وبشؤون المنزل, فكان خليل يساعده ويبعده عن والده الذي لم يكن ليكترثَ بوجود إيليا، حتى لو اختفى عن المنزل.

– لم أرغب يوماً بالعداء مع والدك, أعلمُ أنَّك تفكّر فيه

– لا أحدَ يرغب في العداء مع عائلته، لكنّي طالما فهمتُ قرارك حين حبستني عدة أشهر في المنزل

قال عمّه بخيبة أمل: لم ينجح ذلك أيضاً

– لقد نجح بالنسبة إليّ

قال عمّه: لقد غادر جميع أبنائي ومضوا في حياتهم, وعندما يحصل ذلك لا تُغني الزيارات عن هدوء المنزل.

– لقد جعلتهم سعداء وهذا يكفي بأن يملأ قلبك

– تتكلّم عن أبنائي كأنَّكَ لستَ منهم

ابتسم إيليا قليلاً وظهرت انحناءة لطيفة بجانب فمه, شعر بثقل العالَم على أكتافه

– لقد جعلتَني الرّجلَ الذي أصبحتُ عليه

– لكنّي لم أجعلك سعيداً!

– من أين لك هذا الظنّ؟

– هل حقّاً أنتَ سعيد؟

قالت ياقوت: خليل اتركه وشأنه أرجوك.

قاطعها إيليا: كلا لا بأس, من حقّه أن أعطيه جواباً، لقد خُيِّرت, ولم أفتأ أن أُفكّر بمآلٍ آخرَ لي, يوجد لديَّ عائلة أعود إليها بعد المغادرة، وهذا المنزل الذي أتوق لرؤيته, فهل للمرء أن يطلب أكثر من الحبّ؟

لم يؤمن إيليا بتلك الجملة التي قالها، لكنَّه كان يقلّد حوارَ إحدى الروايات التي قام بقراءتها؛ ليفيدَ التفكير بشيء مناسب, لم تكن تلك المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك، ودائماً ما كان ينجح.

ابتسمت ياقوت لكلماته

قال خليل: أعتذر يا بُنيّ لكنّي أشعر أنَّك تبتعد كثيراً.

استند خليل على كرسيه، وبدا عليه الوهن, قضى سنواتٍ من عمره يعمل على حرث المزارع وبيع الحبوب وإنتاج الثمار, وفي ذلك الوقت الذي كان فيه على أطراف الكِبَرِ أخذت سنواتُ ماضيه من سنوات عمره المقبلة, فقد تجعّد جِلده وتسلّخ لونه من حَرّ فصول الصيف التي مضت, أمّا أمواله فكان قد استثمرها في مشاريع فاشلة، وأعطى الباقي لأولاده كي يبدؤوا حياة جديدة, عمل ليلاً ونهاراً لنهاية لم يدرِ شيئاً عن غايتها, إنَّه انحطاط الإنسان الذي يعمل طوال سنواته من أجل حياة أفضل، ويظنُّ أنَّه لن يكبر أبداً, قال: "يجب أن أغادر في الصباح الباكر".

قال إيليا: إلى أين ستغادر؟

– إلى قرية دير القمر

– إنَّها مسافة بعيدة، وفي هذا البرد القارص سيصعب الوصول إلى جبل لبنان

– إنّي مضطرّ للذهاب

– وما حاجتك لذلك؟

– في العام الماضي كنتُ قد عملت على آخر مشروع لي ببيع الحبوب, شاركتُ العملَ مع رفيق لي يدعى أغابيوس.

قال إيليا: ماروني؟!

– أجل, إنَّه مسيحي وقد احتاج المال ليسدّد ديونه، وإلا تعرّض للضرب المبرح, فما كان مني إلا أن أعطيَه حصتي مقابل أن يُعيد لي المال في تاريخ محدد, وغداً الموعد

– هل يستحقُّ الأمرُ الذهاب؟ انتظر للربيع

– لو كان الأمرُ عائداً إليّ لما ذهبت, لكن استثمر ابني في ذلك المشروع والآن لا يملك شيئاً لعائلته, فقد دخل الضباط إلى المنازل ونهبوا جميع المؤن والممتلكات, يا له من مسكين! لم يكد يحظى بالاستقرار حتى خسر كلَّ شيء, المرء لا يملك شيئاً إلا ليخسره.

شعر إيليا بثقل العالَم على أكتافه, فقد قضى أغلب أيام حياته على الجانب الآخر من الشعب, يُهدّئ الثورات ويضع سلاحه ضد من يقف أمام الخلافة, ماذا عن تلك المرات التي أخذ فيها الأسرى؟ لم تُهِمَّه حقيقتهم، بل كان يتبع القانون بحذافيره دون أن يخطئ بعثرة على ذلك الخط, أما ما حُفِرَ في ذاكرته من ذلك الموقف الذي حصل معه، فَغَيَّرَ مسار حياته ليمتقع بالندم, فقد صفعه الواقع محاولاً أن يُعيد إليه ضميره الإنساني.

– لا يمكنك أن تترك ياقوت وحدها

– ستبقى في منزل ابني

– بل ابقَ أنت, سأذهب أنا كي أعيدَ إليك نقودك

عندما غادر إيليا كتب للرائد برقيةً يقول فيها إنَّه يرفض الترقية والذهاب إلى طرابلس مقابل بقائه في الشام ومراقبة المتمردين, ومن هناك بقي إيليا نقيباً, ولم يهتمَّ حقّاً بمستوى رتبته، بل تلك كانت فرصته الوحيدة لإيجاد اللواء والانتقام منه. كان يذكر النظرة على وجه جنوده بعدما قاموا باختراق تلك المزرعة تلبيةً لتصريحات اللواء بتواجد أرمن متمردين يمتلكون أسلحةً مستوردةً من روسيا, وقام بتنبيهه قائلاً: "انتبه أيها النقيب, واخترق المزرعة في دامس الليل, فأنت لا تعلم ما قد ينفجر في وجهك وجنودك بامتلاكهم تلك الأسلحة, فاذهب أثناء نومهم وهاجم أثناء سكونهم".

فعل إيليا ما أُمِر به, فدخل هو وجنوده منتشرين بانتظام، وتقدّموا بترتيب متقن حول الخيام البيضاء التي كان عددها ثماني خيام, ثم قاموا برمي المتفجرات المُسيلة للدموع، وأطلقوا الرصاص على كلّ خَيّالٍ ظهر أمامهم, وعندما حَلَّ الفجرُ وجد إيليا أنَّ جميع من قام بقتلهم قد كانوا عائلات عادية وليسوا متمردين أو أرمن, وبذلك تلطّخت يداه بدماء أبرياء, عندها بدأ يُحصي عدد الأسرى والأبرياء الذين قام بتعذيبهم وقتلهم ليكون جندياً جيداً.

فقد أيقن في سِرّه أنَّ اللواء أطلق الأمر بذهابه إلى تلك المزرعة بهدف التخلّص من أفرادها والحصول عليها، فبعد أن قام بالبحث جيداً عن أهداف اللواء وأسئلته غير المباشرة لبعض الضباط, تمنّى امتلاك مزرعة في تلك المنطقة فيما سبق, وفكّر إيليا بمدى حماقة من حوله، وشفقتهم عليه وعلى اللواء, وكان قد توارى اللواء عن الأنظار بحجة شعوره بالإحباط والندم على ذلك الأمر, وتساءل إيليا أيضاً عن سبب نشوء الرحمة في ذاته, لكنَّها كانت مجزرة عائلية أثّرت فيه بعد توحشه.

صعد إلى القطار بعد أن ظَنَّ نفسه متأخراً, كان المكان صاخباً وممتلئاً بالأدخنة مع رائحة تشبه الزيت المحروق، أخذ إيليا نفساً عميقاً ثم سمع صوت رجل يتكلّم بطريقة فظّة, مسح نافذته ليلقي نظرة فوجده يرتدي عصبة على عينه اليسرى، ويصرخ بالمسافرين للإسراع، والواصلين أن يُعجّلوا بحملِ أمتعتهم، هو يضع غليونه في فَمِه الذي فيه بضعة أسنان صفراء وسوداء.

لم يكن القطار ممتلئاً, صعد بضعة أشخاص في تلك الحجرة، والأمر سيان لباقي الحجرات، كان المنظرُ جميلاً وشاعرياً إلى أن جاء بلال وجلس أمام إيليا.

– هل هذا المقعد محجوز؟

بدأ القطار بالتحرّك وقال بلال ساخراً: آآه لا أظنّ أنه كذلك, أنا بلال إذا كنت تذكرني

مَدَّ يده ليصافح إيليا فأردف إيليا قائلاً: ما الذي فعلتُهُ في حياتي كي أُعاقب بك؟!

– أنت تجرح مشاعري

لاذت بينهما دقيقة صمت بينما كانت على سمات بلال علامات تساؤل

– ألن تقول شيئاً؟

– ظَنَنْتُكَ حردت, يوجد مقعد بالخلف إن أردتَ ذلك

– إذن ستستمرّ في إهانتي

– إنَّكَ كالجِنّيّ, بدأت أقلق أن أراك حتى في نومي

– إنّك أعزب ومن دون أصدقاء، وقد حصل أن أنقذت حياتي، لذلك أظنّك رفيقاً مسالماً

– كيف حكمت أنّي أعزب ومن غير أصدقاء؟

– تخاف أن تراني في نومك، وهذا يدلُّ أنَّك تفكّر بمن تقابلهم حديثاً، فكثرةُ المعارف تسبّب كثرة المشاكل، وكثرةُ المشاكل تسبّب القلق، والقلقُ يسبّب الأرق عند النوم، ولا أظنّ عند أرقك أنّك قد تمتلك وقتاً لتفكر بي.

– مع كثرة سفري لم أقابل شخصاً غريباً ومزعجاً إلى هذا الحدّ في آن واحد

– ستعتاد على الأمر

– إلى أين وجهتك؟

– إلى قرية القصب, وأنت؟

– إلى منطقة الشوف

– وجهتك بعيدة جداً! ما سبب ذهابك؟

لم يردّ إيليا، كان قليلاً ما يسمعه وهو سارح والسيجارة في فمه.

أردف بلال: وهل يستحقّ الأمر الذهاب إلى دير الرهبان؟

لم يُجبه إيليا مجدداً، لكنَّ ذلك لم يمنع بلال من الاستمرار بإزعاجه

– وماذا عن مسؤولياتك العسكرية؟ وهذا يُذكّرني هل أنت مسيحي؟ وهل تؤمن بما تحارب؟

– دع الحياة الشخصية

– حسناً يا شيشرون, لكنّي دائماً أردتُ أن أرى دير القمر لذلك سأكون رفيقك اليوم

ابتسم بلال وبدا كمهرج تحت لحيته البيضاء الطويلة، هبطا معاً في نفس المكان.

قال بلال: ما رأيك لو ترافقني إلى قرية القصب ثم نغادر إلى دير القمر بعد الغداء؟

امتلك إيليا فضولاً بمعرفة حقيقته, فقد دعاه بِـ(شيشرون)، ودلّ ذلك على أنَّ بلال مثقف, فحتّى لو كان يقرأ، كيف له أن يعرف شخصية غربية وهو يعيش في تلك القرية التي لا يعرف أفرادها الشخصيات العربية أصلاً؟ ولو كان متمرداً لِـمَ يفضح نفسه؟ قرّر أن يتماشى معه وبذلك وافق على طلبه.

– حسناً

كانت قرية القصب تشبه دير القمر إلى حَدّ ما, فقد جاءت على مرتفعات وهضاب خضراء، إلَّا أنّها بسيطة أكثر, صعدا إلى منحدر قاسٍ, كان إيليا يحمل حقيبة صغيرة على كتفه، بينما بلال لم يجلب شيئاً معه, على أطراف الطريق وجد القليل من الأشخاص والصغار يعبرون, فقال بلال: "أقدامي تؤلمني من هذا الطريق يا بُنيّ".

– هل ستأتي إلى هذه المنطقة مجدداً؟

– لا أظنّ ذلك

– إذن أغلقْ فمك

– ماذا لو عدت؟ يجب أن يعاملني الناس كعجوز

– امضِ يا جدي

– جَدّك؟! الأَلْيَقُ بأن تدعوني والدك فأنا لا أبدو بهذا الكبر.

قطع بلال نفسه وهو يتكلّم عندما رأى رفيقه خارج منزله, وقد أثارت رؤيته السرور في نفسه, كانا رفيقين منذ الأزل، عرفا بعضهما جيداً وتمرّدا معاً برفقة حمزة وآزر, وقد فكّر بلال في تلك اللحظة أنَّه يتمنى لو يعود معه إلى القرية، لوح بيده قائلاً: "إدريس".

نظر إليه إدريس وهو على وشك الدخول لمنزله، وبيده بعض الأطعمة في كيس قماشي, مشى بلال ليقترب إليه لكنَّ إدريس فتح باب منزله وتجاهله, توقّف بلال وقد باغتته الصدمة من تصرّف رفيقه, فقد عاش الأربعة كأشقاء معاً طوال تلك السنوات, كيف يمكن أن يتجاهله؟

قال بلال: لم أقطع هذه المسافة ليتجاهلني

جرى باتجاه منزله ونهره قائلاً: ما بك تتجاهلني؟

نظر إدريس إلى إيليا وبلال وقال: لا أعرفك أيها العجوز.

– إنَّه أنا بلال.

– يبدو أنَّ الخرف قد أصابك.

أراد بلال أن يتكلّم لكنّه سرعان ما أغلق باب منزله في وجههم.

قال إيليا ساخراً منه: أتعلم؟ ماذا لو كنتَ بالفعل عجوز وأصابك الخرف؟ فظنَنْتَ أنَّك في السادسة والعشرين من العمر.

تجاهله بلال غاضباً ثم غادرا لتناول الغداء, كان صدر بلال يحترق من المرارة, له الحقّ أن يتراجع عن أصدقائه، لكن ليس لعدم التعرّف إليهم, لا بدّ أنَّه كان أحمقَ بما فيه الكفاية لئلا

يلاحظ أنَّ رفض رفيقه له بسبب عدم قدومه وحده, فهو يعلم الجندي حين يراه، "إنَّهم متشابهون"، كان يقول لبلال "تستطيع تمييزهم لو ارتدوا مئزرَ امرأة".

لم يُخْفَ على إيليا ذلك, وانتظرَ منه أن يُلاحظه, على قدر ما كان يلاحظ ذكاءه فقد خيَّبَ ظنَّه في ذلك اليوم, ربما تفكيره بريءٌ وبعيدٌ عن سوءِ الظنّ, فهو ينشغل في استخدام لسانه للسخرية وليس للاتهام, ويا له من عجوز نكدي، فقد نسي حاجبيه متلاصقين من الغضب, لكنَّ وجودَه أثار البهجةَ في إيليا بعد أن قضى فترة طويلة وهو يزعج به, ربما اعتاد فقط على وجوده, ولم يفتأ أن أُعْجِبَ به كرفيق بعقل متعدّد السنوات.

عند تناول الغداء أخذ بلال يأكل بِنَهَمٍ, فأفرغ كلّ ما على الطاولة في معدته, ليس بهدف الجوع أو الفجع، بل كان سارحاً بملامح بركانية تكاد تفور لو أغضبه أحد, كسر إيليا صمته مخاطباً بلالاً الذي نظر إليه وفمه ممتلئٌ إلى حلقه.

– ستصاب بِمَغصّ

توقّف بلال عن المضغ وبدا فمه ككرةٍ صوفٍ محشوّةٍ لأقصاها, أراد أن يتكلّم لكنَّ إيليا قاطعه: لا تتكلّم, ابلعْ ما في فمك.

بلع بلال طعامه ثم قال: لا أدرِ إذا كان للإغريق واليونان إلهٌ للطعام, لو وُجِدَ لشبَّهته بنفسي

– يجب أن تدع أمر رفيقك

– لم يكن رفيقي, بل كان أخي, أخي!

استرخى إيليا في كرسيه وقال: أتعلم؟ هذه ليست المرة الأولى التي آتي بها إلى هنا

– هل ستتخلّى عن رفقتي إذن؟

– كلا لم أقصد ذلك, لقد جئت هنا بصفتي عسكريّاً, هل دار لك أنَّ رفض رفيقك بالتعرّف إليك كان من الخوف لرؤيتي؟

أرخى بلال ملامحه وقد شعر بدماغه وهو يهبط على رأسه

– كيف لم يخطرْ لي ذلك؟

– الإنسان حقود بطبعه

– لستُ حقوداً

– لو لم تكن حقوداً لما غشي الغضبُ عقلَك

– إذن أنت تؤمن أنَّ الإنسان شيطان بطبعه

– أجل

– إذن لو كان الإنسان...

– لماذا تستمرّ في تغيير المواضيع؟

– تباً لك

برحت الشمس من مكانها، حيث لم يكن هناك فرق بوجودها خلف الغيوم الكثيفة, فكان اليوم بأكمله أشبه بالغروب إلى أن حَلَّ وقته بالفعل. خرج صوت الأذان من مسجد الأمير فخر الدين، فتعاقبه بلال لأداء الصلاة, أما إيليا فتهرّب من أدائها، وقال إنَّه سيقوم بتأجيلها عَلَّه يجد مكاناً للمبيت, غادر وهو كارهٌ وحاقدٌ على القرية المليئة بالكنائس، وكاد يغدو أن يكون ملحداً, مشى في الشوارع إلى أن وصل إلى جبل مرتفع، ثم نظر إلى الدنيا التي أكلها الضباب, كان الجوّ سيئاً, يكاد المرء لا يرى أمامه شيئاً, لفحه ذلك الارتفاع بضرباتِ هواءٍ كادت أن تُجمّده، فتلفّح بمعطفه جيداً, كان المنظر يشبه مكانه المفضّل في قرية سربة, سقط حجر من أعلى التل، فلاحظ أنَّه يقف على الطرف, رجع خطوة إلى الوراء ثم تنفّس الصعداء بعد ابتعاده, وفي الوادي الذي دفنه الضباب رأى ذكرياته المليئة بالظلم بأعمال يديه الداميتين, فتقدم خطوة إلى الأمام, كانت المسافة كافية لسحقِ جمجمته, فأرخى يديه قليلاً وفكّر في ذلك الخلاص, ها هو ذا يُعاقب على أفعاله، إنَّه يحترق قبل ذهابه إلى الجحيم، إنَّ جسده يتجمّد كقلبه في الماضي، أليس من الأسهل للإنسان ألّا يتغيّر؟ ألن يريح ذلك ضميرَ السيئِ وندمَ الجيدِ؟ ألا يجد المرء تفاهة في وجوده عند تفكيره في الموت؟ يا لنا من مخلوقات ساذجة ومتعالية ومتدنية في آن واحد!!

– ألا تحتفظ بالأمانة؟

جاءه قِسٌّ ليبتعد عن تلك الحافة, عقد يديه أمام خصره، ونظر إلى الأسفل مبتسماً كأنَّه يقيس المسافة إذا كانت كافيةً لتحطيم دماغ إيليا, في ذلك المكان الذي خلا من المخلوقات من شدّة برودته، بدا القِسُّ كملاكٍ خياليّ. بقي إيليا صامتاً, فوجد القِسّ من الأفضل أن يتولّى الكلام بنفسه.

– يبتغي الإنسان الموتَ عند خياره، ويهابه عندما يُفاجَأ به صدفةً, هل تتخلّص من أمانتك من أجل لحظة ضعف؟

لم ينبس إيليا بكلمة, وقد تورّد خداه من البرد، ولمعت عيناه قليلاً، فأردف القِسُّ قائلاً: مَنْ مِثْلُ الله؟ قالها الملاك ميخائيل حينما حارب الشيطان الذي تكبّر على العلا، وقال في قلبه "أصعد إلى السموات، أرفع كرسيّاً فوق كواكب الله وأجلس على جبل الاجتماع في أقاصي الشمال، أصعدُ فوق مرتفعات السحاب، أصير مثل العلا"

ثم أكمل القِسّ: كما ترى يا بُنيّ, ما تقوله من مستحيل ليس إلا وسواسَ متكبر.

– وماذا عمّا فعلته يداي؟

– أمطِ اللثامَ عمّا فعلت

– لقد... لقد قتلتُ نفوساً

– ألم تفعل ما أملاه عليك الواجب؟

قطّب إيليا حاجبيه فابتسم القِسّ مجدداً

– لا يصعب تحديدك كجندي

– كلّا... ليس ما أملاه عليَّ الواجب

اقترب القِسّ ووضع يده على كتفه, وكادت تغرق في الضباب، لكنَّ الموقف بأكمله بدا كحلم ثقيل وليس بشيء حقيقي.

– اشكر اللهَ أنَّك تحمل الذنوب على عاتقك؛ لأنَّك إن لم تفعل فظلامك لن يُنيره ولو اقتربت الشمس لإنقاذك.

بلع ريقه وأغمض عينيه في آن واحد

– هل تذهب إلى الكنيسة؟

أومأ برفض

فسألَ القِسّ: المسجد؟

– كلّا, لا شيء

– لا تؤمن؟

– إنّي كاره

– لقد وجدتَ ذنوبك, لذلك سيجدك الله

قال القسّ ذلك ثم غادر مختفياً في الضباب, كان وجوده في لحظة انتحار مثل ملاك الموت, لم يعلم إيليا إذا ما رآه حقّاً أو إذا فقد عقله, ثقل رأسه وشعر بالدوار وبأذنيه كأنَّهما تغرقان, كانت يداه تتجمدان من البرد وتعرقان في آن واحد.

بعد أن مضي قُدماً, وجد مَضجعاً لقضاء الليل, كان بلال يشخر كالعجائز وينام على ظهره وفمه مفتوح, نهض إيليا برأسه محتاراً إذ يحاول إخراسه, تردّد قليلاً وتركه براحته دون أن يحظى بنوم هنيء.

في الصباح أيقظه ليتناولا الإفطار معاً, ثم استأذنه لقضاء مهمته

– يَجِبُ أن أقضي أمري الآن

– سأغادر برفقتك

– لماذا؟

كان إيليا يرتدي ثيابه ويتكلّم في آنٍ واحد

– ليس منطقياً أن تقضي مهمتك وتعود ثم نغادر معاً

– نحن سنغادر معاً؟

– أجل, أشكرك على ذلك

خرجا هائمين على وجههما, لا يعرفان الطريق إلى ذلك العنوان الذي تركه خليل على قطعة الورق, كان يتوقف بعدَ بضعةِ أميال ليسأل عن الاتجاه الأقرب, وقد سطعت الشمس في عينه بعد أن كان الأمس كئيباً كغيومه المضنية، انقلب الطقس مع يومه الجديد.

قال إيليا: هل سترى رفيقك مجدداً؟

– فليذهب إلى الجحيم

وصلا إلى المكان المحدد, كان أشبه بزريبة أغنام على مرتفع رائحته كريهة, نظر إيليا إلى الاسم والعنوان عَلَّه أخطأ في ذلك, لكن ظهر له أنَّه صحيح, إنَّه المكان المحدد, كان الصغار متّسخين، ويبدو أنَّهم لم يضعوا ماءً وصابوناً على أجسادهم قطّ, أما ملابسهم البالية المُمزّقة فَرُقِّعت عشرات المرات، وتَمّ توصيلها بقطع بالية أخرى لتتماشى مع تغيّر حجمهم، وعندما رأوا إيليا وبلال, ألقوا عليهم حجارةً من طين, وعندما غضب بلال ركضوا يقهقهون ويلقون عليه المزيد, خرج رجل وأمرهم بالذهاب فانصاعوا لأمره, ثم اقترب ليلقي التحية.

قال إيليا: أبحث عن رجل يُدعى أغابيوس

تمعّن الرجل إيليا بطريقة غريبة، ثم صرخ بصوتٍ عالٍ: أغابيوس! أغابيوس!

– ماذا تريد؟

خرج رجل يبدو في الخمسين من العمر, له كرش يكاد يمسك بنطاله، الذي قد يتسع لثلاثة رجال, لم يكن نظيفاً هو الآخر ولا غليونه الذي وضعه على حافة فمه, قال: "من هؤلاء؟".

– أُدعى إيليا يا سيدي, إيليا أرسلان, وقد جئتُ من أجل عمّي خليل...

– أجل, أعرفُ مَنْ هو عمّك، لكن لماذا أخذت اسم جدتك التركية لا اسم والدك العربي؟

فتح فمه ليتكلّم لكن قاطعه بلال قائلاً: شروط الجيش يا سيدي

نفث الرجلُ الدخانَ من غليونه وقد بدا عليه اليأس

– كيف حال والدك إلياس؟

قال كاذباً: إنّه بخير

– ما زلتَ تسكنُ عند عمّك؟

– هل ستراوغ أم تُعطيني ما جئتُ لأجله؟ يبدو أنَّك على علم في ذلك

ضحك الرجل وقد ظهرت أسنانه المُقرفة

– دائماً ما افتخرَ بك خليل, لقد أحبّك كابنٍ له

صمت قليلاً ثم أردف قائلاً: لكنّي لا أملك شيئاً.

– لا تملكُ شيئاً!

– انظر إلى الصغار, ها! بل انظر إليّ! أصبحنا نرقّع الملابس فضلاً عن رميها بعيداً

جاءت زوجته لتقدّم إليهم عصيراً

همس بلال قائلاً: مَنْ يملك عصيراً بدلَ الطعام؟

سمعه الرجل فردَّ عليه بلهجةٍ جِلْفةٍ: إنَّه من ضمن التبرّعات التي تصل إلينا ونحن نختصر المشاكل بتقديم العصير

قال إيليا: يبدو أنَّك تَدين للكثيرين

وجد إيليا بضع حشرات في العصير، يبدو أنَّه قد مضى عليه زمن, جاء الصغار وشربوه كلَّه بعد أن رفض تناوله احتراماً لظرفه, أو هذا ما أرادا أن يُظهراه.

قال الرجل مُحبطاً: هل سأرجوك؟

أخرج إيليا قطعاً نقديةً من حقيبته ومَدّها للرجل, فتح فمه فاغراً، ولم يكد يُصدِّق عينيه, إنَّه يدين لعائلة هذا الرجل، وكان يُفكّر بطريقة للسقوط على قدميه عَلّ إيليا يرأفُ به.

– سأُعوّض عمّي عمّا أخذت, أما أنت فما زلت تدين لي بأمانتك.

– أجل! أجل! أدينُ لك, يا للطفك! يا للطفك!

أخذ الرجل القطع النقدية وهو يوشك على البكاء, أمّا بلال لم يكن ليصدّق ذلك أيضاً

أثناء عودتهما بالقطار لم يتوقف بلال عن النظر إلى رفيقه, فما كان منه إلّا أن يسأل: ما الذي تُكفِّر عنه؟

– لماذا تظنّ ذلك؟

– أشعر بندمك تجاه أمرٍ ما

– إنّي جندي, دائماً سيكون لي شيء لأكفّر عنه

كان إيليا سعيداً لأنَّه عرف بلال في تلك الرحلة, على قَدْرِ ما شكّ فيه بكونه متمرداً، لكنَّه وجده رجلاً ذكياً وصالحاً, ولا بدّ أنّه يستحقّ أن يحميه ويبقيه بعيداً عن المتاعب, أما بلال فلم يكن شعوره يختلف كذلك.

(7)

اجتمع حشدٌ من الناس حول رجل يقف على صخرة، ويصرخ بتنبؤاتِ قدومِ عاصفةٍ, جعل من مظهره كالسيد المسيح بثوبه الأبيض ولحيته الطويلة، وقد شبَّه نفسه بِـ(شبتاي تسوي), ذلك المنافق في القرن السابع الذي زعم أنّه المسيح المنتظر، كان في نفسه يؤمن أنَّه أفضل من ذلك أيضاً, فاهتمّ بتبجيل الناس إليه ظنّاً منهم أنَّه حكيم. كان يقول في خُلده "يا ليتني مرسل! لماذا أنا مجرد بشريّ تافه؟!.. تافه!" بيد أنَّه لم يعلم شيئاً عن صفات المرسلين.

أصبح مشهوراً في القرية بعد قدومه منذ عدة أسابيع, استطاع تفسير الأحلام والتنبؤ بالطقس وقراءة الكفّ, وكلّ ما كان يقوله هبط على الأحداث بطريقة عجيبة وصحيحة, فأصبح ذلك المُبجّل الذي يذهب إليه الناس لنيل البركة, كانت لحيته البيضاء محبوكة بالحكمة, تجاعيد وجهه تُظهر دجلاً, أما عيناه فكانتا تُظهران دهاءً.

نزل عن الصخرةِ فاقتربت الحشود للإمساك بيده وبثوبه لنيل البركة, ألقى عليهم التحية بتواضعٍ وسمع رجاءَ مَنْ حوله وهم يقولون

– ادعُ لنا.. لا تنسَ أمرنا..

قال مُفكّراً: يؤمنون بأنَّ الله يتذكرهم، ثم يطلبون الوساطة من بشريّ وأنا لستُ بصنم.

مضى إلى خيمته حيث كان بلال ينتظره للعب النردِ مجدداً, لكنَّه تفاجأ بمظهره, فقد بدا أنه تلقى ضرباً مبرحاً, وكانت ما تزال بقايا دمٍ جافّ داخل لحيته البيضاء

قال الظاهر شغموم: يا الهي! ما الذي حصل لوجهك؟!

– لماذا لا يتوقف الجميع عن التكلّم بالأمر؟

– لأنَّ مظهرك يبدو مُزرياً

بدا كلاهما من نفس العمر, ومع أنَّ الظاهر شغموم يكبره بثلاثين عاماً تقريباً، لكن لا يكاد أحدٌ يُميّز ذلك, نظر إليه شغموم منتظراً الإجابة حتى قال بلال: لقد تعرّضت للضرب المبرح من قِبل جندي.

– سأضع كمّادةَ أعشابٍ لتخفيف الألم

– لقد مَرَّت عدة أيام هل سينجح الأمر؟

– بالطبع, ما تزال متورماً

وضع يده على رأس بلال فانتفض من الألم, أمره شغموم: "اجلسْ".

كانت خيمته مليئة بأغراضٍ فوضوية, وبعضها غير مفهوم, كانت تبدو كحجرة أسرارِ مشعوذٍ بالريش المعلّق وأحجار عين الشمس التي كان يجمعها, وقام بتعليق ريش الحَظّ على أربع أماكن مختلفة في الخيمة.

قال شغموم لإلهائه عن الألم: هل ستضع كتابي رهناً للفوز؟ لقد ندمتُ على عرضه للرهان!

– الجائزة لا تشتاق لخاسرها

قاطعهما صوت امرأة تنادي على الظاهر شغموم, نهض من مكانه قائلاً: "فلتدعُ لي بالرزق".

قال بلال متأفّفاً: بل سأدعو لهم بالمعرفة

– وماذا عنك؟

– سأبقى بمظهر العجوز على أيّ حال

– أيّها الشاب المنافق!

ضحك بلال ثم تركه الظاهر شغموم ليردَّ على نداء المرأة, كانت تقف مع ابنها الصغير بدر, كانا رثّي الملبس, متّسخين ببقايا الطين وسواد الحطب.

قال الظاهر شغموم: ما بالكِ أيتها المسكينة تغرّدين كطائر فقد جناحَه, نحن على أرض حيث الجميع خاسرون, الثريّ يخسر نفسه والفقير يخسر جسده.

قالت: أيها المبارك الحكيم، عجباً لو كان الجميع بطيبتك.

في ذلك كان آزر وحمزة في طريقهما ليلتقيا ببلال, وعند وصولهما نظر آزر بتعجب إلى الظاهر شغموم وقال: "مَنْ يظنّ نفسه؟".

قال بلال مستهزئاً: أرطميدورس!

قال الظاهر شغموم للمرأة: مُريني أيتها السيدة على أكون رزقاً لكِ من الله

– هذا رزق عظيم! بركاتك على هذا الصبي المشاكس، فوالده مريض وليس لي سواه

أخرج بدرُ لسانه بطريقةٍ وقحةٍ قائلاً: بل إنَّه أكسلُ من أن ينهضَ للعمل

صفعته أمه ووضعت يديها على وجهها واصطنعت البكاء، قائلةً: إنَّه ملعون! ملعون! هل ترى معاناتي أيُّها الشيخ المبارك مع هذا الابتلاء؟!

أومأ شغموم بيده بغير مبالاة ليهدّئ من روعها

– ها! إنَّه مجرد صبي سيكبر عن هذه التصرفات

– بارِكْ له أيُّها الشيخ ولتقرأ لي الكفَّ، فربّما يأتيني نذير خير أو شؤم لأتجهّز لهما

وضع الظاهر شغموم يده على رأس بدر مُخفياً شعوره بالقرف من لُزوجةِ شعره, ثم مَدَّت المرأة يديها تحت عينيه, أمّا هو فوضع يديه خلف ظهره ونظر إلى يديها بتفقّد وفضول, قال لها: لديكِ قلب ينفطر بسهولة, وبراعة إبداعية أظنُّها في النسيج أو الخياطة؟

التمعت عيناها وقالت بتوهج: أجل, أجل هذا صحيح!

أردف قائلاً: "تفكيركِ الواقعيّ سيؤمّن لكِ خيراً في القادم, قد يكون طريقه متعثراً لكنَّك ستجدينه في النهاية". تكلّم بعد ذلك ببعض الأدعية والكلمات جعلتهما يصدّقان ما يقول حتى لو لم يفهماه.

قالت المرأة: أيُّها الطيّب كيف لنا أن نردّ لك جميلك

– الأرزاق بيد الله

ذهبت المرأة وعندما ابتعدت عن المكان صفعت بدر على رقبته قائلة: "ألم تستطع تمثيل الضعف كوالدك؟".

– لقد بارك لي! لقد بارك لي!

قفز بدر وهو يعاند والدته ويركض أمامها, أمّا الظاهر شغموم فشدَّ لحيته مُفكّراً: اللعنة! لم أحصل من هذه القرية على كسرة خبز واحدة.

عاد شغموم إلى خيمته ووجد بلالاً يهمّ بالرحيل

– إلى أين؟

– لديَّ لقاء يجبُ أن أحضره

– لكنّي لم أُنهِ علاجَك بعد

– أشكرك أيُّها العجوز لكن ينتظرني رفيق

– هل هو لقاءٌ قوميّ ثوريّ انقلابيّ؟

قال بأسلوبٍ مجازيّ، لكنَّ بلالاً ردَّ ببرودة أعصاب: أجل.

نظر إليه شغموم بعينين مصدومتين، ثم قال: كلّا هذا ليس صحيحاً

ضحك بلال قائلاً: أنتَ الساحر! ألا تستطيعُ تمييز صدقي الآن

– رجلٌ مثلك؟! لن تنجُ حتى في حدود هذه القرية

– لا تقلق كنتُ أمازحك فقط

– وأنا لستُ بساحرٍ، إنَّها الموهبة أيها الرفيق، إنّها الموهبة

– إنَّ خطوط اليد هي علم وليست قراءة غيب, وما قرأته لتلك المرأة كان عبارة عمّا يتغير طبيعياً من تلك الخطوط, خطُّ القلب والحكمة يُظهران الكثير عن الإنسان, ومع تغيّر حياة المرء تتحرّك ببطء الخطوط لتُظهر ما حصل بالفعل

– هنيئاً لكَ لقد كشفتَ سِرّاً من أسراري

– إنَّه العلم وليس سرّاً

– ماذا لو تنضمّ لي في هذه التجارة؟ نحنُ لا نكذّب فعلاً

قاطعه بلال قائلاً: لستُ مهتمّاً بتلك الأمور، إنَّ لي فقط بنفسي

غادر بلال مع حمزة وآزر إلى ملتقاهم القديم في مقهى القرية, كان المقهى كمثيله من الأماكن التي أكل الزمن أخشابها وأعفن المطر زواياها, يمكن تشبيه الأماكن بسكانها, فلو كانوا متجددين رافضين لانعكس المكان كالمرآة ليُظهر مبادئهم, والقليل منهم مَنْ تجرّأ للوقوف في وجه التقلبات التي دمّرت حياتهم, كلّ فرد كان لجماعته كشجرة مثمرة لكنّها تقف وحدها في صحراء قاحلة، وتُطعم بضع أشخاص للوقوف على أقدامهم فقط.

بعد دقائق من جلوسهم التفتت العيون لمنظر بلال, وسُرعان ما غادروا إلى خيمة حمزة التي اعتاد أن يستقبل فيها ضيوفه، في الخارج كان الرجال ما يزالون يُجلسون الصغار لتعلُّم اللغة العربية, فبعد أن أصبحت اللغة التركية هي السائدة في المؤسسات والمدارس والصحف، كانت هذه من ضمن الجماعات السِرّيّة التي عملت للحفاظ على اللغة, وربما بحلمٍ بعيد المنال أن ينالوا الاستقرار والحصول على رأيهم القوميّ واستقلال بلادهم, وقد كانوا ممتدّين من الجمعية القحطانية, بعضهم أعاد تسميتها بجمعية العهد, وهي جمعية سِرّيّة تشكّلت في إستانبول, لكن لم يكن أساسها أصحاب القرى كهؤلاء الرجال, بل كانوا مجرد امتداد للجمعية الكبرى التي كانت تُلقي مطالبها في باريس, وبعد تعرّض بعض أعضائها للإعدام، كان حمزة من ضمن أولئك المثقفين المشكوك في أمرهم، إلى أن عاد إلى دمشق, فقرّرَ البقاءَ وإعطاء تلك الأفكار القومية لأصدقائه امتداداً لأولئك الصغار.

ركض الصغار من بعيد وهم يرتدون القمباز وقبعات صغيرة، جعلتهم يبدون كالدراويش، وألقوا التحية على بلال وآزر, فهم من بدؤوا بتعليمهم وكانوا لهم قدوة ومعلمين, ولم يروهم منذ عدة أشهر, سعدوا لرؤية بعضهم بعضاً، ومن ثَمّ أدخلهم حمزة واستقبلهم في خيمته.

قال بلال: هذا أفضل

كان آزر يبدو محبطاً

قال بلال: ما بالك؟

– إنّي خائفٌ على مؤونة عائلتي

قال حمزة: سَتَخسرها هذا مؤكّد

– شكراً على تهدئتي يا رفيقي

– لا تستطيع لومي ولا لومَ الواقع المرير

قال بلال: ماذا لو نحنُ جعلنا الواقعَ مريراً

قال آزر ساخراً: ومن أين نبدأ؟

قاطعهم حمزة وهو يحمل برقية, ثم قال: لقد وصلني خبرٌ عن أحد كتّاب (صحيفة المفيد)

– من أين لنا أن نحصل عليها؟

– لا يمكن الحصول عليها إلّا من بيروت, لكن يوجد ما هو أهم, استمعوا إلى ما قاله الصحفي عبد الغني العريسي: "فلا تضنّوا أنتم بالاتحاد ... ألتمسُ منكم ألّا تتفرّقوا فرقاً وطوائف، فاليومَ لا مسيحي ولا مسلم ولا يهودي ... ولا لبناني ولا بيروتي ... فخطّ بيروت هو خطّ الشام وحلب وفلسطين..."

أطلق بلال ضحكةً بسخرية

قال آزر متعجباً: ما بك؟

– انظر إلى مجاعة الأرمن, وإلى طمس المسيحيين... بل انظر إلى وضعنا نحن المسلمين، لا يتعلّق الأمر بالأصل والطوائف بل هي مجرد قومية عثمانية.

– ليس بيدنا حيلةٌ إلّا بتدريس الصغار وتوعية الفئات العمرية

قال بلال: رجالٌ مثلنا؟ لا نستطيع أن نصنع اختلافاً ولو بحجم نملة

– إذن تختار الخضوع

– لن أخضع, لكن لا أجدُ لنا أهميةً، بل لنا أن نحاولَ لكنّنا في حاجة للمزيد, أتمنّى لو نستطيع ذلك.

– يمكن تدبير الأمر

– من أين؟

بدا أنَّ بلال قد تذكّر شخصاً، فقال وهو يضعُ سبابته على فمه: أعرف رفيقاً خارج هذه القرية.

(8)

الصباح... الحياة... الضوء... كانت عينايَ مفتوحتين على مصراعيهما بينما ما أزال بين أحضان السرير... قُلْ لي شيئاً لا أعرفه, إنَّي في غرام ما أجهله, أخبرني عن سبب غناء الطير وليس عن جمال صوته, أخبرني عن نبض قلبي وليس عن شغفه. أنهضُ في أغلب الأحيان لألازمَ مكتبة والدي التي لا تتعدّى خمسَ كتبٍ, لا يوجد زهور ولا ألوان, لكنَّ ذلك المكانَ الطينيَّ الباهتَ اكتسب رونقاً حميمياً خاصّاً, أفلا يكاد يكون للجمال جمالاً؟! ألا يكاد يكون للمرض سقماً يقضي عليه انتقاماً؟! ألا يكاد يكون لوالدتي عقلاً يراني فؤاداً؟

– لا أجدُ أجملَ من الصباح يا جودى

– لا أجدُ أجملَ منكِ يا أمّي

ضحكت بامتنانٍ وقالت: راودَني حلمٌ ليلةَ أمس

– أخبريني عنه

– حلمتُ أنَّكِ وآزرَ وأخيلةَ وأدهمَ طيورٌ رنّانةٌ تقفون على غصن شجرة عالية، وتتبادلون الألحان

ضحكتُ قائلةً: كم يكون ذلك رائعاً

– ليس تماماً, كنتم تُغنّون لحناً حزيناً بعد أن افترس قط ما أخيلة وأدهم، فقطّعهم إرباً وكانت دماؤهم كبركةِ ماءٍ عميقةٍ وهم يصرخون.

قاطعتها أخيلة بمجيئها لكنَّها لم تسمع ما قالت عن حُلمها

– سأغادرُ لجلب الماء

أخذتُ الفخار منها وقلت مجتنبة سماعَ أمي: أنا سأجلب الماء، حَضّري الفطورَ ريثما أعود

– هل أنتِ متأكدة؟

– أجل

مضيتُ بين الأشجار وأنا أُصفِّرُ بفمي, سمعتُ صوتاً خلفي، فوجدت أفعى خضراء صغيرةً, حملتها بين أصابعي وابتسمتُ لها, راقبتُها وهي تنتقل على رسغي ثم وضعتها أرضاً فذهبت في طريقها, لا أذكر خروجي كثيراً خارج طريق النهر, وكانت المرة الأخيرة التي خرجت فيها وأنا في عمر العاشرة, ما زلتُ أذكر ما حصل بوضوح, فقد ذهبتُ مع والدتي إلى سوقٍ شعبيّ في القرية, كان التجار من نساء ورجال يضعون بضاعتهم على الأرض، ويجلسون بجانبها وهم يعرضون ما لديهم من قماش وحُلي وطعام, لم أُحبّذ الخروج كثيراً, لكنّي خرجتُ في ذلك اليوم لمساعدة والدتي فقط.

وقفتْ والدتي أمام مجموعةٍ من البائعات, وبدأْنَ بعَرْضِ ما لديهن, سَرَحْتُ من الملل, لم أُحبّذ أن أختار قماشاً أو قطعة حُلي, بل فضّلت العودة وأن أطلب من والدي أن يقرأ لي, وقفتُ متسمّرةً حتى دخل ضوءٌ في عيني وسبّب لي غشاوةً, أغمضتها بضيقٍ ثم فتحتها لأنظر أمامي, كانت الثواني الأولى عبارة عن نقطٍ سوداءَ يرافقها ألمٌ مزعج في عَظْمةِ العين, بعد أن استعدتُ وضوحي نظرتُ في الجوار لأجدَ مصدر سطوع ذلك الشيء, وإذ بصبيٍّ يجلس على الحجارة تحتَ أشعة الشمس الحارقة، يلعب بقلادةٍ ذهبيّةٍ بيده, وجدته رائعاً بخفّةِ يده وسرعة بديهته, فكان يرمي القلادة في الهواء ويلتقطها مسرعاً دون أن تتشابك في يده, راقبته بإعجاب عن كثبٍ وأردتُ أن أفعل مثله, فأخرجتُ قطعةً نقديّةً وقذفتها عالياً في الهواء, لكنَّ رميتي كانت قويّةً حتى جعلتها ترتفع كثيراً في الهواء إلى أن سقطت هاربة وزاحفة عند قدميه, هبط عن وقوفه والتقط القطعة النقدية, ذهبتُ إليه وأنا غيرُ راضية عن خسارتها, وعندما وصلتُ إليه قلتُ له: "إنَّها مُلكي".

قال بسخرية: ما هي؟

قلتُ بغضبٍ: القطعة النقدية!!

وضعَها بكفِّ يَدِهِ ثم حرّك يديه مسرعاً، وفردَ كفّيه مجدداً، وكانت قد اختفت.

قال: جِديها إن استطعتِ.

رَكَلْتُهُ على قدمه وصفعته على وجهه, كانَ أطولَ منّي وبدا أنَّه يَكْبُرني بعدة سنوات, مع ذلك لم أتردّد في أذيّته لاستعادة حقّي, جاءت والدتي غاضبةً وأمسكت يديّ بقوة

– ستقعين في المشاكل هيّا فلنذهب

شعرتُ بحُرقةٍ في عينيّ وأردتُ البكاء, لكنّي لم أجرؤ على ذلك أمام والدتي, بدت تعابير الحزن على وجهي والنصر على وجه الصبيّ الأحمق, وسرعان ما اختفى حزني عندما عبرنا أنا ووالدتي بجانب الحجارة التي كان يجلس عليها, فوجدتُ السلسلةَ الذهبيّةَ على الأرض وهو لم يلاحظ ذلك, لا بُدّ أنَّها سقطت من جيبه سهواً, فمثّلت أنَّي متعثرةٌ وقمتُ بالتقاطها، ووضعتُها في جيبي, شعرتُ بالنصر أنَّي حصلت على انتقامي, لم تَرَ والدتي ولم تلاحظ ما فعلتُ، لكنّها بقيت غاضبةً من أفعالي قائلةً: "يا الهي, أقسمُ يا جودى أنَّكِ تُثيرين أعصابي دائماً.

– أعتذرُ يا أمّي

– ستعاقبين جيداً! ماذا ظننتِ بضربك ذلك الصبيَّ الذي يكبرُك عمراً؟ ستصبحينَ سيدةً قريباً ولن تنفعك هذه التصرفات.

– سأحاول أن أتغيّر

– بل ستتغيّرين حتى لو ضربتِ التغييرَ من رأسك الأبله

عندما عدنا إلى المنزل، انتظرت اللحظة التي كنتُ فيها وحدي وأخرجت القلادة الذهبية, كانت رائعة جداً وتبدو باهظةً, ومعلقاً بها ما يشبه الخاتم لكنَّه لم يكن كذلك, بدا أنَّ هناك قطعةً ناقصةً, فكانت من الخلف أطولَ بقليلٍ من الأمام, ومن الأمام هابطة بقليل من الخلف, ويوجد باقي حرفين كانا من كلمةٍ ولغةٍ لم أرَها من قبلُ فوجدت نصف (da), فكرتُ في نفسي، لا بُدّ أنَّها باهظة, شعرتُ بالذنب، فقد بدت أنَّها تساوي عشرات القطع النقدية كتلك التي سُرقت منّي, فأخذتُها بإحباطٍ وذهبتُ إلى غرفة والديّ.

– اقتربي يا جودى

دَمَعَتْ عيناي ويداي خلفَ ظهري وأنا أحمل القلادة

– لقد فعلتُ شيئاً فظيعاً

– اعترافُك سَيُخلِّصك يا عزيزتي, ما الأمر؟

أخذتُ بيده ووضعت القلادة في داخلها, فحملها والدي متفحصاً إياها وقال: "هل سرقتِها يا جودى؟".

أومأتُ رأسي بحزن

فقال: لمَنْ تخصّ هذه القلادة

– لصبيّ

شرحتُ له ما حصل تماماً، وكيف حصلتُ عليها

أردف قائلاً: لو عُدتِ إلى الوراء وتكرّر الأمرُ تماماً هل كنتِ ستسرقينها؟

– أجل

– حسناً, لو عُدتِ إلى الوراء وأنتِ تعلمين شعورك بالذنب فهل ستسرقينها؟

حرّكتُ رأسي برفضٍ وقلتُ: لا

عاد إلى الوراء وحدّق بي قائلاً: "لقد أغضبَكِ ذلك الصبيُّ بالفعل, سأبحثُ عنه، وفي تلك الأثناء ستلزمين الاستغفار".

– ألا يجبُ أن يستغفر هو عن عمله؟

– لا يذهب حَقٌّ أو سوء إلا ويعود إلى صاحبه, فاختاري دائماً ما سيعودُ إليكِ في المستقبل.

ألبسني القلادةَ ووضعَها حول عنقي وقال: "ارتديها إلى أن أَجِدَهُ، وستكون بمثابة تفكير لك كيلا تتصرفي بغضبٍ في المرة القادمة".

لم يجد والدي الصبيَّ قطّ, وبقيتِ القلادةُ على عنقي حتى هذا اليوم, وفي كلِّ مرةٍ أضعُ فيها يدي على صدري، أتساءل عمّا حصل للصبي من مصائب بعد خسارته هذه القطعة الثمينة, لا بُدّ أنَّها كانت مصيبة آلمته حتى ذلك اليوم, لم أنسَ ملامحه وإن رأيته رجلاً, كان مؤلماً ما فعلتُ بالنسبة إليه, لكنّي وضعتُ الذنبَ على عنقي حتى لو لم يَحْتَجْهُ في ذلك الوقت.

وصلتُ إلى النهر ونظرتُ لانعكاس صورتي في الماء, انغمس طرف شعري عندما انحنيتُ لتعبئة الفخار, كان الماء بارداً وأطرافُ النهر أصبحت جليداً, لكن راودتني رغبةٌ بغسل وجهي, فعلتُ ذلك وشَهِقْتُ قليلاً, لكنّي انتعشت ونظرت لانعكاسي مرةً أخرى, كانت الحماسة شبيهة بلقاء (أثينا) إلهة الحكمة, فيذكرني إلهُ الحكمة أنَّه إله الحياة, وبدا أنّها تقولُ في غيبي: "هي لوحة فنية, تثبُ وتثبُ وتثبُ على جسر السنوات بصورة واحدة, هي الرسم, هي الفن، هي ألوانها, لم تخرج من الفسيفساء, تعالت ضحكاتها بدغدغة الألوان الزيتية, وهنتها بلحظات كئيبة بقفزها خارج الهيكل, لو امتلكَتْ عقارب الزمن لن تختار تشكيل نفسها بصورة مختلفة".

كنتُ أُخبّأ بضع ورقات من البردي, أخرجتها واجتاحتني رغبة بكتابة قصيدة على وزن بحر الرمل كي أصفَ فيها شعوري

أُدْلِجُ العزلةَ في الكونِ بِفَأْلٍ... فأنا مُلْكِيَ من جِنْسِ وجودي

قلبِيَ البكرُ نمى زَهْراً حنوناً... يَحْضِنُ الحقدَ وتُزْجيه شجوني

ولعلَّ الحُرّية تلقي ليَ حبلاً... يعقد النِّيرَ على عنق قيودي

فأنا شمسٌ تُحِبّ الكائنات... ليَ مزجٌ بين ليلي وضيائي

جمعتُ بعضَ الأحجارِ وتسلَّيْتُ ببطءٍ على النهرِ, في المرحلة الأولى في تعلّم القراءة والكتابة تشعرُ بالأمان, وبعدَ الخوص في الأدب يتحوّل الشعورُ للجمال, لكنَّ الخوف يأتي عند الابتعاد عن ذلك, فأنظرُ إلى طيرٍ في السماء ولا أُفكّر في جماله, بل أُفكّر كيف يستطيع التحليق عالياً دون أن يسقط, لا بُدّ أنَّ هناك مَنْ بحث في ذلك, وجعل منها تجربةً قد تتيح للإنسان تجربةً أكبرَ من مجرد المشي على الأرض، نهضتُ من مكاني وقمتُ بملء الفخار, ثم خبَّئْتُ ورقَ البردي بين الصخور, وفي تلك الأثناء لم أعلم أنَّ رجلاً هناك كان يُراقبني.

(9)

ركضَ الجنود حولَ المعسكرِ ستةَ أميالٍ في الساعة، بعضهم كان جديداً فبدا على ملامحه الاحمرار, وقد صُنِّفَتْ هذه الفئة بـ "المتذمرين", أمّا الفئة الأخرى فكانت صامتة, وظنَّت أنَّ هذه التدريبات ما هي إلّا وقائية لتهديد دولٍ أكبرَ من أن يُكترث لحقيقتها. أمرهم الجنرال بالتوقّف, اصطفوا جنباً إلى جنب بثبات وعزيمة, وقد جَفَّتْ حلوقهم وتقلّصت معداتهم.

أمَّا الطبيب فكان يقفُ داخل المعسكرِ متململاً, وسُرعان ما غادر إلى موعده الذي ذهب إليه بتثاقلٍ، وقيل له إنَّه يجب رؤيته فوراً, أو على حَدّ قول آزر: "مسألة حياة أو موت".

غادر إلى إحدى المقاهي التي وصّى بها آزر, وجده بانتظاره والتوتّرُ بادٍ على وجهه, قال آزر: "أشكرُكَ لمقابلتي".

– لم أملك خياراً فأنتَ تضع الزناد على رقبتي

كان الطبيب قد أخذ المهنة عن والده, فهو لم يكن طبيباً شرعياً بطبيعة الحال, بل وَرِثَ الصنعة كأنَّها مهنة نجّار أو بنّاء, كثيراً ما أخطأ في الماضي عند تشخيص الحالات، لكنَّه تعلَّمَ من تلك التجارب, كانَتْ جيّدةً بالنسبة إليه وسيئةً لأولئك الذين صدّقوا عدم شفائهم, لكنَّه وعد أنَّه سيدعو لهم بالشفاء في كلِّ ليلة, عَلَّ الله يُشْفِقُ عليه ويبعده عن التجنيد إذا أصبح طبيباً للجنود, فلا يذهبُ كالعسكريّ, بل يختبأ في المعسكر حين يشتدّ القتال, ذلك أفضلُ مكانٍ يستطيع الوصول إليه, أمّا آزر من جهة أخرى فعَلِمَ عن أمره, وكما يفعل دائماً عند التفكير مليّاً, امتلك وثائقه الحقيقية.

– أحتاج إلى معروف

قال الطبيب: ستبوءُ بالقَدَحِ الأخيب

– تُعطيني مثلاً أنَّي لن أكسب شيئاً

– حسناً قُلْ ما لديك

– إنها شائعات

نظر آزر حوله بقلقٍ وقد اشتدّ صوته وانخفض

– تقول إنَّه سيتمّ تجنيد الشباب، لقد اسْتُدْعِيَ شقيقي أدهم للخدمة العسكرية وأظنُّ أنَّي سأُطْلَبُ أيضاً

– لا أستطيع مساعدة أخيك.

– ليس أخي بل أنا

نظر إليه الطبيبُ نظرةَ احتقارٍ أشعرته أنَّه كلبٌ يُحني رأسه وذيله بين أقدامه

– إنَّي أحبّ أخي.

– ليس هناك داعٍ لتشرحَ لي، فقد نسيتُ للحظةٍ مع مَنْ أتكلّم

– لكنَّه تزوّج وأنجب ابناً وابنة، أما أنا فلم أرَ من الحياة شيئاً

لم يملك الطبيبُ كلاماً كافياً ليقوم بإذلاله, ماذا سيقول لهذا الأنانيّ؟

– ما المطلوب مني؟

– أن تعطيَني ورقةً مزوّرةً تُثبت أنّي أحمل مرضاً في العضال

– كيف بحقّ الجحيم سأثبت ذلك؟ إنّك تطلب المستحيل أيها الأحمق!

– إما أن تَحلَّ مُعضلتي أو تبدأ مشاكلك

وقصد بذلك أن يُخبِرَ عن حقيقته

– أتمنّى من تركيّ أن ينهشَ رأسك!

يتميّز الأنانيُّ بأنَّه ليس على استعدادٍ لتقديم شيءٍ للآخرين, أمّا من أجل نفسه فيستطيع فِعْلَ المعجزات, لذلك لم يشعر آزر ببرد تلك الليلة على قَدْرِ ما شعر بحاجته, فوقف في الخارج يمشي جيئة وذهاباً وقد احمرَّ وجهه من الصقيع, أمّا المعطفُ الخَشِنُ المصنوعُ من صوفٍ رائحته كالأغنام، لم يكن كافياً لتدفئته, علم الطبيبُ أنَّ آزر ينتظره في الخارج, فأبقاه كالحيوانات لا يدخل له مضجعاً ولا يخطو عتبةَ بابه, أراد أن يتخلّص منه بسرعة, لكنَّ عذابه من البرد في الخارج أشعره بشيءٍ من الراحة, ودعا عليه أن يصل إلى قريته ميتاً أو مأخوذاً من الجنود.

بعد ثلاثة أيام من الرحيل, قضى وقته في المنزل بصعوبة, وغادر ليقابلَ بلالاً وحمزة في المتجر الأثري الذي يُخبّئون فيه مخططاتهم, وجد حمزةَ قبل ذلك الملتقى يقرأ كتاباً ما, صَفَّرَ له بطرفِ فَمِهِ، فنهضَ وألقى عليه التحية.

– لقد عُدْتَ

– وهل ظننتَ أنّي سأغادر إلى الأبد؟

– هل قضيتَ واجبك؟

– أجل سأكونُ على ما يرام

– كيف نجحتَ في الأمر؟

– ذلك سأبقيه سِرّاً يا رفيقي! والآن قُلْ لي هل تقرأ شيئاً مشوّقاً؟

– اجلسْ واستمعْ...

"في القرن الثامن عشر كان القطنُ هو ما يولّد الثروة الطائلة في دول شرق البحر المتوسط, وقد بسطت قبيلة (الزيادنة) البدوية سيطرتها في الجليل على مساحاتٍ شاسعةٍ في القرن السابع عشر بقيادة رجل يدعى ظاهر العمر.

اشتهر ظاهر العمر في العالم العربي طوال قرون متتالية, ووُصِفَ بأنَّه رجلٌ قوميّ عربيّ وفلسطينيّ؛ بفضل ما قام به من مواجهات مع الولاة العثمانيين, وقد بسطَ من قاعدته في طبرية سيطرتَهُ على السهول والمرتفعات الخصبة الواقعة شمال فلسطين ودمشق، ممّا زاد من ثروته وموارده، لكن في النهاية أفسدت أسرته خُطَّته بأن يعتزل الحياة السياسية بسلام, فقد وافق على الانسحاب من عكا برفقتهم، لكنَّ ابنه عثمان قام بخيانته, إذ شكَّ في صدق اعتزاله، وأنَّه سيعود للحكم كما فعل مراراً وتكراراً, فخطّط مع ضباط ظاهر الذين خانوه بدورهم، واتفقوا مع عصابة تسمّى (الدنكزي)، ونصبوا له كميناً نجحوا في اغتياله, كان في عمر السادسة والثمانين عندما قاموا بطعنه، ثم بقطع رأسه وإرساله تذكاراً للقائد البحري العثماني حسن باشا..."

قاطعهم بلال وقد جاء على عكازه: أتمنى لك قراءة سلمونية

قبل أهل دمشق عام 1744م وجودَ المُومسات في المدينة وأُعجبوا بهن، وافتُتِنوا بفتاة جميلة تدعى (سلمون)، أصبح اسمها مرادفاً لكلِّ ما هو جميل, وبذلك استخدم بلال هذا المصطلح ليصفَ به استمتاعهم بالقراءة.

قال آزر: هه إنَّه العجوز المغفل

– أنت تُغار فقط لأنّي لم أحتَجْ ثلاثة أيام في دمشق للهروب من التجنيد

– يا لها من طريقة مثلى لإلقاء التحية, تفضّل بالجلوس

– كم يصعب للمرء أن يكونَ عجوزاً

– مظهرُك أيُّها الشابّ حظٌّ نادرٌ، فلا أحدَ يمسكك أو يحاول اغتيالك

– لستُ بين الأعداء على أيّ حال

– لقد جاءني درويش عجوز يسألني عنك

– لا بُدّ أنَّه سليمان

– من هو هذا الدرويش؟

– مسكينٌ... أجلسُ معه للعبِ النرد أحياناً

جلب حمزة كتاباً إنجليزياً ووضعه أمام بلال, نظر بلال إلى الكتاب ولم يتمكّن من قراءة شيءٍ عن غلافه, كثيراً ما حاول حمزة تعليمه الإنجليزيةَ لكنَّه رفض ذلك؛ بسبب حُبّه للغة العربية, وقال إنَّه ليس من المهم تعلّمُ لغةٍ يجهلها، بل يجب الاحتفاظ باللغة العربية والتشجيع عليها كيلا تندثر, وقد تمنّى وجود روائيين عرب وأشخاصٍ ينهضون باللغة في شتى مجالاتها, كان حُلمه وجود مكتباتٍ، وتحويل شغف العالَم من تعلّم الانجليزية إلى تعلّم العربية, وكان يتمنّى أيضاً لو تُترجَمُ جميع الكتب العربية إلى عدة لغات، ويتمُّ إرسالها إلى العالم، لكنَّ ذلك سيضعف جمالها, لكن لا بأس إذا كانت تنقلُ أفكارَ أفرادنا إلى الخارج.

قال حمزة: هذا كتاب لشاعرٍ يدعى (والت وايتمان)، وقد كتب هذه القصيدة, استمع إليها بالإنجليزية وسأخبرك عن معناها:

"THOU reader throb best life and pride and love the same as I

Therefore for thee the following chant"

أكمل حمزة قوله: إنَّها تعني

"أيُّها القارئ...

إنَّك لتنبض بالحياة والكبرِ والحبِّ مثلي أنا..

فإليك الأغاني الآتية.."

قال بلال: لا أجدُ النغم فيها, إنَّها جافّة مثل الكلام العادي

قال حمزة: لم يُرِدْ وايتمان التعالي على قرّائه، فكتب إليهم هذه القصيدة قائلاً إنَّ الإنسانية هي أفضل تواصل بين البشر, بذلك أراد منهم أن يُكملوا القراءة وليتفكّروا في قصائده

– أجل لكنَّكَ خُنْتَ أدب وايتمان عندما قمتَ بترجمتها الحرفية

وقف بلال وهو يتفكر ثم قال: استمعْ سألقيها مستخدماً الأدب العربي, لتكن على البحر المتقارب

إلى قارئي الحيُّ مثلي إليك الأغاني إليك الكتابا

أُحيكُ حروفي بالحُبّ والكبر صلها بقلبك وانبض حياتا

ضحك حمزة ساخراً: لا يمكن تحويل لغة أدب ما إلى لغة أدب ثانية, لقد جعلتَ منها فعل أمر وليس اقتراحاً.

– لقد نجحتُ بها لِمَ لا تعترف بذلك؟

– لا تنجح فقط، لِمَ لا تتقبل ذلك؟

كان الصبيّ بدر يختلس النظر وهو يضحك على جدالهم, وقد لاحظه بلال فخرج بدر كي يتجنّبَ التعرّض للمتاعب وقال له: "أيّها الرجلُ المخيفُ أنتَ لستَ بعجوز".

أمسك بلال لحيته ساخراً: صدقتَ أيُّها الصبيّ إنَّ لحيتي من صوف الأغنام

– غير معقول! لا توجد أغنامٌ بهذا البياض

– اقتربْ لأُعلِّمك كيف تصنع واحدة

اقترب بدر حائراً باضطراب، وعندما اقترب من وجه بلال الغريب صرخ رافعاً يديه كالفزّاعة، فهرب بدر باكياً وصارخاً خارج الدكان.

"هذا ليس تصرّفاً لطيفاً" قال جنديٌ قادمٌ من الخارج, بدا في العقد الرابع من العمر، حليق الوجه وقصير القامة، يمشي منحنياً للأمام كأنَّه يعاني نقصاً في النظر, نهض بلال من مكانه وقال: "فُضول ذلك الشقيّ يضعه في المتاعب".

قال الجندي: إنَّه مجرد صبيّ

قال بلال بنظرةٍ توحي بالسخرية: تقبّل اعتذاري إذن

انحنى مستهزئاً ثم قال: والآن اعذروني سأذهب للعب النرد

غادر بلال فقال الجندي: "إنَّه عجوزٌ خَرِف".

وضع حمزة رأسه في الأرض احتراماً وخضوعاً للجندي, كان يواجه هواجس في داخله, فهو جبانٌ خائفٌ أن يُلقى القبضُ عليه حتى لو ضَمِنَ أنَّ أعماله مع الأخويات المتمردة سِرّيّةٌ, وحلمُ كثيراً أنَّه يتمُّ تعذيبه وأحياناً إعدامه في الشارع كي يكونَ عبرةً للشعب, وأحياناً أخرى كان يحالفه الحَظُّ في الحلم، فينقطع حبل المشنقة عدةَ مرّاتٍ، كما قرأ لما حصل لِـ(طومان باي). وفي لحظة سقوطه في الهواء كان يستيقظ متعرّقاً كأنَّ روحه كانت تحاول الخروج منه, كلُّ تلك التخيّلات جعلَتْ منه رجلاً قانطاً لا تدخل الشجاعةُ أساريرَ قلبه.

– "ما اسمك؟" قال الجندي واضعاً يديه خلف ظهره ومتفحصاً حمزة من أخفض قدميه إلى رأسه.

– حمزة

– وماذا تعمل؟

تمتم قائلاً: كما ترى يا سيدي أسعى للرزق بعملي البسيط في هذا المتجر

حمل الجندي الكتاب المفتوح الذي كان يقرأ فيه حمزة ثم قال: قصة مُشوّقة, ظاهر العمر! لكن هل سبق لك أن قرأت عن المتمرّدين والخونة؟

خفق قلبه وبدأ يشعر بحرارة عَرَقِهِ

– أجل

– ماذا يحصل؟

بقي حمزة صامتاً لكنَّه لم يَخْتَرْ ذلك الجمود, فقد شعر أنَّه تَمّ وَضْعُ رباطٍ على لسانه، وخانه عقله عن إنقاذه, فقال الجندي مجدداً: "هل قلتَ شيئاً؟"

قال بصوتٍ خافتٍ: يتمُ إعدامهم في العلن

اقترب منه الجندي ثم وضع يده على كتفه مُطمئناً إياه، وقال وهو يُومئ برأسه: "لكنَّك مواطنٌ جيّد أليس كذلك؟".

ثم لكمه على بطنه فتأوه حمزة من تلك متوجعاً

– أجل.. أنا كذلك يا سيدي

– إنَّ الله يرى في جَعْلِ بعض الألمِ في حياتنا أن نحذرَ دائماً, هل تؤمن بذلك؟

– أجل

وضع الجندي يديه خلف ظهره ونظر في الجوار، ثم قال: "لا بُدّ أنَّ محمداً وزينبَ يشعران بالفخر في الجزائر".

محمد وزينب والدا حمزة, وقد اجتازه الوهن عندما سمع الجندي ينطق اسمهما

– أجل.. أجل يا سيدي

– هل تحلمُ برؤيتهما مجدداً؟

خفق قلبه بشدة وقال: أتمنى ذلك

– أُريد أسماءً وجميعَ المخططات

خانه لسانه ولم يكن يتحكّم في نفسه

– ل... لك ذلك

(10)

كان قد مضى أسبوعٌ على عودة إيليا من دير القمر, ولم يُخبِرْ عَمَّه عن تبرّعه, بل مَدَّ إليه بدين أغابيوس، وجعلهُ يَظُنَّ أنَّ الأمور حصلت بصورة عادية, لكن كان جليّاً لبلال عن طبيعة النفس البشرية وحاجتها للشعور بالبطولة, وحاجتها أيضاً بأن تستوليَ على قطعة من امتنان الآخرين, فالمرءُ يحتاج شروراً مقتطفةً أو خيراً مقتطفاً, وفي الحالتين هي جزء من رضا النفس الأنانية؛ لأنَّ إيليا لديه الكثير ليكفّر عنه, والكثير ليثبتَ لنفسه أنَّه يحاول التغيير, لكن في صدره وبالقرب من بذرة الإنسان السوداء, امتلك خوفاً من أن يخسر نفسه في لحظة واحدة.

عاد بين الجبال, وتكرّر معه ما حصل عندما عاد من ألبانيا, فوجد خطاباً غيرَ معنونٍ مُرسَلاً إليه من غير اسم أو تاريخ, كان محتواه باللغة الإنجليزية، وقد جاء كالتالي:

"ترغب جماعتنا في عرضِ قرضٍ متدرجٍ من عشرين مليون جنيه إسترليني يقوم على الضريبة التي يدفعها اليهود المستعمرون في فلسطين إلى جلالته, تبلغ هذه الضريبة التي تضمنها جماعتنا مئة ألف جنيه إسترليني في السنة الأولى، وتزداد إلى مليون جنيه إسترليني سنوياً".

المرسل – تيودور هرتزل

فكر إيليا (تيودور هرتزل!)، أخرج الكتاب الذي أُرسل إليه ووجد نفس الاسم على عنوان الكتاب, قلّبَ الورقة فوجد ردّاً من عبد الحميد الثاني على الخطاب قائلاً:

"لا أستطيع بيع حتى ولو شبر واحد من هذه الأرض؛ لأنَّ هذه الأرض ليست مُلكاً لشخصي، بل هي مُلك للدولة العثمانية, نحن ما أخذنا هذه الأراضي إلا بسكب الدماء والقوة، ولن نسلمها لأحد إلا بسكب الدماء والقوة، والله لئن قطعت جسدي قطعة قطعة لن أتخلى عن شبر واحد من فلسطين".

أغلق إيليا المغلف وهو يتفحص عن المزيد, لكن كان ذلك فحواه كلَّه, من يرسل إليه هذه الرسائل الخطيرة؟ ومن الذي يمتلك السلطة بأن يعلم عن هذه الأسرار؟ شعر بالريبةِ وفكّر في جميع من قد يرسلون إليه, لكنَّه لم يخرج بنتيجة, والسؤال الأكبر كان لِمَ اختير هو لقراءة هذه الرسائل؟

نهض من مكانه وقام بترتيب جميع الكتب في صناديق, لكنَّه احتفظ بصندوق واحد وضع فيه بضعةَ كتبٍ تمويهية عمّا يُخفيه من تلك الرسالة وكتاب هرتزل, فوضعهن بين الصفحات كيلا تظهر أبداً, وفي اليوم التالي أعطى تلك الصناديق لبلال مقترحاً عليه أن يقوم باستخدامها لتعليم الصغار, تعجّب بلال من خطوته فهو لم يتوقّعها أبداً, وتعجّب أيضاً من معرفته بأنه يعلّم الصغار, فامتلكه القلق وحاول أن يفهم منه ذلك قائلاً: "كيف خطرَ لك أنّي أقوم بتعليمهم؟".

قال إيليا: لديك لسانٌ حَذِقٌ يا بلال، لكنَّك لست كذلك في عقلك، فأنت تتفوّه طوال الوقت بسخرياتٍ ثقافيّةٍ، وتظنُّ أنَّ ذلك يعطيك غموضاً فريداً من نوعه.. سأقولُ لك.. إذا كَثُرَ كلام المرء ولو كان مفيداً فقدَ الكلامُ وزنَهُ.

– حسناً أيّها الذكيّ! أتظنّ أنَّ قدومك هنا وعدم إجابتك عن الأسئلة الشخصية جعل منك شخصاً غامضاً؟ أنتَ يا بُنيّ تُثير الريبة والشكوك حولك، وبذلك تعرّضُ نفسك للخطر

أعطاه إيليا الكتب بجلافة لكن ليس بسبب كلامه, بل لأنَّه لم يُحبّذ التحدث بالمزيد، وتلك كانت طبيعته.

شكره بلال قائلاً: إنَّه رزقٌ سقط إليهم من السماء!

– لا تقلق إنَّه ليس فعلَ خيرٍ

ضحك بلال قائلاً: أعلمُ ذلك, لا أظنُّ أنَّ رجلاً مثلك قد يهتمّ بالأدب العربي أو يفهمه على أية حال.

لم يتضايق إيليا من تلك الصراحة, بل على العكس, وجد في لسانه الصريح ثقةً للتعامل معه, وعلم أيضاً أنَّ بلالاً يُساند الجماعات القومية, لكنَّ بلالاً بدوره لم يجد خوفاً من مصادقته,

بدل ذلك وجد رفيقاً يساعده عندما يكون في أمس الحاجة إليه, لكنَّ إيليا كان يخون أوامر رائده عن عدم مراقبته والإبلاغ عنه, فهو لم يَجِدْ فيه شيئاً خاطئاً، غير أنَّه مهتم بإنهاض قريته من الجهل وإنشاء جيل طموح, ولو كان شيئاً آخر لما أبلغ عنه كذلك, فهو إلى تلك اللحظة لم يجد فيه شيئاً سيئاً، بل كان قد بدأ يحبُّ رفقته والاستماع إليه، حتى وإن بدا لبلال عكس ذلك.

كان شغموم يُبهر الصغار بخدعه, أخذ مجموعة من أوراق اللعب (الكوتشينة)، وكان يطلب من أحدهم أن يختار كرتاً عشوائياً، ثم يخلط الكروت ويُخرج بسحره الكرت الذي اختاره أحد الصغار, فينبهرون ويتحدونه للمزيد، لكنّه في كلّ مرّةٍ كان يعلم الجواب بموهبته, أو هكذا كما ظهر لهم.

قاطعهم بلال وقال: دوري للعب

ضحك شغموم وقال: اسحبْ كرتاً عشوائياً

سحب بلال كرتاً وهو يتصرف بحذر، فسقطت عن الطاولة بقية الكروت المصفوفة, ولكيلا يسرقهم الصغار قام شغموم بتجميعهن بمساعدة من بلال.

قال بلال: هيّا فلنُكمل اللعب

نظر شغموم بثقة إلى أوراقه، لكن سرعان ما ذبلت تعابير وجهه, بحث بين مجموعة كروت اللعب مراراً وتكراراً ولم يجد الكرت الذي اختاره بلال.

قال بلال: أنت تُبقي جميع أوراق اللعب على نفس الاتجاه، فإذا اختار شخصٌ كرتاً ما لا تنظر في داخله، لكن ضَعْه بطريقةٍ عكسيّةٍ، ممّا يجعل اكتشافه سهلاً، وأظنُّ أنّك لم تضمن الملك والملكة والشابّ، دَعْني أرَ.

قال شغموم مدافعاً عن نفسه: خدعة للصغار فقط

– هل تنضمّ إليَّ للعب النرد؟

– إذا لعبتَ بشرفٍ

جلسا داخل الخيمة، نهض شغموم وقال: "سأُحضِر الشاي"، ثم أردف قائلاً: "أراك اليوم من غير رفاقك".

– كلٌّ مشغولٌ في طريقه.

وضع شغموم الشاي أمامهما وبدأا باللعب, كان بلال كغير عادته, فلا يهزأ كثيراً ولا يسخر، قال شغموم: "لقد فوّت حركةً!"

– سأربح الجولة التالية

– لكنَّك لم تفوّتْ حركةً من قبل

– حظّ عاثر على ما أعتقد

رمى شغموم النرد، ثم قال المثل العربيّ: "إذا لم يُحالفك الحظ فلن يسعك اللحاقُ به ولو كنت على ظهر جواد".

– ماذا لو تعثرتُ بالحظ؟

رمقه شغموم بنظرة أنَّه لم يفهم ذلك, فأردف بلال قائلاً: "مثل أن تلعن الأرق في منتصف الليل إلى أن تصل للملل، وتقرّر النهوض فتنجز شيئاً مفيداً".

– اقرأ ما بين سطورك, ما المشكلة؟

– إنَّي أبحث عن رجل كي أستردَّ منه حقّي

– أخبرني بالأمر، بينما أنهض لأعيد ملء الشاي

– إنَّه جندي غريب, تارة تظنّه تركي وتارة أخرى ترى ملامحَ أجنبيّةً في وجهه، لكنَّ عقله عربي، ولديه صفات عربية أصيلة.

رفع شغموم حاجبيه وقال وهو ملتفت ليملأ الشاي: "هل له اسم؟"

– لا أدري عن اسمه، لكنّي لاحظتُ جندياً يدعوه بشيء كَـ(ليليا أو ميليا)

سقط الإبريق من يد شغموم، وانسكب الشاي على الأرض الترابية جاعلاً من حرارته تنطفئ ومكوناً بقعة طينية، قال: "هل تقصد إيليا؟"

– أجل أظنّ ذلك

هدأ شغموم ولم يتكلّم كثيراً, لاحظ بلال أنّه يعرف شيئاً

– ما خطبك يا شغموم؟

هُرِعَ شغموم وجلس بجانب بلال، وقال: عليك أن تراقبه من أجلي ثم تستدرجه إلى هنا.

– ولِمَ تظنُّ أنّي سأقبل بذلك؟

– كنتُ على علم بوالده

– ما هو أصله؟

– عربيّ, لم يتكلّم عن أصله قطّ إلّا أنَّه عربيّ

– حسناً, ما الذي حصل بينك وبين والده؟

جلس شغموم وسكب المزيد من الشاي, ثم بدأ يعود بذكرياته "إلياس, ذلك الرجل الحقير! هل سمعتَ بالجمعية العلمية السورية من قبل؟"

– لا أظنّ ذلك

– كانت جمعية فكرية عربية، أُنشئت في بيروت في عهد العثمانيين عام 1847 وكانت من العوامل الدافعة باتجاه النهضة العربية، وصل عدد أعضائها إلى 150 عضواً.

– هل كنتما من تلك الجمعية؟

– أجل, وقد أُوقفت أعمالها من عام 1852 بسبب حوادث 1860 في دمشق وجبل لبنان.

بدأ بلال يتذكر حوادث دمشق وجبل لبنان

– تعني عندما جعل هذا النظامُ جبلَ لبنان منفصلاً من الناحية الإدارية عن باقي بلاد الشام، تحت حكم متصرف أجنبي مسيحي، غير تركي وغير لبناني تُعيّنه الدولة العثمانية بموافقة الدول الأوروبية...

قاطعه شغموم بملل: أجل هو ذاك.. لقد غدر بي إلياس وكاد يُسلّمني إلى السلطات

– ولِمَ أراد أن يفعل ذلك؟

– كان جاسوساً محبّاً للغرب وللأتراك, ألم تدرِ أنَّ زوجته كانت من أصل فرنسي؟

– تعني والدة إيليا؟ كلّا لم أعلم بذلك

– هي كذلك, وقد هرب معها حاملة في بطنها عار عائلتها بأكمله, لكنَّ القصة تكرّر نفسها فوالدة إلياس هي تركية, أي جدة إيليا, وألحقت العار هي أيضاً

– إذن إيليا..

– لم يكن ابناً شرعيّاً

– والآن ما الذي تريده من ذلك الشاب؟

– أريد أن أعرف مكان والده, كي أسترجع منه حقّي

– ولم تظنّ أنَّي سأفعل ذلك؟ فلتصلح مشاكلك بنفسك أيها العجوز.

نهض بلال وهو يهمّ بالمغادرة ثم بدأ شغموم مسرعاً بالبحث بين أغراضه، كان ما وجده عبارة عن ورقة نقدية, سلّمها لبلال وقال: "هذه العملة التي أصدرها أنور باشا كي يسلبَ الناسَ من محاصيلهم ومواشيهم, ستمرّ أسراب الجراد ومع الضرائب المستحيلة والباهظة التي سَتُطالَبُ بهذه العملة ستسودُ مجاعةٌ في بلاد الشام كلّها".

أردف شغموم: "نعم أنا أعرف الكثير وأعلم ما سَتُخطّطونه في النهاية، لكن ينقصكم المزيد من الناس, فهل ستخاطرُ بمجاعة الآلاف من أجل رجل واحد".

– لكنّي لا أعرف إقامته ولا أعرف عنه شيئاً

– ابحث عن مزرعة خليل, إنّها مزرعة عمّه، بالتأكيد ستجده هناك

– لكنَّ الأمرَ متناقض, فهو جندي ويعود لأصولٍ عربيّة؟

– بل هو منافق، وفي النهاية سيسلب هو محاصيلَ عمّه وكلّ أرزاقه.

(11)

كان خليل يحصد ثمارَ زرعِهِ مع أحفاده, ويعملُ على حماية باقي المزروعات من برد الشتاء, سمع صوت حركة بين الأعشاب, فمضى متتبعاً الصوتَ حتى وصل إلى الجزءِ الخلفي من مزرعته المثمرة, جلس على ركبتيه وهو يلتمس الأرضَ بحذرٍ, ففتحت ربتاته فجوة صغيرة في الأرض, أنزل رأسه ليرى بوضوح, فهرب من ناظريه جرذٌ اختبأ في عمق جحره تحت الأرض.

قاطعه صوت ابنته: كنا نبحث عنك

– ما الأمر؟

– لقد وصل إيليا

– هل استدعاه أخوك برسالتي؟

– كما طلبتَ تماماً

أخذه وهو يبلغ العاشرة من العمر عندما قررت والدته الانتحار, كان يوماً عصيباً مليئاً بالشتائم النابية التي لا يجدرُ من طفلٍ في بدايات حياته أن يسمعَها من والده, كان (إلياسُ) يشبّه زوجته (إستيرا) بالمُومس دائماً, ويشرح ما يجب أن تكون؛ لأنَّها ليست على الدِّين الصحيح, لكنَّه قَبِلَ بها مُتمردةً عندما كان يعمل حارساً لبيت ذويها الأثرياء, فهربت في عربة وعوده، وحملت بإيليا قبل أن تطلبه للزواج, عَلِمَتْ عن جنينها بعد أكثر من شهر من وجوده, وفات الأوان على أن تحميه وتخلّصه من دنيا يُدعى فيها بلقيط, فتديّن إلياس بتعصّب وقام بأذيتها كلما سنحت له الفرصة, وكره إيليا وحاول أذيَّتَه, كانت إستيرا تمنعه من الاقتراب منه, وما زال إيليا يذكر كلّ ما تلقّته والدته من الضرب والشتائم حتى حقد على والده، وأصبح لا يعبأ بمذهبه.

قام خليل بتربية إيليا مع أربعةِ أولاد وثلاثِ فتيات, وعندما وصل إلى سنّ الرشد بنى له بيتاً بسيطاً في مزرعته, فضّل إيليا أن يكون شجرةً نبتت من نوعٍ واحد, لم يمتلك أيَّ انتماء لجذوره المختلطة, ارتوى على حبّ عمّه وعائلته، ولم يَخْتَرْ لجذوره أيَّ ميول, لكنّه أخلص لواجبه وأحبَّ كونه جندياً, وكانت تلك المرة الأولى التي يفعل فيها شيئاً لا يتوافق مع عمّه.

درس الصيدلة في جامعة إسطنبول, جعله هذا مُلمّاً بما يحتاج لمعرفته عن اختلاف الحضارات, كان يقضي بعض الليالي يسهرُ معهم بلعب الشطرنج مع أفراد منفصلين, لكن في كلِّ مرةٍ كان ذلك يبني المزيدَ من الفراغ إليه, فقد أحبَّهم وعاشرهم, وقام بخيانتهم بالعودة إلى نصف أصله ثم بالعودة إليهم.

قضى نهاية كلّ أسبوع في كوخه في مزرعة عمّه, أما باقي الأيام فكان يعود لخيمته ويقرأ ما لديه من كتب إنجليزية وفرنسية, فقد استفاد من دراسته في الجامعة، وتعلّم كلَّ ما حصل عليه بين يديه, لكنَّه كره أنَّه غادر طريق عائلة جدّته التركية, كانوا مُجبرين على ذلك لشعورهم بالذنب بعد موتها, فقد طلبت والدته المساعدةَ من ذوي إلياس بعد أن رفضتها عائلتها, لكنَّ بعض أفراد العائلة رفضوا تلك الفكرة, فهم من عائلةٍ ذاتِ مقامٍ رفيعٍ, ولم يعترفوا قطّ بوجود إستيرا، وتخلّوا عنها لحظة هروبها مع إياس.

كانوا في رحلة إلى القاهرة لزيارة بعض الأصدقاء في القصر, وقد وجدت إستيرا إلياس عاملاً لديهم كجندي حارس, فأسمعها ألذَّ ما عرف من الكلام العربي، وكذّب في بعض الأبيات، حيث قال إنَّها من تأليفه, أمّا هي فقد أجادت وعائلتها اللغة العربية بما يكفي أن تعيش بجانب رجل عربي, لم يكن يسهل في البداية إغواؤها، لكن الأفعى التي استكنَّتْ بدل لسانه قد نطقت بتلك السموم التي غذّت تمرّدها, وسرعان ما هربت برفقته في فجر أحد الأيام، وتخلّت عنها عائلتها, كما تخلّت هي عنهم.

لم يُحبّوا إيليا يوماً, سافر إليهم وهو في عمر السادسة عشرة، وكان لا يجيد القراءة والكتابة, لا في اللغة التركية ولا العربية, فقاموا بتعليمه التركية وأعطوه دروساً مكثفةً فتخرّج من الجامعة في عمر الخامسة والعشرين، وعاد إلى عائلة عمّه, كان ذلك أول شعور راحة دخل باله منذ تسع سنوات, فقد كان دائم الشجار مع أقاربه, وبعد سفره إلى إسطنبول بعامٍ حاولَ التمرّد والهروب من ذلك المكان الذي كرهه بسببهم, فأمسكوا به أكثر من مرة، وقاموا بضربه ضرباً مبرحاً, وفي آخر المطاف يأسوا منه, فكان يضع الحشيش على سريره ويقوم بحرقه, لكنّهم لم يعلموا أنّه لم ينفث منه أبداً, أما هو فقد فعل ذلك لإثارة غيظهم إلى أن رحل عنهم بإصراره, وقد امتلك صديقاً مخلصاً، اعتاد معه على قراءة الكتب ولعب الشطرنج, فنشأ على روايات شكسبير والأدب الروسي والقوطي, جعلت القراءة منه رجلاً هادئاً ومستقلاً، لا يخسر قبضة يده عند الغضب.

بعد الغداء جلس خليل وحده على الشرفة وهو ينتظر قدوم إيليا, نظر إلى مزرعته الكبيرة وشعر بخير تلك الحياة حتى لو لم تكن كذلك في الخارج, وآمن أنَّ المرء يجدر به أن يعيش كما يريد تماماً من دون أن يقارن حياته بتلك الموحشة الخارجية, فقد عاش حياة هادئة لم تتعرّض قطّ إلى ظلم حُكم, لكنَّ الحقيقة أنَّه امتلك إيليا كحارسه الملائكي دون أن يعلم ذلك أبداً.

تكلّما قليلاً حتى وصل خليل إلى ما أراد قوله

– لم تتكلّم يوماً عن رغبتك برؤية والدك

– لم يخطرْ لي ذلك

– لقد قابلته في الآونة الأخيرة

نظر إيليا إليه بتساؤل

فقال موضّحاً: قابلته صدفة.. أو كان كذلك على ما أظنّ

– أنت أخوه وليس عليك أن تشرحَ لي الأمر

– وأنت ابنه وقد طلب معرفة أخبارك

– طمئنه كما تريد

– وماذا عنك؟

نفث إيليا من سيجارتِهِ كأنَّه يُلقي بكراهيته

– أنا بخير، الأمور كما هي

– لا تقلْ هذا يا بُنيّ، فلا يوجد من ينسى أفراد عائلته

– يذكر المرء ما خسر عند الكبر, أمّا حياته فتضيع هباءً إلى أن يصل لتلك المرحلة

– وبعضهم لا يصل إليها أبداً

– ما الذي أراده؟

– لقد طلب رؤيتك

– أرى الشفقة في نبرتك

– حقدُ القلبِ يا بُنيّ لا يعيش أبداً

– وبعضُ الأمور لا تعود إلى سابق عهدها, ربما هو تغيّر، وربما لم يحصل ذلك, على أيّ حال تلك حياته وأدعو له بالأفضل.

– طالما كنتَ فخراً لي، لكن فكّرتُ في وجوب علمك بالأمر

– أيّ أمر؟

انحنى العجوز خليل إلى الأمام قليلاً ثم قال: "إنّه يحتضر"

رأى إيليا أنَّ العجوز مُصرٌّ على ذهابه, فقال لينتهيَ من ذلك النقاش: "حسناً سأخصّص وقتاً لذلك".

– هل تعدني؟

أومأ برأسه موافقاً عن غير قناعة

– أجل

بعد تلك السنوات اجتازه شعورٌ مختلفٌ تجاه والده, جاءه شعور الشفقة كإنسان, وقد استخفّ بحياة البشر التي تمضي وراء سوء النفس والشهوات، وفي آخر المطاف يصبح الشيء الصحيح هو الأهم, أمّا تلك المتعة فَتُلقى بعيداً في جحيم الندم الذي يتسرّب منه حجم الخسارات البسيطة، التي لو بقيت لأعطت الحياةَ لذةَ للبقاء, ففي الماضي كان خليل وإلياس سعيدين بطريقة متناقضة, لكنَّ الفرق أنَّ قمة السعادة تأتي مع الجهد وتحقيق الحلم بالقناعة, هذا ما جعل عمّه خليلاً يصل إلى ما هو عليه, أمّا والده إلياس فكان يطلب المزيد, فحمل المال وتزوّج مرة ثانية ناسياً ما فعله بزوجته إستيرا، وكان والداً لعائلة ثانية لم ترَ منه إلا قدوةً فاسدةً, والتعصّب في الدين مجرد غطاء لمحاولة إصلاح صورته أمام الناس فقط, وفي داخله كان ما يزال الرجل ذاته.

قال خليل: سأرتب الأمر بعد عدة أيام

– أين سأراه؟

– لدى صديقه الذي رتّب معي حضورك

– من هو؟

– الظاهر شغموم

في اليوم الموعود, مشى الظاهر شغموم وهو يريد الوصول إلى خيمته في أعلى التل, كان المكان ممتلئاً بالناس, فهم يلتقون في المواسم من أجل التجارة وتبادل بضاعتهم, كانت عينا

شغموم ثاقبةً, بدا أنَّه شخص عابر لا يراقب من حوله, لكنّه واعٍ على كلّ تفصيلٍ يجري أمامه, وأثناء تفكيره وعبوره ارتطم بتاجرٍ بغير قصد, فتألّم كتفُ التاجر من قوة الارتطام, عقد حاجبيه ووضع يده على كتفه، فقال شغموم وهو يتألّم أيضاً: "سامِحْني, سامِحْني لقد تهتُ وأنا أفكّر في إرهاقي، اللعنة إنَّ خيمتي في أعلى التلّ المُتعب".

– لا بأس أيُّها الشيخ المبارك دَعْني أساعدْكَ للوصول إلى خيمتك.

قال شغموم ممازحاً: كلا سأبدو كالعجوز ولا ينفع إظهار الوهن.

– كما تشاء

ساعده التاجر قليلاً وهو يُنهضه من يده، ثم مضى شغموم إلى خيمته, نظر خلفه إلى الناس الطيّبين، ثم أكمل الطريق التي جعلت أقدامه كأنّها أحجارٌ ثقيلة, وعندما وصل إلى الخيمة رأى حمزة يقف هناك في انتظاره, لم يلتقيا من قبلُ, لكنَّ شغموم لاحظه في أحد الأيام برفقة بلال.

قال شغموم: أهلاً أيّها الرفيق.

ردّ حمزة: هل سترحّب بي أيها المبارك؟

– اعذرني لكنّي الآن أنتظرُ زائراً

– من هو هذا الزائر؟

نظر إليه شغموم بحدة وقال: ما حاجتك أنت؟

– لقد قلقتُ عليك، هل يدك بخير بعد ذلك الارتطام؟

تحوّلت نظرات شغموم من حِدّةٍ إلى قلق، قال وهو يتمتم: "نعم.. شكراً لك".

ضحك حمزة قائلاً: تلك كانت حيلة قديمة, ذكية باعترافي, ترتطمُ بتاجر أو برجل تضمن أنَّ في جيبه المال، فتؤلم كتفه لئلّا ينتبه إلى يدك وهي تدخل في جيبه.

ابتسم شغموم بتوتر وقال: لا أدري من أنت، لكنّك على ما يبدو مخطئ بيني وبين شخص آخر.

– بل أعلم من أنت تماماً يا شغموم.

مشى حمزة حوله وهو يحاول إثارة توتره قائلاً: "يبدو أنّك تعرف الكثير لكنّك سهوت عن لغة الجسد التي تقول إنَّ يديك المتشابكتين تظهران توتراً وتوسّعاً في حدقة عينيك، كيف ستكون المفاجأة عندما يغضب التاجر، ويقوم بتفقّد جيوبه ويتذكّر ارتطامه بك, ويا لتلك الصدفة عندما يكون في جيبك نفس المبلغ أيضاً".

بلع شغموم ريقه وقال: ماذا تريد؟

وقف حمزة أمامه وقال: إذن لديك اهتمام.

ابتسم شغموم بجبنٍ وقال: أنا أهتمُّ بمساعدة الناس صدّق أو لا تصدّق.

– هراء!

– سأساعدك يا بُنيّ فقط لأنّ الله يريد ذلك.

– توقّفْ عن تفاهتك

– ماذا تريد يا بني؟ مُرْني

رفع حمزة بيده مشيراً له بالتوقّف عن الكلام

– صفقة

– صفقة ماذا؟

– أريد الجندي شكري علي بك جثةً هامدةً

كان ذلك الجندي الذي هدّده وعائلته, وقد فكّر حمزة مليّاً في حلٍّ مناسبٍ ولم يجد غير ذلك.

– ولِمَ تظنُّ أنَّ عجوزاً مثلي لديه المقدرة على ذلك؟

– أنتَ الساحر! أليس كذلك؟ لا تحقد أيّها العجوز، اعتبر هذه فرصةَ انتقام الدنيا من احتيالك على الناس.

– فرصة بجريمة؟!

– أجل, وتفقّدْ خيمتك يبدو أنّك لا تُخفي أمورك جيداً

التفت حمزة للمغادرة ثم أوقفه شغموم قائلاً: أين سأجده؟

– سيكون مراقباً الليلةَ بين الخيام في تلّ السير, ستجده هناك عند العاشرة

نظر شغموم من بعيد ولاحظ قدوم إيليا فقال: لقد وصل ضيفي هيّا ارحل.

نظر حمزة إلى إيليا وقال: تستقبلُ جندياً؟ يا لك من ماكر.

دخل شغموم إلى الخيمة وهو يتمتم: "اللعنة! اللعنة"، ثم رفع رأسه وقد خطرت له فكرة جديدة, عصفوران بحجر واحد, أجل لن تنتقم الدنيا, ما حاجتها للانتقام وهي تعادل بين الخير والشرّ, كلّا لن يفعل شغموم المهمة, كان عليه أن يفكّر أعمق من ذلك, ونجح تماماً في تصرّفه

"أيها الظاهر شغموم"، قال إيليا وهو يقف في الخارج

رحّب به شغموم بحرارة: "إيليا! أيها الشاب الرائع ادخل إلى هنا".

كانت نظرة إيليا مخيفة أكثرَ ممّا توقّع, فقد بادل مصافحته ببرود، وأحنى طرف فمه دون أن يبتسم, جلسا حول الطاولة ثم أشعل إيليا سيجاراً وألقى بعلبة الكبريت أمامه دون اكتراث, كان شغموم يتفحص حركاته ويتجنّب نظراته في نفس الوقت, فقد بدا أنَّ إيليا جاء من أجل مهمة وليس من أجل التحدّث في أمور شخصية.

– لا أريد أن أُهدرَ وقتك، فلنتكلّم عن والدي

– أجل فهو يرغب في رؤيتك

– إذن يا شغموم, من الذي جعلك وسيطاً بيننا؟

– عمّك بالطبع، يا له من رجل صالح!!

همهمَ إيليا بصوته الأجشّ وشعر شغموم أنَّ حيواناً مفترساً يجلس أمامه

قال إيليا: لكنَّ عمّي لم يخترك تماماً, فقد صادف أن قال إنَّك تعلمُ عن مكان والدي.

– ذلك لأنّي أعرفُ والدك بشكلٍ شخصيّ, لم نكن أصدقاء بالفعل، كنّا مجرد زميلين عندما تمّ تجنيدنا قسراً.

كان إيليا ثابتاً في جلسته, ينظر إلى من يجلس أمامه بثقةٍ تُثيرُ الخوف, لا تظهرُ له ابتسامة ولا يتحدّث بشيء فارغ, كلّ ما يرغب فيه هو نتائج الكلام فقط, وقد كان يُطيلُ النظرَ بطريقةٍ مخيفةٍ بعينيه الخضراوتين، ويرفع سيجارته بجانب رأسه وهو يتكأ بكوعه على طرف المقعد.

– كيف تعرّفتما؟

– رأيتُهُ وهو يسرق التبغ من مكان عملنا، وعندما لم أبلّغ عنه أراد التعرّف عليّ.

ضحك شغموم وأكمل: حسناً... الحقيقة أنّني أردتُ التبغ أنا أيضاً، وقد عملنا سوياً بطريقة رائعة.

– والآن رتّبت اللقاء بأكمله؟

– أجل لقد رتّبت الأمرَ كلَّه

– أين سيكون اللقاء؟

– في تلّ السير عند الساعة الحادية عشرة

نهض إيليا وقال: أشكرك

– اشكرْني بعد أن تصلح أموركما يا بُنيّ

خرج إيليا وبقي شغموم مكانَه، وفكّر كم إيليا أحمق, غامرته السعادة ثم نبشَ بين أغراضه حتى وجد ما يريد, كان بيده خَنْجَرٌ, نظر إليه كأنّه ينظر إلى كنز، وقال: "الساحر يسيطر على العقول والأحمق من ينظر إلى حركة اليدين".

(12)

عند تعسُّرِ الحياة يوجد دائماً خياران، إمّا أن تغرق في ظلام أفكارك، أو تُهلك جسدك في العمل، بدت جميع الأمور مترابطةً بطريقةٍ ما, كأنَّ المكان قد فهم الغبطة والحزن, وكأنَّ الجماد والنبات والحيوان يتكلّمون عن أحداث حياة البشر الخاسرة, فلم تَعُدِ الحقول تُنبت, وتستسلم في أوج نموها، فتصفرُّ وتيبس إلى أن تسقط, وأجد ما تمسكه يداي يخرب, والماشية تتوقف عن الطعام وتموت ببطء, والذي يصمد منها ينظر إليَّ معاتباً, وكأنَّ جميع الأشياء تسقط متعمدة لتجنّب أحداثِ حربٍ لم تحصل بعد, أمّا أنا فعملت وحدي من أجل مزرعة مخضرّة، ولا أدري إلى أين ستنتهي، وكلّ شيء يبدو هالكاً, هذا إن بقي سببٌ للمقاومة من أجل حياة أفضل.

كانت أخيلة وزوجة أخي أدهم سلمى تخرجان أحياناً، إلا أنّهما سرعان ما تعودان للجلوس مع والدتي التي تكاد ترى ضوء الشمس, فالمرء يجدُ راحته بطرق مختلفة, أمّا أنا فقد وجدتها في التعب الجسدي, لم أحتمل نفسي لو استسلمتُ لمخالب أفكاري, فأحياناً كان عقلي صديقي المقرّب، وأحياناً أخرى صديقي المنافق فيودي بي إلى الهاوية، ويقنعني بكلّ ما هو مظلم وسيئ.

تحت الغيوم الباردة ولون الجوّ الرمادي، كنت أنتزع الحقول الميّتة, كان ثوبي ممتلئاً بالطين، ووجهي كذلك, أما شعري فقد امتلأ بالتراب الجاف حتى قمتُ بفرده فأصبح يعمل بجانبي ويغرق في الحقول بسبب طوله, كانت تلك متعتي, أن أعود إلى الفراش بألم في ظهري وأستيقظُ مجدداً في منتصف الليل من أجل عمل آخر, في البداية كنت أخاف الاستيقاظ في تلك الساعة المظلمة, فأتخيّل أحد الجنود يقفز عن إحدى الأسوار ويقوم بأذيّتي, لكن في كلّ مرة بدأ يتلاشى ذلك الخوف, وقد أعرتُ قلقي لأمورٍ أهمَّ من ذلك, فوجَّهت خوفي وقلقي إلى الأمام بدل الاستسلام للتوهّم.

كانت زهور (البانسي) مرتبة بألوانها المختلفة, إلا أنّه عند النظر إليها من بعد كانت تبدو كأفراد غاضبين, كثيراً ما كنتُ أبتسم على ذلك, حتى وضعتُ بينها (الأقحوان) الأبيض كي

يُلطّفَ من حدتها, دائماً كنتُ أفضّل زهور فصل الشتاء, فهي تُعطي منظراً دافئاً في جَوٍّ شاحب, إلّا أذا أردتُ اختيار باقة زهور من كلّ فصلٍ, فسأختلس (الزنبق) من الربيع, وزهرة (الأقحوان) من الصيف, وزهرة (الأضاليا) من الخريف, فالمرء يأخذ أجزاءً من كلّ عامٍ, إما تكن باقةً مزدهرةً أو مجردَ مجموعةٍ ميّتةٍ, وفي ذلك العام وجدتُ الذبول في زوجة أخي سلمى.

على غير عادتها جاءت بعد العصر وجلست ناحيتي, لم تبدُ بخيرٍ, وكانت تسعل مع كلّ خطوةٍ تقترب بها, كانت تنظر حولها وتلاحظ كيف كنت أقضي وقتي, كلُّ شيءٍ في عينها بدا مختلفاً, لونه أوضح وجماله في تفاهته, تلك لحظة من اثنتين: إما الاختفاء أو التفاؤل, لكنَّ الغيوم أومأت لتتماسك فوق سلمى بخيبة أمل, وكان صوت عصفور النقّار والغراب من بعيد يُنهيان الصمت بطريقة متشائمة.

أمسكتُ بيدها المتعرقة والباردة وقلت: تبدين متعبةً.

– من الطبيعي الشعورُ بالمرضِ في هذا الموسمِ البارد

– هيّا سأساعدك على العودة إلى الدفء

– لا

جلست سلمى على حافة أحد الأحواض ونظرت حولها, وضعتُ يدي على رأسها فوجدته لاسعاً.

– ماذا جرى لكِ يا عزيزتي؟

– شعرتُ بالاختناق وأردتُ الخروج قليلاً

سعلت مرةً أخرى وهي تضع قطعة قماش على فمها، وفي هذه المرة تلطخت قطعة القماش بدمٍ متناثرٍ، كانت تتكلّم بعبء, وتلهث إن قالت المزيد, أرادت منّي أن ألاحظَها, وأرادت أن تعتمد عليَّ في حال وقع لها مكروه, وقد نجحتُ في ذلك, ففهمت مقصدها وأخذت بيدها وعاونتها على النهوض, ثم أدخلتها إلى حُجرتها وساعدتها في الاستلقاء على السرير, أردتُ الذهابَ لكنَّها أمسكت بيدي، وقالت: "لا أشعرُ أنّي على ما يرام".

– خذي قسطاً من الراحة ولا تقلقي حيالَ شيء الآن

علمتُ أنَّه لن يوجد حَلٌّ لمعضلتها, فقد وضع مرض السلّ مخالبه في دمائها, كانت تحاول إظهار جرأة, وربما قوة, لكنَّ الخوفَ سكن عينيها وصوتها.

– لا أحد يدري متى تأتي النهاية, علّمي أطفالي يا جودى عن البقاء, ولا تبخلي عليهم بتعليمهم عن قوتك

ابتسمتُ لها ببراءة كي أعطيَها الثقة، فلا تنجح المجاملة ولا توجد قوة أفضل من النظرة المطمئنة, قد لا تستطيع أن تضعَ يدك بيدِ مَنْ تحبّ طوال الوقت، لكن يمكنك لمس روحهم, وبمجرد تفكيرهم بوجودك تجعلهم بخير , أمّا أنت فلتذهب إلى الهاوية, هذه ليست لحظتك المأساوية، ولا يوجد وقت لألمك, ولا تجرّ برفقتك مَنْ يشعر بالوهن, فأنتَ مصدرُ القوة الآن، أنتَ الصخرة المتشققة التي يخرج منها البركان ولن تنهار أو تستسلم إلا للموت، أعطِ لمن حولك الثقة, أمّا روحك فستوافيها المنيّة لاحقاً وأنت تتعذّب على قيد الحياة، ذلك ما كان صديقي المنافق يقوله في رأسه.

تركتها لترتاحَ قليلاً, وجدتُ والدتي أنيقة وتحضّر الغداء

– جودى عزيزتي

التفتتْ إليها ثم اقتربتْ منّي وقالت: "لقد ملأكِ الطينُ يا صغيرتي"، نفضت عن شعري الغبار، وأردفت: "اذهبي لتستحمي يجب أن نتناول الغداء".

ذهبت لتكملَ تحضيرها، لكنها لم تتوقّف عن التحدّث إليّ: هل رأيتِ سلمى؟ تلك التافهة تُريد أن تفعل كما فعل والدك, لكنّي على يقينٍ أنَّهما سيندمان, أما اليوم فهو عقابٌ لوالدك، لن أضع له طبقاً ليتناول الطعامَ مَعَنا.

لقد لاحظت والدتي كذلك, لكنَّ تلك كانت ردّة فعلها في طريقتها غير الطبيعية، طلبت منّي بعد ذلك أن أخرجَ وأجمعَ بعضَ الخضارِ التي كانت في حالةٍ ميؤوسٍ منها, فقد كان معظمها غير مكتمل النمو وجافّاً، وكان أغلبها ساقطاً على الأرض, طاوعتُ أمرَها وخرجتُ في ذلك الجوّ البارد الضبابيّ، شعرتُ بالهواء يلفح رقبتي وشعري المبتلّ, سبّب لي ذلك ألماً حادّاً في الرأس مع طنين في أذني, لذلك وُجِبَ عليَّ العودة في أسرع وقت ممكن, انحنيتُ كي أخرج

الجَزَرَ من الأرضِ، لكن سرعان ما نهضتُ حينما لمحتُ رجلاً يقف بعيداً في الضباب, في البداية ظننتُ أنَّه وهم, فانحنيتُ مجدداً ولمحته في تلك المرة بطرفِ عيني مجدداً, نظرتُ مسرعة ولم أجده المرة الثانية, خطر لي أنّهم أشخاص يعبثون, فلدى آزر الكثير من الأعداء وربما جاء أحدهم للانتقام, لكن لم يكن ذلك تفسيراً منطقياً, فكلُّ ما لمحته اختفى, شعرتُ بالخوف، وزاد الألم في رأسي، ثم احمرّ وجهي وارتجفتُ قليلاً, لكنّي طاوعت قدميَّ على التقدّم قليلاً ببطء.

– مرحباً

شعرتُ كالبلهاء وشعرتُ أنّي أكلّم نفسي, نظرتُ مجدداً إلى المكان الباهت، فلمحت رجلاً يتقدّم ويظهر من بين الضباب, أردتُ الركض إلى الوراء والعودة، لكنَّ قدميَّ أبتا ذلك, فتقدّمت إلى الأمام ببطءٍ وأنا أحمل سلة الخضار حتى أصبحت رؤيتي مشوشة, أخفى الضبابُ كلَّ شيءٍ من حولي, لكنّي اطمأننت قليلاً عندما غيّر اتجاهه, لكنَّه أصبح داخل المزرعة, وبذلك اخترق المكان, وقف قليلاً ثم التفت ورآني, لم أستطعْ تمييزَ وجهه لكنّي خطوت خطوة إلى الوراء, أما هو فقد اقترب مسرعاً حتى حظيت برؤيته, لم أَكَدْ أصدّق عينيَّ وكاد قلبي أن يتوقف.

نظرتُ فكان الرجل الذي يقف هو والدي, رأيتُه يقف بعيداً ويبدو كالسّراب, هربت عائدة إلى المنزل وأغلقت الباب بقوة خلفي, رآني الجميع والرعب يبدو على وجهي، فسألني آزر عمّا يحصل، فقلتُ له: "أظنُّ أنّي رأيتُ شيئاً في الخارج".

– ما هو ذلك الشيء

لم أستطع أن أبدوَ كوالدتي وأقلْ إنَّه والدي, فقد حصل ذلك في السابق, عندما بقيت في الفراش غيرَ قادرةٍ على البكاء رأيتُ خيالَهُ على النافذة وقد أرعبني ذلك, فاكتفيتُ قائلة: "رجل... لقد رأيت رجلاً".

– حسناً لا تقلقي

خرج آزر لتفقّد الأمر, فقالت والدتي: "ربما كان والدك لكنّي قلت إنَّي لن أدعه يتناول الغداء..."، قلت لها ما أردته دوماً, في تلك اللحظة تملّكني الخوف والغضب والمزيد من الكراهية لمرضها، فقلت لها بحدةٍ: "لقد مات والدي ولن يعودَ، فالأرواح هي مِلكٌ لله".

شهقت أخيلة وكأنّها علمت عن موته للمرة الأولى, أمّا أنا فغادرت إلى غرفتي وأغلقت البابَ خلفي, وضعتُ غطاءَ السرير حولي ولم أشعر من قبل بخوف كهذا.

(13)

"يُقاس الفوزُ على عدد الخسارات, وقطعِ الإحباطاتِ التي تجمّعت وإعادة ترميم النفس من أجل تلك اللحظة المثالية".

أذّن شغموم للناس أذان صلاة الظهر, فذهب الجميع إلى المسجد حيث أقام الصلاة، وقف بلال في الخارج ينظر إلى المسجد والحشود التي فضّلت الصلاة في هذا المسجد عن غيره, شغموم هو المبارك, وإقامته للصلاة دفعت الناس إلى كثرة الاستماع والدعاء, جاءت في مخيلة بلال للحظة أنَّ ذلك المسجد هو كنيس شيطان يتّبعه العشرات, ثم فرك عينيه مستغفراً، وشعر بالحزن على تلك الحشود التي تتمسّك بأيّ شيءٍ ينسيها الواقع المرير, فأغلب من يتمسكون بالديانات لا يُعيرون جهداً كبيراً للحياة المادية – بغير التعبّد– أما بلال فرأى أنَّ الحياتين متصلتان, فيعيش ويناضل من أجل يومه, والموت غفوة صغيرة مؤلمة لإكمال الرحلة, وإن كان الموت يفرّق بين النوعين الوحيدين من الحياة، إلّا أنّنا نظلّ الشخص نفسه, ولذلك كانت من مقتبساته المفضلة لـ عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – : "ليس خيركم من عمل للآخرة أو عمل للدنيا وترك الآخرة, ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه, وإنّما الحرج في الرغبة فيما تجاوز عن قَدْرِ الحاجة وزاد عن حَدّ الكفاية".

كانت جميع المساجد متشابهة ومتهرئة بفعل الأمطار والعفن الذي اخْتُزِلَ بداخلها, ذهب ليصلّي في مسجدٍ آخر, فرأى شيخاً على وشك أن يبدأ وحده, وقف بجانبه فنظر إليه الشيخ بحيرة، وقال: "ها! يبدو أنَّ مسجد الظاهر شغموم قد امتلأ".

قال بلال كارهاً: ألسنا محظوظين أنّنا نتواصل بالروح من دون وسيط؟ إنّي أبحث عن صلاة روحية وليس عن إمام جامع.

– كم أنت جريء بلسانك أيّها العجوز

– الحقيقة لا تتصل بالجرأة، إنما الأفراد يلطّخونها بالجُبن

– أوافقك الرأي, كم أعطتك سنواتك الطويلة حكمةً، إنَّ كِبرَ العمرِ نعمةٌ بالفعل.

سخر بلال في داخله

– أووو كم أعطاني الشيب تلك الصفة

– تبدو شارداً

– لا, ها قد حان وقت الصلاة

صلّيا معاً, وبما أنَّها كانت صلاة اثنين، وقفا متقاربين وبينهما مسافة نصف خطوة, بعد أن انتهيا قال له الشيخ: "أتدري أيُّها العجوز؟ إنَّ في أوقاتٍ كهذه ينظر المرء إلى حسن نفسه وأتباعه، أشكرك للقدوم إلى هنا".

– لا أدري عن حسن أفعالي

– وهل اخترتَ طريقاً شائكاً؟

– اخترتُهُ ظنّاً بأنَّه الخير، فلم أدرِ أنَّ الزهور تفتخر بمخالبها فقط

– عليك بتقليمها إذاً، لا يوجد عمل لا يعتدل

– حتى وإن فات الأوان على الخطيئة؟

– حتى وإن فات الأوان على الخطيئة.

ربت الشيخُ على كتفه وقال: افعل ما تراه مناسباً أيّها العجوز.

خرج بلال وهو يفكّر في خطوته التالية, كيف هان عليه أن يتستّر على محتال؟ لقد نسي مبادئه, وضاع بين سخرية شغموم ومتعة الجلوس برفقته, أومأ برأسه يميناً ويساراً بخيبة أمل من نفسه, ثم أخذ نفساً عميقاً وهو يحاول إيجاد حلٍّ لعميان القرية عن الحقيقة, إلّا أنَّ الأمرَ مستحيلٌ, فقد نفذ سحرُه إلى عقولهم, ولم يتركْ وراءه أيَّ دليل يُثبت كذبه, كانت طرق الحلول مغلقة, توقّف بلال قليلاً ونظر إلى شغموم وحوله الناس يهلّلون به, فهو في نظرهم كان المنقذ الكريم, لكن مَنْ يعلم حقيقته رأى فيه سوادَ روحه, ومخالبَ ضحكته, تأفّف بلال ثم توقّفت أفكاره

عندما سمع صوتاً ينادي باسمه, التفت وإذ به يرى حمزة, رحّبا ببعض ثم نظر حمزة إلى ذلك الحشد السعيد وقال: "يا لهذه المهزلة!!"

بدت الدهشة على وجه بلال الذي قال: "يا الهي! ظننتُ أنّي وحدي أفكّر بذلك"

– إنّه عجوز محتال ويعقدُ صفقاتٍ مع الجميع

– كيف اكتشفتَ أمره؟

– لقد استقبل في الأمس جندياً لنقاش خاص, لستُ مطمئناً من ذلك، قد يكشف انتماءنا إذا راقب تحرّكاتنا

– أجل ذلك مثير للقلق

توقّف بلال فجأة عن الكلام، وقال بانفعال: صِفْ لي ذلك الجندي

– لم يكن يرتدي بدلته العسكرية، لكنّي على يقينٍ بأصله، فهو يمتلك ملامح مختلطة عربية وغربية.

– هل عيناه خضراوان؟

– لم أقتربْ كفايةً، لكنَّ عينيه محيّرتان من بُعد مسافة

لاحظ حمزة قلق بلال وقال: ما الأمر؟

– إنّه ليس جندياً، سيقوم بقتله

– وما أدراك بذلك؟

– لقد طلب منّي استدراجه

قال حمزة بحدّة: وهل فعلتَ ذلك؟

– في البداية أردتُ ذلك لكنّي لم أفعل

غضب منه حمزة وأردف: ولِمَ تعاونت مع ذلك الأحمق منذ البداية؟

– إنّه يعلم كلّ شيء ولديه العملة الجديدة

– إذن هو يعلمُ بأمرنا وإلا لما خاطر بذلك

قطّب بلال حاجبيه بغضب, ولم يشعر بذلك الغباء في حياته, شعر حمزة بندمه وقال: "اذهب وأبحث عن الرجل".

– وأنتَ؟

– سأحاول تدمير شغموم وأبحث عن دلائل كافية

– لكن يا حمزة, ألم يكن ذلك الاتفاق لحماية أفرادنا؟ أعني ماذا لو كان شغموم...

قاطعه حمزة بحِدةٍ: أخفضْ صوتك ولا تتكلّم بالعلن عن ذلك ثانيةً, أجل قد يكون هو كذلك لكن يجب أن نتخلّص من ذلك السمّ.

افترقا لأداء مهمتهما, يجبُ الخروج عن القانون والمبادئ, وقاوم حمزة ضميره من أجل بحثِهِ, كان في الجوار يتصرّف كأنَّ لديه عملاً، ويصادف زملاءه بتمثيلِ مَحْضِ الصدفةِ, لكنّه بقي متخفياً عن شغموم, وراقب خيمته حتى موعد صلاة العصر, فخرج من خيمته لأداء صلاته, أمّا حمزة فقرّر تأخيرها, واستغلال تينك الدقائق العشر لمصلحته, بدأ شغموم يرحّب بالناس ويُلقي التحية, تمتم حمزة لنفسه: "هيّا أيّها المنافق الأحمق"، بعد أن انتهى الأذان دخل الجميع للصلاة وبقي الوقت من أجل البحث.

ذهب إلى الخيمة, وكانت على عادتها مرتّبة بطريقة فوضوية, فَقِطعُ القماش في جهة فوق بعضها، وملابسه في جهة أخرى مكوّمة دون ترتيب, أمّا أغراض السحر جميعها كالورق والقطع النقدية المزيّفة فكانت مرتّبةً بانتظام على الطاولة, فكّر حمزة بسخرية: "الأولوية للعمل"، بدأ في بحثه بين أكوام القماش، وفكّر في العملة الجديدة التي تكلّم عنها بلال, حاول عدم إثارة الشكوك، وكان يُعيد كلَّ شيءٍ في مكانه, بحث في صناديقه ثم في ملابسه, لكنّه لم يجد شيئاً, لا بُدَّ أنَّ شغموم قام بحماية نفسه جيداً, فهو لم يترك دليلاً لأيّ شيء قد يُثير الشبهات, ضرب حمزة الطاولة بغضب, ومن صوت المسجد كانت الصلاة في أوجها, وما زال لديه خمس دقائق أخرى, أمسك بالطاولة بحثاً عن شيء في داخلها, لكن كان من الصعب تحريكها والبحث

بداخلها، إلا إذا أزال الأغراض عنها, بدأ العملَ بسرعةٍ, ثم سمع صوت شخص يقف في الخارج، فوقف بخوف وهو ينظر بحذر, تقدّم خطوة إلى الأمام لكنّه لم يجد خيال أحد, وتبيّن له أنَّ الصوت الخارجي مجرد هواء, تنفّس الصعداء, ثم لاحظ أنه بقي دقيقتين إلى أن يخرج الجميع, فعاد بسرعة إلى بحثه إلى أن صرعه صوتٌ ناداه باسمه من الخلف, فسقط كلُّ شيء من يده والتفت ببطء, رأى الظاهر شغموم يقف مع رجل

– ما الذي تفعله هنا؟

تمتم حمزة: أنا.. لقد كنت أبحث عنك

– أنت تعلم أنّي لا أترك صلاتي

تقدّم شغموم خطوة للأمام فحذّره الرجل وسأله: "هل تعرف هذا السارق؟"

– لا لم أرَه في حياتي, لكن ربما يكون مسكيناً، أرجوك اجمع القرية لمساعدته بطلب خاصّ منّي

قال الرجل: قلبك الطيّب يا شغموم يتعرّض للاستغلال

قال شغموم ممثّلاً البكاء: يا لهذه الدنيا! يا لهذه الدنيا! لا نعلمُ الخيرَ من الشرّ، فقط أخرجه أرجوك.

بقي حمزة صامتاً، وفوه مفتوح من الصدمة, أراد الانقضاض عليه وقتله, تخيّل تمزيقه ورميه إرباً للكلاب, لكن مَنْ سيصدّقه؟ فقد أتقن شغموم دوره ببراعة, وكلّ ما تبقّى عليه هو أن يتخلّص من حمزة وشكوكه, أصبح هناك ثلاثة ضحايا في عقله, إيليا وبلال وآزر, لكنَّ جعل من وجهه المسكين همّه, وعندما خرج حمزة من الخيمة مشى بهدوء, قال له الرجل: "لن تنجوَ بفعلتك من شغموم المبارك"، وسرعان ما لكمه حمزة على وجهه، ثم لاذ بالفرار, تبعه الرجل لكنَّه سبقه على حصان ومضى في طريقه دون عودة.

(14)

أصبح من السهل على بلال مراقبته, فقد وجد مضجع إيليا, وعلى ما يبدو وجد أقرب الناس إليه, في كلّ مرةٍ خرج من منزل عمّه بدت على وجهه الراحة النفسية, كان يرتدي أغلب الأحيان معطفاً أسودَ طويلاً، ويرفع قبته على حدود رقبته, وفي كلّ مرة خرج فيها من المنزل وحدود المزرعة، كان ينظر إلى الخلف للتأكّد من عدم وجود أي أخطار حول عائلته, فكّر بلال في نفسه: "إنّه بغموض شيرلوك، لكن يحارب العدالة لحياته".

كثيراً ما كان بلال يُسأل عن معرفته لشخصيات غربية, لم يكن أحد يعلمُ إذا كان يتقن لغات أخرى, وقد كانت تشبيهاته في كثير من الأحيان محيّرة, وفي الغالب لم يكن يُعرف عنها، أو بدت ككلمات غير مفهومة، "إنَّ الإلهام والمعرفة جلستا في أدمغة الناس، لكنّهما نفرتا من الغباء إلى أن استكنّتا في عقلي، إنّني متواضع يا رفقائي، لكنَّ الحقيقة شيء مسلّم به، وإن بدت غروراً". هكذا تكلّم بلال وشرح نفسه.

كان يتشارك في مضجعه مع حمزة, وكان كلاهما مجرداً من الحياة العائلية, فقد قُتلت عائلة بلال عندما كان صبيّاً من قبل بضعة رجال يرتدون ملابس الجنود, هل كانوا كذلك؟ لم يكن لصبيّ في السابعة عشرة من العمر أن يلاحظ خلف الستار, ومن حظّه أنّه لم يكن في المنزل ذلكَ اليومَ, لكن انطبعت في ذاكرته جثثُ أحبابه.

كان يقول لآزر في أسوأ أيامه: إنّي أبدو كهلاً, وأشعر ككهل! فقد تحطّمتُ بما فيه الكفاية إلى أن غدوت مجرد أجزاء محطّمة على الأرض، تحاول النهوض وتشكيل نفسها مجدداً, فأنا لا أقوى على تجميع نفسي.

قال آزر: إنَّ عواصف الحياة ما هي إلا زئير أسد يتوعّد دائماً بالنهاية, لكنَّ الحق يا رفيقي أنّه لا يخرج من عرينه إلّا إذا طلبتَ منه ذلك.

ذهب بلال إلى أسوار المزرعة ورأى رجلاً كهلاً, فكّر في نفسه لا بُدّ أنَّه العجوز خليل عَمّ إيليا, ثم أسرع بعد ذلك ليكمل مسيرته، كان في حيرةٍ من أمره, لكنّه أراد أن يعلم ما قد يحصل لو اجتمع شغموم وإيليا, على قدر ما كان الأمر صعباً، إلّا أنّه وُجِبَ عليه أن يستدرجه

إلى خيمته, لكنَّ الخطوات إلى الجريمة الأولى دائماً ما تكون متورعة بالتردّد, بعد ذلك تصبح طريقاً سهلةً, وقد أوصله ذلك باتّباع إيليا إلى أن وصلوا إلى طريق في منتصف القرية, حيث كانت تتعافى بعد يوم ممطر, فبدل أن تمتزج رائحة التراب بمتعة الأمطار، فاحت روائح العفن ومظاهر الفقر.

جلس أصحاب المحلّات الشعبية وهم يشعرون بالبرد والنعاس, عبر إيليا من ذلك المكان البائس إلى أن توقّف على صوت صبيّ يصرخ للنجدة، وتوقّف بلال خلف أحد المحلات معه, كان وجه الصبي متّسخاً وقدماه حمراوين من البرد وكثرة المشي في ماء المطر, وملابسه الرثّة متعددة المقاسات، ارتداها بشكلٍ عشوائي ليُدفِّئ نفسه, رأى بلال الصبي ولاحظ أنَّه هو نفسه الذي جاء إلى الظاهر شغموم مع والدته, وعلى قدر ما بدا مسكيناً، إلّا أنه كان بدراً, ولاحظ إيليا ذلك، لكنَّه ذهب ليرى ما المسألة.

أمسك جنديٌّ بالصبي من صدره كأنَّه رجل بالغ, صفعه على وجهه حتى احمرّت وجنتاه, رفع يده للصفعة الثالثة لكن إيليا أمسك بيده وقام بإنزالها قائلاً بهدوء: "إنّه مجرد صبيّ!"

نهض الجنديّ ضاحكاً، بينما وقف الجميع خائفين من الدفاع عنه, فقال الجنديُّ مخاطباً الناس الصامتين: "أليس هكذا نصنع المجرمين؟"

كان الجنديّ ما يزال يُمسك بالصبيّ من كتفه، ثم عرضه أمامَ الناس كأنَّه مِعزة صغيرة, صرخ بهم وأكمل: "ألا نستحقّ حياةً خاليةً من الظلم؟ هل يقبل أحدكم أيّها الطالبين للرزق أن يُسرق من عرق جبينه؟"

قال بعضهم بصوت خافت خالٍ من الثقة: لا

صرخت امرأة قادمة من بين الناس: بُنيّ... دَعْهُ وشأنه.

– عليه أن يكون عبرةً للناس, سيجني لي قطعة نقدية بدلَ التي حاول أن يسرقها

قال الصبي: لكنّي لم أمسَّها

جاء بلال وهو يمشي على عكازه، ويمثّل دور كبير السنّ كعادته، وقال: "إنّه لا يرتدي حتى الحذاء، من أين سيجني ذلك"

نظر إليه إيليا وأومأ له برأسه بحركة خفيفة, لكنَّ الجندي كان مصرّاً على إهانة الجميع, فاستدعى جندياً عربياً من أولئك الذين جنّدوا قسراً، وقال له: قُمْ برَكْلِهِ.

كان الجنديّ العربيّ يضعُ رأسه في الأرض, محبطاً, وبدت هموم العالَم بأكملها تستقرّ في وجهه المسودّ, تقدّم لكنّه لم يفعل شيئاً للصبي, فصرخ فيه الجندي: "لقد أعطيتك أمراً".

قال بلال: ولن يفعله؛ لأنَّ الظلم ليس من شيمنا.

– إذن ستضع نفسك أمام الصبيّ أيّها العجوز

بينما كانت المرأة تبكي وتنوح على ابنها، استغلّت شجارهم وقامت بشجاعة بانتشاله من الجندي، لكنَّ قبضته وقعت عليها فلكمها مسرعاً حتى سقطت على الأرض خائرة, فأوقفه إيليا بالهجوم عليه ودفعه بعيداً, تشاجرا وحطّما أخشاب المحلّات المهلهلة حولهما، فتناثرت الخضار، وما زال الناس ينظرون بريبة حولهم, نظرَ بلال إلى جُبنهم وفشلهم, كانوا يترقّبون قدوم المزيد من الجنود، وخائفين من أيّ شك يسقط عليهم فَيُعدمون علناً.

قام الجنديّ بخنق إيليا وثبّته في الزاوية, فحمل بلال عكازه وقام بضربه حتى أفلته من يديه, تأوه الجندي وهو يسقط في حالة إغماء على الأرض, ثم قال بلال لإيليا: "لقد جاء رفقاؤه، علينا أن نغادرَ قبل أن يتعرّفوا علينا".

أمسك الجنديّ العربيّ بلالاً ووضع في يده سلاحاً وقال: "كونا بأمان".

بقي إيليا وأمر بلالاً بالذهاب, قال بلال: "ما الذي تنتظره بحقّ الجحيم؟"

– "خبّأ سلاحك"، قال إيليا وقد كانت أعصابه هادئة بشكل غريب

جاءت مجموعة من الجنود لكنّهم سرعان ما ألقوا تحية احترام لإيليا, وقف الجندي وقد اتسع فغره: "أنت نقيب؟!"

– انهضْ من مكانك

نظر بلال بطرف عينه إلى إيليا ثم غادر في طريقه, وغادرت المرأة مع ابنها هاربين أيضاً بعد أن نهضت بصعوبة, أما الجنديّ فقد نهض وقال: "أعتذر يا سيدي".

بعد عدة ساعات, التقى بلال مع إيليا مجدداً, ثم عرض عليه بلال أن يدعوه لشرب القهوة في مضجعه بعيداً عن ذلك البرد.

كان المنزل نظيفاً ومرتباً, وقد لاحظ إيليا مدى دقة بلال بترتيب التفاصيل الصغيرة، وعنايته بأدقّ الأشياء, لكن لم يكن ذلك كافياً, فقد طبع تسرّب المطر رطوبةً وبقعاً على الجدار والأرض, وبدا أنَّ بلالاً استطاع حماية كتبه, فقد أجاد تغليفها وترتيبها.

جلسا متقابلين على طاولة, كانا يمسكان كوبهما بنفس الطريقة وهما صامتان يحدّق أحدهما بالآخر, خاف بلال من نظرته وحاول تجنّبها, لكنَّ إيليا بقي ينظر إليه بتفحّص إلى أن قال بلال: "عيناك الخضراوان كعيون أفعى تخطّط لامتصاص دمي".

– أنتَ الذي دعوتني, والآن تهاب النظر إليّ

– هل تلاحظ مظهر عينيك؟ أقسم إنَّهما كالجنّ مع أنّي لم أرَ واحداً من قبل.

– ما الذي تخطّط له بوجودي يا بلال؟

– ألستَ أحمقَ بأن تطرح سؤالاً كهذا على متمرد؟

نهض إيليا من مكانه وأعطى بلالاً قطعة نقدية من العملة الجديدة وقال: "أنا أحذر من الرجل الجبان, مَنْ يخاف على نفسه وحياته يكون أول من يتعرض للأذيّة, أما أمثالك لا يناله الحظّ فحسب, بل يصنع جيشاً من الأغبياء يظنّون ألّا يراهم أحد".

– أردتُ استغلالك من الوهلة الأولى, لكنّك لستَ سياسياً ولستَ من قام بطمرنا، بل أنت مجرد حجر على رقعة شطرنج, ربما أفضل من ذلك ممّا رأيته بك.

أعاد إليه القطعة النقدية ثم نهض، وقال: "أنا مخادع, لكن لا أضع رجلاً رأيتُ منه الخير على تمرّدي الذي قريباً سيصبح مصيبتي, فأنتَ جنديّ لو أردت قتلي على ما أفعله لكان حقّك, لكنّي أعلم أنّي تحت رحمة الله، ثم رحمتك".

– خُذْها فهي لا تعني شيئاً الآن

هَمّ إيليا للمغادرة ثم أردف بلال قائلاً: "إذا كانت هذه الحياة روايةً فلا بُدَّ أنَّ كاتبها تافهاً".

تذكّر إيليا والده, وأعاد إليه اشتياقه لوالدته، فتظهر أمامه ذكراها وهي تتألم, فغالباً ما كان والده إلياس يؤذيها على أمرٍ قد أكرهها عليه, الديانة... فهو في الماضي قَبِلَ بها مسيحية ومع مرور الوقت لم تجد إستيرا في الإسلام إلّا صورة خاطئة, أمّا دموعها فكانت تغادر كي تبتسم بوجه إيليا، وتومئ إليه أنَّها بخير, فهي قبلت تمرّدها عن عائلتها وهروبها قبل الزواج مع إلياس، في تلك الأيام التي مثّل فيها أنَّه العاشق المُخلص, بهذا المصير الذي لامت نفسها عليه، وقد كان إيليا هو السبب الوحيد لعدم انتحارها, فكثيراً ما حاولت ذلك, إما بالقفز عن الجرف أو بأن تضع خَنْجراً في صدرها, لكنَّها عندما ترى الطفل إيليا ينظر إليها، تتراجع عن ذلك, أمّا عن إيليا فكان لا دينيّاً, يؤمن بالله ولم يختَرْ لنفسه مذهباً, مع أنَّه رأى الإسلام الحقيقي في عمّه الطيب، الذي أحبَّه بمثابة والدٍ له.

أمّا بلال فلم يجد سبباً مقنعاً في أن يرى النفاق في إيليا, بل أيضاً تخاطرا كأخوين، وفهما بعضهما, لم يستطع بعد ذلك أن يستدرجه إلى شغموم, وجلس بخيبة أمل وهو يشعر بالحماقة, فكان من الأفضلِ معرفةُ ماضي المنافق شغموم, فهو يخدع الناس جميعاً ولا بُدَّ أنَّه جعل من بلال مهزلة أيضاً.

لكن لم يغمض له جفنٌ، إلّا أن يحلّ هذه المعضلة, قام بلعن الأسرار، وغشاوة الرؤية عن الحقيقة, وفكّر أنَّ الإنسان يسقط في يديّ أعماله، وإن ظنَّ أنَّها أيادي الشرّ, كيف لا وهو لم يخبر ماضيه، بل كان يتصرّف على هواه؛ ظنّاً أنَّه سيحلّ مآسي حياته بنفسه, لكن ما الثمن من ذلك؟ أليس المرءُ يقيم نفسه بحسب من يبقى حوله؟ ولا أحدَ بقي حوله، فقد غادر حمزة من غير أثرٍ، وآزر لا يتكلّم عن معضلته, أيّ تمرّد هو ذاك لثلاثة رجال لا يكفّون لتحرير مستنقع عربي، "يا لنا من حمقى". بقي حلّه الأخير وهو إصلاح الأمور, كان ذاك أقلَّ ما يمكن فعله, فعليه بضرب ذلك الشعور قبل أن يقضيَ عليه، "أنا أقوى على نفسي! أنا أقوى من نفسي.."، كان يردّد في خلده وهو يغمض عينيه مستسلماً للوسن.

في اليوم التالي وصل بلال إلى مزرعة خليل المنشودة, ضرب بعصاه على الأرض كأنَّه يحدّد مكان تلك البقعة, التمعت عيناه وهبط ضوء الشمس البارد على لحيته وشعره الأبيض, أمّا ثوبه فكان قديماً مع قليلٍ من الاهتراء بلونٍ أزرقَ باهتٍ, كان يفعل الشيء الصحيح, أجل, فقد أقنع نفسه بذلك, انتهى قراره بعدم التورط في أمور خطيرة, فهو كان ما يزال متمرداً بداخله, قوميّ, ينتقد الجبنَ ويعلنُ الحيادية, وفي ذلك اليوم وُجِبَ عليه التصرّف, حتى وإن عنى ذلك الاقتراب من أحد الجنود.

كان الباب الخارجي للمزرعة مفتوحاً, دخل ببطء وهو ينظر في الجوار, إما أنَّ المحاصيل تُركت من دون عناية بعد جهد لإنمائها، أو أنَّ المنزل الذي في المنتصف لا يسكنه أحد, مضى في طريقه وهو ما يزال يتفقّد حوله, ثم لمح كوخاً بدا كأنَّه مخبئاً في الزاوية، وحوله أربعُ شجراتِ نخيلٍ عاليةٍ, سرح في توقعاته حتى أفزعه صوت "أهلاً بك".

تقدّم عجوز خرج من المنزل ليقابلَ بلالاً, ابتسم بلال إليه وقام بمصافحته، ثم أدخله العجوز إلى غرفة ضيوف منزله, تبادلا التحية ثم سأله بلال: يبدو المكانُ هادئاً هل تقطن هنا وحدك؟

قال خليل: يا رفيقي لا ينجو عجوزٌ مثلي ومثلك في مكان كهذا، لو كان منعزلاً لدى عائلتي هنا وأنا ممتن لذلك.

– أجل فنحنُ نخاف الوحدة أكثر من الموت ذاته.

– صدقت

أردف خليل قائلاً: لكن ما سببُ شرفِ هذه الزيارة؟

– ما الذي يُدخل عجوز مثلي لمكان كهذا؟ اعذرني على فضولي

– تفضّل بالدخول

ارتشف الشاي وهو يمثّل ارتجاف فنجانه قليلاً, لكنَّ هدوء خليل وقلة تكلّمه وتَّره, إلّا أنَّه امتلك حسناً رفيعاً في الضيافة, فوضع أمامه ما طابت إليه نفسه, ثم بدأ بالتعرّف على بلال.

– هل تأتي في العادة إلى هنا؟

– أجل فعلى بعد عدة أميال يوجد منزلي

– أحقّاً ذلك؟ اعذر عجوز مثلي فأنا لا ألحظُ أحداً

قال بلال بخبث: هل تعيش هنا وحدك؟

– أجل

كاد بلال يشرق بكوبه عندما سمع كذب العجوز

قال خليل: هل أنت بخير؟

– أجل.. أجل.. لكنّي معجب بنجاتك وحدك, فكما تعلمُ نحن كبار السنّ نتغذّى على حبّ العائلة.

ضحك خليل فجأةً, وقد أفزعت بلالاً تلك الضحكة, فقد ظنَّ أنَّ العجوز لا يبتسم، فكيف له أن يضحك؟!

قال خليل: أعتذر، لكنَّك شابّ مضحك جداً

قال بلال متمتماً: شا.. شابّ؟

– أتظنُّ أنَّ ابن أخي أحمق؟ لقد أخبرني باحتمال قدومك. واقتبس منه قائلاً: "أقسم على قبري إنَّه سوف يأتي لزيارتك, فخُذْ حذرك من بطشه يا عمّي".

أكمل ضحكته وتكاد عيناه أن تدمعا.

– إذن عليك أن تقوم بحمايته

– حمايته من ماذا؟

– الظاهر شغموم! إنّه يفكّر بالمكر منه

– أحقّاً ذلك؟

– أجل, عليك بإخباري عن مكان لقائهما

صمت خليل قليلاً

فأردف بلال قائلاً: أجل, أنا لستُ أشرف مخلوق على وجه الأرض, لكنّي أُعيد الخير بالخير كما أُعيد الشرَّ بالشرِّ, ألا تظنُّ أنَّ ذلك عدلٌ؟ فلتُخْبِرْني من فضلك.

– لا أقلقُ على إيليا من شيءٍ على أيّ حال

– أجل فهو ذكي

– لقاؤهما في المعسكر

فكّر بلال بأخذ مساعدة حمزة, لكنَّه لم يَجِدْه, بقي أربع ساعات فقط وينتهي أمر إيليا, ولهذا وُجِبَ عليه أن يذهبَ وينقذه بنفسه.

كان اللقاء سيكونُ خارج القرية, بجانب معسكر قديم للجنود, لقد كان اختياراً مثاليّاً للإيقاع به, فهناك سيزرعُ شغموم دلائل ويظهر كبطلٍ مرّةً أخرى على جثة إيليا, لم يعلم بلال حقيقة الأمر, وبعد لقائه مع العجوز خليل رأى طيبته وحصافته, فهو ليس بعجوزٍ قد يُبقي رجلاً سيئاً حول منزله, لكنَّ حقد شغموم لم يُظهر حقيقته أبداً, فلا بُدَّ أنَّ روايته للأمور عبارة عن كذبة مدبرة.

استمرَّ لنصف ساعة وهو يركض على حصانه خارجاً عن القرية وحده, كان يضع خَنْجَرَه على خصره، والعزيمة على إنهاء الأمور في عقله, وقف عندَ مكانٍ أثريّ لم يرَهُ قطّ في حياته, وكان هناك شابٌّ أجنبيّ بدا في منتصف عمره, نزل بلال عن حصانه واقترب من الرجل، علّه يستطيع التكلّمَ باللغة العربية, لكنَّه بدا مشغولاً في عمله بالتنقيب عن الآثار, لمح بلالاً قادماً باتجاهه، فنهض مسرعاً بأسلوبٍ ترحيبيّ غيرِ معتادٍ لإلقاء التحية عليه, قال بلهجة عربية متكسرة: "السلام عليكم".

لاحظ بلال أنَّ الرجلَ ألمانيّ, وعندما سأله عن اسمه قال: إنّه (ماكس فون أوبنهايم)، وبعد أن شرح واصفاً عمله بمساعدة إشارات من يده، فهم بلال أنَّه عالِمُ آثارٍ جاء لاستكشاف

مناطق شرقية, ودَّعا بعضهما، ومضى بلال في طريقه, أمّا ماكس فون أوبنهايم فبقي يراقب به حتى اختفى هو وحصانه, فقد وُجِبَتْ عليه كتابةُ كلِّ تفصيلٍ إلى رئيسه وفي مذكراته أيضاً في حال بدت علامات ثورة في البلدان الإسلامية, وأراد أن يستحقَّ لقب رئيس الجواسيس في البلدان العربية، وإلا فشلت المخططات بأكملها.

بعد ثلاث ساعات على الطريق، وصل بلال بعد الغروب إلى المعسكر, وهناك بحث عن آزر, فقد أرسل إليه رسالةً عاجلة طلب فيها مساعدته, لكنَّه لم يمتلك الوقتَ ليعلم عن جوابه بذلك الطلب, إلى أن نظر إلى السماء وشاهد الحمامة (زينة) تُحلّق عالياً, فتتبع أثرها إلى أن وصل إلى خيمةٍ بين أشجارِ نخيلٍ عاليةٍ, رفع صوته وهو يبحث عن أحد في المكان، فردَّ عليه آزر, وقد سَعِدا برؤية بعضهما مجدداً، ثم عادت الحمامةُ (زينة) إلى القفص الذي يمتلكه آزر, فكانت زينة هي الإشارة على وجود أحد من الرفقاء في نفس المنطقة لئلّا يضطرّوا للبحث عن بعضهم، أو إثارة أيّ شكوك, أغلق آزر عليها القفص ووضع لها بعض حبّات العدس التي اعتاد أن يُخبِّئها لها في جيبه, وجلس يتحدّث مع بلال عن تلك الرسالة, فشرح له ما حدث مع الظاهر شغموم, ووعده آزر بالقيام بجهده لمساعدته، وعندما حانت الساعة, وقفا معاً يراقبان في الظلام من بعيد، لكنَّ المكان كان هادئاً وخالياً من الناس.

قال آزر: هل أنتَ على يقين أنَّنا في المكان الصحيح؟

– أجل ذلك حسب ما قاله عمُّه خليل

– ماذا لو كان يخدعك؟

– لا أستطيع التفكير بذلك الآن

أضاء رجلٌ مصباحاً, واقترب وجلس في المنتصف قرب خيمة تبعد بضعة أمتار, كان في انتظار شخص ما, أخرج شيئاً من جيبه لكنَّهم واجهوا صعوبةً في تحديده, قال بلال: "هل تلاحظ ذلك الشيء؟"

– لا

أمعنا النظرَ معاً، ثم ظهر تحت الضوء، فقالا معاً: "خَنْجَر!"

تقدّم بلال لكنَّه أمسك آزر وقال: "انتظر حتى نرى إيليا".

لم يَكَدْ يُكمل جملته حتى ظهر إيليا, أخفى الرجل خنجره ونهض من مكانه ليصافح إيليا, تمتم بلال: "لكن ذلك لا يبدو والده".

بعد أن تصافحا الرجل وإيليا آنت اللحظة ليُعيدا يديهما إلى مكانهما, لكنَّ إيليا أبى أن يترك يد الرجل.

قال آزر: ما الذي يفعله؟

– لا أدري

سحب إيليا يد الرجل، ثم بدأ يلويها خلف ظهره، وضرب وجهه بالطاولة, قام الرجل بالهجوم على إيليا، وكان هو الآخر قد تلقّى تدريباً عسكرياً مماثلاً؛ ظنّاً أنَّه من أحد الخونة, لكنَّ بلالاً لم يُعطِ نفسَهُ الوقت للتفكير، وخرج بخنجره مصوّباً إياه تجاه الرجل ليترك إيليا, لكنَّ إيليا امتلك القوة الكافية لدفع الرجل بعيداً, ثم اشتعل المكان بأكمله بالمصابيح، واقتربت مجموعة جنود قاموا بأخذ الرجل وبلال إلى السجن, ظهر الظاهر شغموم من العدم مبتسماً من بعيد لبلال بأنَّه كان أذكى منه, وقد قام بتلك الخُطّة بأكملها دارساً تصرفات بلال وشعوره بالندم تجاه نفسه وإيليا, والآن سيلقى الاتهام بمحاولة قتله للجندي (إيليا) بمساعدة الرجل الذي قام بالهجوم، والذي لم يلتقِ به قطّ في حياته، فقد كانت خُطّة شغموم منذ البداية الإيقاع ببلال.

(15)

بالنسبة إليها كان ذلك المكانُ كئيباً، فهي لم تَرَ الشمس منذ وصولها إليه, غائماً وضبابيّاً, لماذا استقرَّ في هذا المكان؟ هل هو مأساوي أم فقط ينتمي إلى حيث يظنّ أنَّها ماتت، كان رأس تلك الصغيرة مليئاً بالفضول والتساؤلات, كانت تُدعى (روسلين), في العاشرة من العمر, متمردة لمصلحة مُخيّلتها، وتُتعِبُ جميع من حولها, أو على الأقل ذلك ما رأوه فيها.

وقفت في الحديقة خارجَ الكوخ الذي اتّسم بالفخامة, تساءلت في نفسها ماذا لو خرجت إلى الشارع كما كانت تفعل في إسطنبول قبل شهر من قدومها إلى قريتنا؟ لكنَّ تصرفاتها كانت متوقعة, فأغلقت والدتها أبواب الحديقة، وطلبت من الحارس مراقبة المخارج إذا ما حاولت أن تلوذ بالفِرار, فهما دائمتا الشجار, أرادت كلٌ واحدةٍ منهما أن تفهم عقل الأخرى, لكن كيف للعقل أن يفهم وهو لا يجيد إلا قراءة نفسه؟

– اصمتي يا روسلين، كم أتمنى أن أضربك بالحائط وأنهش رأسك.

هذا ما كانت تقوله والدتها وهي تغلي من الغضب, لكنَّ غضبها ذاك لم يكن نادراً, بل أصبح بالنسبة لروسلين شيئاً معتاداً, لم تَعُدْ تخاف منها أو تهرب عند جدّتها, وجب عليها الجلوس والاستماع إلى ذلك الصراخ فقط.

سمعت روسلين صوتَ أذان العصر, حرّكَ الهواء فستانها الأزرق الدافئ وشعرها البنيَّ, لكنَّها أبَتِ التراجعَ عن تقدّمها إلى السياج للسماع عن قرب, نظرت إلى الخارج كأنَّها سجينة, ورأت كلَّ أنواع الحياة الاعتيادية, التاجر والفقير, الرجال والنساء, طالبي الرزق والمتكبرين، أمعنت في صوت المؤذن وقارنته بأصوات الكنيسة التي اعتادت على دخولها كلَّ يوم أحد, وتساءلت عن اختلاف الأيام المقدسة, ما الفرق بين الجمعة والأحد؟ بين المسلم والمسيحي؟ لكنَّ تلك الأجوبة أكبر من فهمها, وهذه الأسئلة يجب ألّا تطرحها, حيث إنَّ الجواب الوحيد الذي تحصل عليه من عائلتها "ما تزالين صغيرة".

أغمضت عينيها واتكأت أسفل السياج، فشعرت بيد إنسان آخر باردة كالثلج, نظرت إليه فرأت رجلاً فقيراً يبدو في الخمسين من العمر، واتّساخه جعل منه وحشاً مخيفاً, شهقت وعادت

خطوةً إلى الوراء، وأمسكت بقلادة الصليب الذهبية حول عنقها التي أهدتها إياها جدّتها, قال لها ماداً يده: "تصدَّقي على فقيرٍ أيتها الطفلة".

لم تفهم ما قاله, خافت وشعرت بالقرف من أسنانه المحطّمة السوداء، لكنَّها فهمت مطلبه, أومأت برأسها موافقة إياه، فأومأ هو بدوره, ركضت إلى الداخل وبقي هو في الخارج ينتظر قدومها.

مضت روسلين مسرعةً بين الخدم وبعض أقاربها الذين رافقوا عائلتها إلى تلك القرية, سمعت جدتها وهو تؤنب والدتها: "ليلاف... ابنتك تركض مسرعة ستؤذي نفسها".

تململت ليلاف عندما سمعت والدتها وصرخت قائلة: "روسلين لا يوجد لديّ وقت لتصرفاتك ابقَيْ في غرفتك".

لكنَّ روسلين مضت إلى غرفة والدتها، وأغلقت الباب وراءها, قالت ليلاف: "ذلك أفضل على أي حال".

كانت غرفة ليلاف دافئة, كلُّ قماش فيها من سرير وستائر مصنوع من الأقمشة المخمليّة, وأثاثها فكتوريّ فاخر, كان مظهره مبالغاً في الغلاء، وينمّ عن عدم اكتراث, فهم في قرية جائعة, لكن كانت تقول ليلاف: "إنَّ الجوع يأتي من الأفراد أنفسهم, ماذا تتوقّعين من أناس ينتظرون الصدقة ويتمنّون رزقاً من الله، وهم لا يعملون حتى لأنفسهم، إنَّهم مثيرون للشفقة".

وقفت أمام مرآتها المليئة بأفضل أنواع التبرّج, وضعت مجوهرات ليلاف الباهظة, بحثت روسلين عن شيء يملك ثمناً, لكنَّ كلَّ شيءٍ في تلك الغرفة كان سيوفي بالغرض, إلا أنَّ فقدانه سيلفت انتباه والدتها, فبحثت في الخزانة عن شيءٍ أبسطَ, ثم وجدت صندوقاً تحت الملابس, فتحته ورأت بداخله قطعاً نقدية, أخذت ثلاثاً منها ثم أرجعته إلى مكانه، وهبَّتْ إلى الخارج، قاطعت جدّتها طريقَها قائلة: "ألم تطلب منكِ والدتك البقاء في الداخل".

قالت بصوتها الصغير: أرجوكِ جدّتي سأشتاق إلى هذا المكان عندما نغادره قريباً.

زمت جدتها شفتيها ثم أومأت بيدها قائلة: "حسناً... لكن لا تُطيلي غيابك".

أكملت روسلين جريها والسعادةُ تغمرها, فكلُّ شيءٍ يخالف القوانين، ويجلب لها المشاكل، كانت تحبُّه, ذلك ما يحصل لعقول الصغار, إمّا أن نفكّر كما يفكّرون أو سيتصرفون كالكبار, وفي النهاية توضع عليهم الملامة, لكنَّها لم تتأثر بذلك قطّ, كلّ ما كانت تسمعه من تأنيب يخرج من أذنها الأخرى ولا تحتفظ به في رأسها.

"لماذا سمحتِ لها بالخروج؟"، قالت ليلاف لوالدتها.

– دعيها وشأنها

– كم أكره...

– توقّفي، ولا أريد أن أسمعَ البقية مجدداً, والآن اخرجي وتصرّفي كوالدة

كانت نظرة ليلاف حاقدةً وثاقبةً, خرجت مُجبرة نفسها على الإمساك بِـ(روسلين), أثناء ذلك وصلت الصغيرة إلى السياج, لكنَّها لم تجد الرجل, نظرت إلى الأمام وإلى الناس في الشارع ولم تجد له أثراً, ثم سمعت صوتاً مبحوحاً كإنسانٍ يقاوم روحه التي تحاول الخروج, فنظرت إلى الأسفل ووجدته جالساً كالأموات، مدّت يدها ببطء إليه وبلعت ريقها من الخوف، قالت: "خُذْ".

– "ماذا تظنّين نفسَك فاعلةً"

أرعبها صوت والدتها، فسقطت القطع النقدية وتناثرت أمام الرجل

– أمي أرجوك...

نظرت خلفها فوجدته هارباً وهو يعرج بقدمه, وأمسكت بها ليلاف من يدها وآلمتها, ثم جرت بها إلى الداخل حتى وصلت إلى غرفتها. قالت روسلين مدافعة عن نفسها: "لا تؤنبيني أليس من الجيد أن نحسن المعاملة, ألم ينشئ أقاربنا وجدّتي جمعيّات خيرية وأصلحوا المدارس والمساجد والكنائس".

صرخت بها قائلة: في وقتها المناسب وليس مع المجرمين.

– لكن..

– اصمتي

اقتربت منها وسحبت شعرها وآلمتها، "هل تعلمين كم أكرهك"، أمسكت بها من ذقنها وقامت بالشدّ على فكّها، وأمرتها بعدم الصراخ أو البكاء، "في المرة المقبلة سأرميك إلى هؤلاء القوم هل تفهمين ذلك؟"

أومأت روسلين برأسها ثم تركتها والدتها وخرجت, عدّلت شعرها وبكت بحرقة, أما ليلاف فواجهت والدتها لحظة خروجها وقالت لها: "علي باشا طلب منا معروفاً".

كان علي باشا من أقاربهم، ويعمل ضابطاً مع الأتراك منذ ثلاثين سنة، ويعتني بأمور العائلة البعيدة.

– ما هو شأني؟

– أن تقومي بزيارة بعض النساء, نحن ندين له بذلك بعد كلِّ ما فعله لنا

– لكم أمّي, لكم، أمّا أنا فقد ابتُليت بين ذلك.

– لولا تلك العبرة وإلّا كنت في نفس المكان، احمدي الله والمسيح على حسن حظّك

– أفعلُ ذلك كلّ يوم, سامحيني أماه لكنّني مشوشة

– لا بأس

– أين ستكون تلك الزيارة

– يقول الضابط علي باشا إنَّ لديه شكوكاً في بعض الرجال، لكنّه يجد رجلاً وراء جميع المخاطر، ويحتاج لمعرفة المزيد ليقوم بابتزازه, عليك تجميع المعلومات عن عائلته، وألّا تعودي بخُفّي حنين.

– ماذا سأحصل من النساء؟ هن في العادة خارج تلك الأحاديث

– عليك أن تجدي حلّاً، وإلا سيتعرض علي باشا لتلك المخاطر

– سأبذل جهدي، أعدُكِ بذلك

– وأنا أثقُ بقدراتك عزيزتي

التفتت ليلاف كي تغادر، لكنَّها عادت قائلة: "أمي ما اسم ذلك الرجل؟"

– آزر الرقبان

(16)

حَلَّ الليلُ وجلس بلال حانقاً، بينما كان الجندي الذي يرافقه ينتظر وصول أوامر رئيسه, تساءل عن مكان آزر، إذا ما لاحظ توالي الأحداث ومدى سوء الظاهر شغموم, كاد أن يفقد صوابه إلى أن جاء صوت إيليا من دامس الظلام آمراً الجندي: "لا بأس, دعه وشأنه".

قال الجندي: هل أنت متأكد من ذلك؟

نظر إيليا إلى بلال وقال: أنا جعلته يتبعني، كان ذلك ضمن الخطة.

فكَّ الجندي يدي بلال من الحبال، وسلَّمه لإيليا

– حسناً إذاً يمكنك أن تمضيَ الآن في طريقك

بعد أن رحل الجنود التفت بلال إلى إيليا مذعورا

– لن تصدّقني، لكن عليك ذلك، رأيت شغموم هنا لا تثقْ به

– أدري ذلك

تنفّس بلال الصعداء، وقال وهو يقطّب حاجبيه، بينما أشعل إيليا سيجارة

– حقّاً؟!

– هل تظنّني أحمق؟

– هل ستطلق النار في رأسي لو قلتُ إنّي بالفعل ظننتُ ذلك!

– لقد قام بتعقيد خطّته إلى أن بات لا يفهمها هو بذاته

– إذن أنت بالفعل لا تشتاق لوالدك

كوّنت سيجارتُهُ كومةً صغيرةً من الدخان، بينما كان ينفث المزيد بشراهة

– أتحاول أن تقرأ الأفكار الآن؟

– لا... لكنّي تكلّمت مع عمّك خليل لأعرفَ عن مكانك

– ويبدو أنَّك احترفت الكذبَ عليه

– اعذرْني لأنّي أردْتُكَ على قيد الحياة

– عليك أن تخبرَني بالأمر كاملاً في طريق عودتنا إلى سربة

– ومتى سنعود إلى القرية؟

– الآن, اجلبْ حصانك وسيكون لدينا الليلُ بأكمله للتكلّم

– هل أنت جادٌّ في ذلك؟

– أو يمكنك البقاء هنا بصفتك محتالاً ومتمرداً, أظنُّ الجنود قد يبقونك على قيد الحياة ليومين على الأكثر، وسيكفيك ذلك للدعاء.

ضحك بلال قائلاً: لا بأسَ بالتكلّم طوال الليل فلنذهب.

غادرا على حصانهما تحت السماء المطرزة بالنجوم في طريق هادئ لا يجول فيه إنسان, فردّ بلال ذراعيه وهو يعبث على الحصان قائلاً:

"وَقَدْ أغْتَدِي والطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً كَجُلْمُوْدِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ"

ثم ضحك بأعلى صوته قائلاً: "امرؤ القيس سيداتي سادتي! فقد تغنّى بحصانه والآن اقتبستُ من روعته وإبداعه".

كان الوقتُ في بداية الربيع، وتلك كانت ليلةً مميّزةً, تكلما في أول ساعتين من مغادرتهما على وقع أصوات أقدام الخيل, وقد أثار ذلك توتّره, بالرغم من دهائه لم يستطعْ ملاحظة ما يُفكّر فيه إيليا، ولا يعلم ما قد يقوله, فأصبحَ يعبث بالكلام ويُلقي أشعاراً، وقد أثار صبر إيليا استغرابه وخوفه على عبثه.

قال إيليا: هل سَتُحدِّثني عن حمزة وآزر

– أنا لا أُعرّض أصدقائي للخطر

– إذن تعترفُ أنَّهم متمردون

صمت بلال قليلاً ثم أردف قائلاً: سأخبرك بكلِّ شيءٍ إذا أخبرتني بانتمائك

– وما الذي سيدلُّ على صدق قولك؟

– لم أعرضْ صفقةً كهذه لو لم أثقْ بك، فلو أردنا قتل بعضنا لفعلنا ذلك حقّاً

– لكَ كلمتي إذن.

– حمزة هو جزائري الأصل، وفي الآونة الأخيرة تمّ تهديد عائلته التي تقيم في الجزائر؛ لأنَّه سافر إلى فرنسا وأثار الشكوكَ حوله.

قال إيليا: ماذا عن آزر؟

– قد أصفه رجلاً حزيناً من موت والده, لا أنكر تفكيره ولا كرهه بالحُكم، لكنَّ حقيقة أنَّ أباه قد قُتِلَ بغير حقٍّ ممّا جعل منه رجلاً غاضباً.

– وماذا أصبحتم الآن؟

– هل سنقلبُ الحكم لو استطعنا ذلك؟

– بالطبع ولا تقلْ لي عن العدل فليسَ من العدل إغلاقُ الفَمِ عن الظلم والرأي.

– أنتم مجرد ثلاثة حمقى

– لا تؤمن بالحقّ؟

– أفعال المتمردين لا تُغيّر شيئاً

قال بلال متذمراً: هل أنت لا تنتمي لشيء؟

– بل أنتمي لشيءٍ واحدٍ

– ما هو ذلك؟

– الحقيقة

– إذن لا تفهم معنى

نظر إيليا إلى السماء وقال مقاطعاً إياه بتعمّد: مجموعة الثريا

– هل سنتوقف عن الكلام؟

– ليس لدي ما أضيفه فأنتَ لا تشكّل خطراً

نظر بلال بدوره مستسلماً وقال: أجل تلك مجموعة عنقود العنب من النجوم

نظر إليه إيليا بطرف عينه وضمَّ حاجبيه قليلاً

أكمل بلال معترضاً: نحن نُسمّيها كذلك, كان العرب يُسمّون الثريا باسمها؛ لأنَّهم كانوا يَتبرَّكون بها، ويقولون إنَّ المطر الذي يحدث في أثناء شروقها أو غروبها يَجلب الثروة، وكانت الثريا هي المنزل الثالث من منازل القمر, وكانوا يُشبِّهونها بعنقود العنب لتقاربها, أظنَّ أنَّ عليك التعرّفَ لجانبك العربيّ يا رفيقي.

– حسناً ما الذي تعلمه عن هذا العنقود النجميّ؟

– أنَّه مكوّن من تسعة نجوم

– لكلِّ نجمٍ فيها مسمّى

– فلتُنِرْني إذن، لكنّي سأخبرك قصة نجم الدبران أولاً

– أخبرني

– كان الدبران (النجم) شخصاً فقيراً معدماً، في حين إنَّ الثريا كانت فتاة جميلة وشابة، وقد أبهرت الدبران، فعزم على خطبتها، لكنَّه كان يريد لأحدٍ أن يُرافقه إلى الخطبة، ولم يجدْ أحداً، فذهب إلى القمر وطلب منه أن يحاول بقَدْرِ استطاعته تزويجه منها، فاستجاب القمر وذهب إليها، لكنَّها رفضت، وبعد أن ألحّ عليها قالت: "ما أصنع بهذا السبروت الذي لا مال له؟". فرَجَعَ

القمرُ وأخبر الدبران بما حدث، لكنَّ الدبران أصرّ على الزواج منها، ولم يكن يملك إلّا غنماً، فأخذها كلّها إلى الثريا لكي تقبلَ بالزواج منه، والعشرون غنمةً التي ساقها الدبران إلى الثريا هي ما أصبح يُسمّى (بالقلاص أو القلائص)، الذي أصبح اسماً لعنقودٍ نجميّ يظهر قريباً من الدبران في السماء، والنجمان القريبان من الدبران هما كلباه، اللذان اصطحبهما معه ومع الأغنام، وهكذا أصبح الدبران يدبر (يتبع) الثريا في السماء إلى الأبد ومعه أغنامه، يدبِّرها أينما ذهبت، وبهذا أصبح الدبران رمزاً للوفاء، في حين إنَّ الثريا أصبحت رمزاً للغدر، وقد جاء في بعض الأمثال العربية: "أوفى من الحادي (الحادي الدبران) وأغدر من الثريا".

– قصة مشوّقة

– دورك الآن

– هل ستقومُ بحفظها؟

– لا أرفضُ سبيلاً للعلم

وقفا بحصانيهما ثم تكلّم إيليا وهو يشير بيده إلى النجوم

– النجمُ من أعلى على اليمين يسمّى ستروب, والنجمان أسفله يسمّيان تايغيتا ومايا, وعلى يمينهما من أسفل ساليتو وتحته الكترا, وفي المنتصف بروب, وعلى اليسار السيوني, والنجمان شبه الملتصقين هما أطلس وبلييُوني

سأل بلال: أين تلقّيت تعليمك؟

– في جامعة إسطنبول

– وأقاربك من هناك... علمتُ ذلك من مظهرك

– وهل ستهابُ الآن من انتمائي؟

– أنا قوميّ, لا بُدَّ أنَّك لاحظت ذلك لو أردتَ أذيَّتي لفعلت منذ البداية

– أنتَ قوميّ في المعتقد

– ماذا تعني؟

– حتى لو كنتَ من إحدى المجموعات السرية أو لم تكن, لو أراد جندي إعدامك لفعل

– وهل تقصد أنَّهم يعلمون بأمري؟

– يعلمون بأمر الجميع

– لكن ليس بأمرك

قال إيليا بسخرية: ليسَ لديّ أمر

– ولماذا قاموا بتلك الإعدامات العشوائية إذن؟

– عبرةً لأمثالك كي تتراجع عن مبادئك

صمت بلال قليلاً ثم أردف قائلاً: لن أُنكر أنّهم نجحوا بذلك في أغلب الأحيان

نظر بلال إلى إيليا وقال: لا أستغربُ مدى فخر عمّك بك

ردَّ إيليا ساخراً: أشكرك على ذلك أيّها العجوز

قال بلال: سلمتَ يا بُنيّ.

(17)

"لقد حان الوقت" قالت والدة ليلاف، ثم أردفت قائلة: ستغادرين إلى منزل عائلة الرقبان بعد الغداء.

– حسناً

قام الخدمُ بتحضيرِ المائدة, وجلست ليلاف مع والدتها وشقيقاتها وابنتها روسلين, بدؤوا بتناول الطعام، وراقبت ليلاف تصرفات روسلين كما تفعل دائماً, ثم نهرتها قائلة: روسلين! قلتُ لك أنْ تُحاولي استخدام يدك اليمنى عند تناول الطعام.

– يدي اليسرى أقوى من يمنايَ يا أمّي

قال والدة ليلاف: دعيها وشأنها

اعتادت جدّتها عن الدفاع عنها, كانت تحبّها وتعتني بها أحياناً, وعلى قدر ما اقتربتا من بعضهما، لم تتكلّم روسلين قطّ بالسوء عن والدتها، أو ما كانت تحصل عليه من جفاء الكلام والمعاملة, وذلك جعل الأمور أسهل لكلتيهما. غادرت ليلاف مع شقيقتها إلى منزل الرقبان, حيث انتظرتهما عربةٌ أنيقةٌ يقودها سائق وحصانان, لم يستغرق كثيراً من الوقت حتى وصلت العربة إلى المنزل المنشود, لكنّه كان مختلفاً تماماً عمّا ظنّته ليلاف وشقيقتها.

قالت ليلاف: لقد خُيّل إليّ منزلٌ كالخيمة من دون حديقة, ما بالك بهذه المزرعة؟!

– ذلك للأفضل, قد يظنّون أنّنا فاعلتا خيرٍ جئنا لإنقاذهم

رافقهما السائق إلى الباب كما أمرتاه أن يفعل, وكان جزءٌ من باب المزرعة مفتوحاً, قالت ليلاف دافعة الباب على مصراعيه: "لا بأس في دخولنا، فلا يمكن للأمور أن تؤول بنا للأسوأ".

مضوا بين الحقول وتأنّت ليلاف فاحصةً ما يحيط بالمكان من نظافة وترتيب جميل، حتى وصلوا إلى المنزل الطينيّ.

قالت شقيقتها: على قدر بساطته إلّا أنّه جميل.

طرقت ليلاف الباب, ففتحت لها أخيلة بنظرة حيرة

قالت ليلاف: مرحباً أيتها الجميلة، هل يمكننا الدخول؟

لم يكن أمام أخيلة الرفض على أيّ حال, فقد نظرتْ إلى قفطانهما الحريريّ وشعرهما المُسرَّح بعناية, ومجوهراتهما الباهظة, وعلمت أنَّهما من الشخصيات المهمة التي لا يمكنُ رفضها، وقد أشعرها ذلك بالقلق, فتلك الزيارات لا يمكن أن تكون خيراً، تمتمت قائلةً: "بالطبع... تفضّلا بالدخول".

بقي السائق في انتظارهم في الخارج, نظرت ليلاف إلى المنزل كأنّها تتمعّن في مَعْلَمٍ أثريّ، وقالت: "لديكم منزل لطيف".

"شكراً لكِ" قالت سلمى أثناء دخولها, مبتسمة ومرحّبة بهما بصوتها الهادئ، ولم تُبدِ أيَّ مظاهر للتوتر, لكنَّها كانت تكاد تمشي، وبدا العرقُ على جبهتها، وشدّةُ المرض على وجهها، "ماذا فعلنا لننالَ شرفَ هذه الزيارة؟"

نظرت ليلاف إليها بحذرٍ وقرفٍ، ثم وضعت منديلاً على فمها، وقالت: "عقد سلام".

جئتُ إليهم ووقفت بجانب سلمى، حيث بدوت أنّي أساندها.

قالت ليلاف: ثلاث جميلات! هل أنتن أخوات؟

قلت لها: سلمى شقيقة أخي

سألت ليلاف: آزر؟

نظرنا أنا وسلمى إلى بعضنا وتدفّق الخوف إلينا معاً, لكنّنا تمكّنّا من السيطرة على أنفسنا كي نعرف المزيد, لكنّها لم تسمح لنا بالتفكير في الأمر.

– عمّي هو ضابطٌ يطبّقُ القوانين بحذافيرها، وراودته بعض الشكوك حول آزر، فقرّر الدخول عنوةً لتفتيش المنزل, لكنّي أوقفته وقلت له: إنَّه ليس من اللائق فعل ذلك بوجود الفتيات.

– ذلك لطف منك

– هنالك الكثير للتكلّم عنه

قلتُ بقليلٍ من الحِدّة: وبأيّ هدف؟

همست لي سلمى: جودى

ضحكت ليلاف: لا بأسَ، فهي على حقّ لكن هل تُفضّلين التطفّل أم العنف؟

سألتُها: كيف علمت بوجودنا على أي حال؟

غرقت نظراتها نحوي ورمقتني بنظرة تساؤل: "فتاة ذكية, من أين أبدأ؟".

من حسنِ حظّنا أنَّ والدتي كانت نائمةً, فقد امتلكت ليلاف لطفاً ساخراً, بإمكانها السيطرة بلذةِ أسلوبها على أيّ شخصٍ أمامها, وقد تفحّصت المنزلَ بفضول, وصلنا إلى غرفة والدتي.

قلت لها: أعتذرُ، لا يمكنك دخول هذه الغرفة

– لِمَ لا؟

قالت سلمى: والدتها نائمة فهي مريضة

وضعت ليلاف المنديل على فهمها وقالت: أنتِ تبدين مريضةً.

– إنّه مجرد زكام

– ما بها والدتك على أي حال؟

فتحت سلمى فهما للإجابة فسبقتُها بكذبة كي تبتعد عن غرفة والدتي

– مرضُ السلّ... كما تعلمين... إنَّه منتشرٌ في البلدة الآن، وقمنا بعزلها عنّا

– ذلك مؤسف, هلا نرى غرفتك الآن؟

وصلنا إلى غرفتي وعلى عكس باقي غرف المنزل كانت باردةً وخاليةً من أيّ أثاث زينة, قالت شقيقة ليلاف: "لا تمضين الكثير من الوقت هنا؟"

قالت أخيلة: تكاد لا تدخل المنزل، فهي تبقى في الخارج تعمل وحدها.

– منعزلة؟

قلتُ: تأمليّة

قالت ليلاف: لنذهب أنا وأنتِ لنرى عملك, وأنتِ يا شقيقتي خُذي حقيبتي وابقَيْ هنا حتى أعود.

خرجنا أنا وهي إلى المزرعة، وهي تمشي على الأرض كملكٍ يحبّ بسط النفوذ, كانت تدور بيننا حربٌ باردةٌ، فهي تشكُّ في أمري وأنا أشكُّ في أمرها, بدوت على وشك الاحتراق بحرارة جسدها لتتبخّر أفكاري أمامها في الهواء, لم أشعر بالاطمئنان لوجودها، حيث تراءى لي لوهلةٍ أنَّها سوف تقوم بقتلي.

قلتُ لها: لا تبدين من هذه البلدة

– أجل، فأنا من إسطنبول وأتيت إلى هنا منذ شهرين لزيارة بعض الأقارب

– وهل تقومين بواجبك دائماً أم تدينين لأحدٍ اليومَ؟

ضحكت قائلة: أردتُ الخروج وفعلَ شيءٍ جديد... لِمَ لا أجعل الأمر مفيداً للكل؟ ثم أكملت قائلة: ماذا عنك؟ ما الذي يدفعك لتجهدي نفسك هنا؟

– عَمِلَ والدنا من أجل راحتنا، وبعد رحيله لم أترك المكان من دون عناية؟

– ما الذي تفعلينه بجانب الزراعة؟

– لا أعمل غيرها

– لنتفقّد الماشية

ذهبنا حيث الأغنام والدجاج, حيثُ قمتُ بإخفاء أوراقي ودروسي بين الأخشاب, استطعتُ قراءة ما يجول في خاطر ليلاف, فهي ستتنزّه مع كلِّ واحدة منّا لتحاول اكتشافها, إلّا أنَّ معرفتها بانعزالي أثار فضولها, وعندما اقتربتُ ولاحظتِ الأخشابَ، أدخلت يدَها في الفجوةِ فأخرجت جميع أوراقي.

كانت أوراقي عبارة عن يوميات وخواطر وبعض الأبيات الشعرية التي قمتُ بتأليفها، قالت ليلاف: "يبدو أنَّ لديك عملاً آخرَ".

– لا أعتبرُ هذا عملاً

– ماذا تسمّينه إذاً؟

– وقت فراغ

– تبدين مبدعة

– لن تعلمي وأنتِ لا تستطيعين القراءة باللغة العربية.

مِلْتُ برأسي مبتسمة وبقيت هي صامتة، ثم سألتني: "مَنْ قام بتعليمك؟"

– تعلّمت وحدي

– هل تُعلّمن فتيات المنزل مثلك؟

– لسن على يقين بما أفعل

وقفت لتفكّر قليلاً، ثم ابتسمت قائلة: "سأعطيك عنواني, أنا أقيم في قصرِ تلّ السير بعد قرية الدراويش, لن يكون ذلك صعباً على أي حال".

– وما حاجتي لذلك؟

اقتربت من وجهي ونطقت اسمي ببطء: "جودى, هل تعلّمت اللغة الإنجليزية؟"

– لا

– جودى يُكتب Judah بالإنجليزية ويعني يهودا

قالت ذلك لتُثير غيظي, شعرتُ أنَّها حصلت تماماً على ما أرادته من تلك الزيارة، ثم غادرت منزلنا بعد ذلك التطفّل, قالت سلمى: "يا لها من شخصٍ كريه!"

بعد أسبوعين ازدادَتْ حِدّة مرض سلمى بسرعةٍ لم نستطع مجاراتها, وقد ضاقت ذرعاً من العجز, فهي لم تغادر السريرَ منذ حين حتى ذبلَتْ ووهنَتْ, أما شقيقي (زوجها) أدهم فكان يشاهد نفسه وهو يخسرها، ويحاول أن يخفّف عن أولاده ويجيبهم بأبسطِ الكلام، مُتجنِّباً إعطاء أيّ وعود بتحسّن حالها, وُجِبَ أن يتقبّلوا الواقع وإن كان مريراً, فالذهاب إلى أملٍ غيرِ موجود غالباً ما يكون قضيةً خاسرةً, وكانت لتسبّب لهم ألماً أبديّاً, حتى مع فظاعة الموقف, لكنّي أُعجِبْتُ بقدرته على التحكّم بزمام الأمور, فكان يسيطر على مشاعره وينفجر بها عندما يختلي بنفسه, فالعالَمُ بالنسبة إليه قد غدا رماديّاً, ومع ذلك رأيت الألم وهو يجتاحه عندما رآهم يشاهدونها في تلك الحالة المزرية.

لم يرقد للنوم منذ أسبوعين، وكان يُفضّل أن يبقى ساهراً يجلس بجانب سريرها ويضع كمّاداتِ الماء البارد على وجهها عندما ترتفع حرارتها, كنتُ أسمعها تضحك وتسعل في آنٍ واحد, قال لها: "لنتعارف مجدداً"

قالت: هل تظنّ أنّنا قد نلتقي مجدداً؟

– لستُ أظنّ, بل أعلم أنّنا سنفعل ذلك حتماً

في إحدى الليالي شعرت سلمى باقتراب المنيّة, فبقي أدهم بجانبها وقد أمروني وأخيلة بالاعتناء بأطفالهما، وعدم السماح لهما بالاقتراب من سلمى كيلا تنقل عدوى مرض السل إليهما. وفي ذلك اليوم المشؤوم استدعاني آزر, كان يشعر بالتوتر ويُخفي خوفه وحزنه على ما تفقده هذه العائلة, ذهبتُ إلى مضجعه فأخرج من صندوق صغير المصحف، وقال: "أرجوكِ فلتقرئي لها".

تساءلتُ عن تصرّفه لكنّي لم أخبره بذلك, بل تعابير الفضول على وجهي كانت أوضح من أيّ شيءٍ يُقال، أردف قائلاً: "إنّي فخور بك يا جودى، هل ظننتِ أنّي لا أعلم بما تتجرّئين على فعله".

– هل كلماتك تدلّ على الوداع؟ لا تكن أحمقَ، فوالدتي لن تحتمل ذلك.

– ولا الصغيران أيضاً

– عمَّ تتحدّث؟

– الحرب, سيتمّ تجنيد الرجال قسراً، ويجب أن أحمي أدهم وعائلته من ألّا يتفرقوا

شددتُ يدايَ على رأسي والتوتر يملكني, أخذت المصحفَ من الصندوق، ثم أوقفني قائلاً: "إنّي أعتمد عليك يا جودى لتحافظي على تماسك الجميع".

– تماسك مَنْ بالتحديد؟ لا أدري إذا لاحظتَ لكنّنا عبارة عن دويلات متفرقة

أنزل آزر رأسه بخيبةِ أملٍ قائلاً: "هذا ليس خياري".

– فلنهربْ إذن

– سيكون ذلك خطيراً، وقد يتسبّب في إعدامي أنا وأدهم

صمتنا برهةً ثم قال: "سلمى ستلقى حتفها الليلة أو غد"

قلتُ وأنا أواجه الواقع: إنَّه مرض السلّ، وقد انتشر بين المنازل في الآونة الأخيرة، وتوفيت بسببه أعدادٌ هائلة.

– فلتخبري شقيقنا كيلا يتأمّلَ خيراً

– دَعْهُ وشأنه، فليفعل ما يريد

كنتُ متبلّدةً, أُبقي على تماسكي كي يتشبّث بي مَنْ يريد ذلك دون أن أسقط بهم، كانت غرفة سلمى تبدو مشتعلة من انعكاس الشموع ونار الحطب، وقد أوضح لونها مدى شحوب وجهها, التفت أدهم ثم نهض وقال: "الصغيران.."

– إنّهما بخير

رأى المصحف في يدي فقلتُ: "سأقرأ عليها عَلَّ قلبها يطمئنُّ قليلاً".

أومأ برأسه دون أن يسأل كيف ولماذا, بدا الشحوب على وجهه كما بدا على وجهها, خرج من الغرفة وبقيت أنا وسلمى معاً, جلستُ على كرسيّ بمحاذاة سريرها, كانت تُغمض عينيها وهي مستيقظة, إلَّا أنَّ فتح الجفون مع الشعور بالمرض بدا بالنسبة إليها كإزاحة جبالٍ عن

ناظريها, فالأفضل هي أحلام اليقظة التي لا تُرى مع النور, تلك أقرب لأن تكون أمنية ضمنية لا نحصل عليها واقعياً, ففي الخيال كلّ شيء ممكن.

قرأتُ لها قليلاً, ثم عاونَتْ نفسَها لفتح عيونها والنظر حولها حتى انتهت بالنظر إليّ, ابتسمتُ لها وتوقفتُ عن القراءة, قالتْ: "هل تعلمين ما يجعلني أغادر بسلام يا جودى؟"

انحنيتُ إليها وأنا أصغي بانتباهٍ: "ما هو ذاك؟"

– ابنتي, إنَّي أرى انعكاسها فيك، فهي تمتلك عناداً سيجعلها تحيا حياةً أفضل

عدتُ في جلستي إلى الوراء، وأغمضت عينيَّ قليلاً ثم قلتُ بخيبة أمل: "لا أريد لها أن تتخطّى موت أيّ منّا، فهل يوجد للمرء شعور أسوأ من عدم الشعور أبداً، بل تشعرين وربما أكثر منا أيضاً لكنّك فقط لا تظهرين ذلك".

سعلت وهي تتكلّم بصعوبة: "توقّفي عن الكلام".

– كلّا عليك أن تعلمي... ما فعلته يا عزيزتي، وما أصررتِ عليه، تلك ردّة فعل أفرغت شعورك في الحزن.

صمتت قليلاً ثم قالت: فلتعديني أنَّك ستعتنين بندى وتقومين بتعليمها.

– أعدك بذلك

بعد أن جلستُ مع سلمى لم أستطعْ أن أتمالك نفسي, هُرِعت إلى الخارج وأفرغت ما في معدتي على التراب, شعرتُ بروحي كأنَّها تخرج مع كلّ انقباض, وشعرتُ بعظامِ القفص الصدريّ وهي تقترب من بعضها وتتحد محاولةً أن تساعدني على التنفس, ثم نهضت وأخذتُ نفساً عميقاً، ولاحظت اصفرار يديَّ بعد تلك الطاقة الهائلة التي استهلكها جسدي, ولامست خديَّ، وشعرتُ بحرارةٍ عميقةٍ.

نهضتُ وترنّحتُ, ابتعدتُ بين الحقول وخرجتُ من المزرعة بأكملها, كيف للمرء أن ينفر من مضجعه؟ أن يهرب ممّا يُدعى (المكان الآمن), إنَّها العودة, هي التي يرتعش لها البدن

عندما يرى نفس الأمور مجدداً, تباً لكلِّ لحظةٍ ضاعت هباءً, وتباً لكلِّ لحظةٍ ظننتُ أنَّها لن تكون كذلك.

– جودى.. جودى..

سمعتُ صوتاً متقطعاً ينادي باسمي من بعيد, التفتُّ بحذرٍ لكنّي لم أميّز من كان ذلك, سادت لحظة هدوء بين الأشجار لتحاولَ أن تستمع أيضاً, ومن بينها خرج الرجل الذي كان ينادي باسمي, لم أقوَ على التحرّك, وشعرت بقلبي وهو ينبض بسرعةٍ عَلّه يرهق ويتوقف, ما رأيته أمامي لم أَكَدْ أصدّقه أبداً, كان والدي الذي مات منذ عشر سنوات.

قال وهو يمدُّ يديه لتهدئتي: "ابنتي.. أرجوك ألا تهلعي.."

بقيتُ صامتة وعيناي مفتوحتان على مصراعيهما دون إرادةٍ منّي, أردف قائلاً: "لقد زيَّفْتُ خبرَ موتي, ما سمعتموه لم يكن حقيقياً".

– لكن.. لكنّك.. حقيقيّ!

ابتسم بتوتر

– أجل.. أنا حقيقي

رفعتُ يديَّ في الهواء واقتربت منه بخطواتٍ متردّدةٍ, رفع يده كذلك وكان قلبي ما يزال متصارعاً, لامست أطرافُ أصابعي وهي ترتجفُ يدَهُ، فأخذها إليه مسرعاً ثم حضنني بين ذراعيه بقوة, ضحكتُ كما لم أضحكْ من قبل، فبكى وضحك هو الآخر.

في بادئ الأمر, شرح عن هروبه, جلسنا على هضبة مرتفعة واستمعت إليه لساعة تقريباً، إلا أنَّي شعرتُ أنّها مجرد ثوانٍ معدودة, قال إنَّه أعطى أوراقه واسمه لرجل ليقوم بوضعها على جثةِ رجلٍ ميّتٍ ليظنّوا أنَّه هو, وقد نجح الأمر, لكنّي علّقتُ على اختفائه قائلة: "والدتي محطّمة لقد مرضَتْ وتظنُّ أنَّك ستعود في أيّة لحظة منذ عشر سنوات".

– وإذا عُدْتُ هي على حقّ

لم أضحك لتلك الدعابة

قال: يبدو أنّي أستحقُّ التأنيب

– ستتلقّى ذلك عندما نعود إلى المنزل، أما أنا فسأعفيك الآن

نهض من مكانه قائلاً بتوتر: لن أعود إلى المنزل

– ماذا تعني؟

– أعلم أنَّ الأمر يبدو سيئاً لكنّي لا أستطيع العودة وتعريضكم للخطر

– الخطر؟ وهل يوجد خطرٌ أكثر من آزر

– إنّي اعتمدتُ على رؤيتك فقط يا جودى

– أنتَ.. تريدني أن أراك وأبقيهم في ظنِّ أنَّك مَيْتٌ

– أجل

– لا يُعقَلُ ذلك!

– ابنتي أرجوك

– يصعب عليَّ فعلُ ذلك وأنا أحتمل والدتي كلَّ يوم

– أعلم, لكن هل يُمكنك أن تثقي بي؟

أمسكني من وجنتيَّ

قلتُ له: وهل للفتاة ألّا تثق بوالدها؟

ابتسم قائلاً: لقد فعلتِ القرارَ الصائبَ باختيارك

عُدْتُ إلى سلمى بغبطة جعلتني أشعر بالأنانية, لم تكن الظروف تسمح بذلك, لكن كنتُ ولأول مرة من سنوات لا أشعر بالوحدة أو أنّي أقف على حافة الهاوية, فقد أصبح لي مرجع عندما لا أحبّذ البقاء في ذلك المنزل.

وعندما حَلَّ المساء, بقيتُ بجانبها إلى أن استيقظت, سعلت بشدة فنهضتُ ومسحتُ طرفَ فمها, باتت نحيلةً وسهلةَ الانكسار, قالت لي: "هل حدث لكِ شيء؟"

– هل أبدو بذلك الوضوح؟

– أجل

وضعتُ يديّ على رأسي بخيبة أمل، "يا إلهي, أعلم أنّي أحقر مخلوقات الأرض، لكنّي تشبّثت على منحدر كنتُ قد وجدته قريباً".

ضحكت سلمى بلطف: "بل يُلهمني ذلك، فأنا لا أرغب لأيّ منكم بالنواح... لقد وعدتُ بعدم التحدث، ازددتُ تذمّراً... أترين؟ إنّي أزداد سوءاً"

– يا لكِ من شقية!

– أرجوك أبهجيني في آخر أيامي

– لا تقولي ذلك

– أخبريني على أية حال

– حسناً

أخبرتها بما حصل، وكيف علمتُ أنَّ والدي كان ما يزال على قيد الحياة, ثم أخبرتُها عمّا دار بيننا, أنصتت باهتمامٍ ولم تبدِ تفاجئاً كبيراً مثلما تخيّلتُ, بل كانت هادئة كأنّها تسمع شيئاً مألوفاً, وما كان منّي إلا أن استغربتُ لذلك.

– عديني يا جودى أنّكِ ستُبقين الأمر لنفسك

– لِمَ لا تبدين مستغربة؟

– دائماً ما خمّنت ذلك

– هل علمتِ عن وجوده؟

– أجل

– لقد أخبرني أنّي الشخص الوحيد الذي يعلم

– وقد صدق بذلك!

أخذَتْ بيدي وقالت: أنا أعلم بوجوده وهو لم يُخبِرْ أحداً غيرك.

– إذن لا يدري أنّك تعلمين

– لا, عديني أنَّك ستبقين الأمرَ سرّاً, قد يتعرّض للقتل إذا قمت بمخاطرة

– أعلم.. أعلم..

سعلَتْ مجدداً وتركَتْ يدي, فغادرتها لتحظى بنومٍ عميق.

(18)

مَضَتْ أيامٌ على غياب حمزة, فبعد أن غادر من قبضة ذلك الجندي، سار في طريقه ولم يتوقّف إلى المساء حتى هلك حصانه تماماً, توقّف في الليلة الأولى ومسح على شعر الحصان كأنّه يخفّف من تعبه قائلاً: "أتعلمُ شيئاً عن لسان الخائن؟ إنَّه أشدُّ هلاكاً ممّا ركضت

في الساعات الأخيرة, آهٍ يا رفيقي! لو أنّي حصان خائن لشقيت من الذنوب التي لن تنهض عن ظهري, إلّا أنّي كذلك! كذلك!". بدأ بالنحيب ثم أومأ رأسه بخيبة أمل وهو يمسح رأس الحصان.

– إنَّ الضميرَ عذابٌ دنيويّ من الله, فالأشرارُ يفعلون كلَّ شيءٍ بسعادة وينتهون بعذاب أبديّ, أمّا الأخيار فيشقون بذلك الذنب ليكونَ عذابُهم دنيويّاً ساحقاً، لكنّي خسرتُ الاثنين، خسرتُ الاثنين.

بعد أن قضى عدة أيام في الترحال، ظَنَّ أنَّه لن يجدَ المزيد من التهديد والخوف, وعندما فكّر بالعودة خطر إليه أنَّ الأمر يختلف عند الجميع بفكرهم عن العودة, فهي طريقان, إمّا الدخول إلى البداية أو إلى النهاية, أمّا في حالة حمزة فلم يكن الأمر يتعلّق بذلك أبداً, فهو لم يأبه بالبحث عن شيء جديد, بل فَرَّ من نفسه لأنَّه فعل شيئاً فظيعاً جداً, أراد المغفرة من الله, وعلم أنَّه لن يحصلَ عليها ممّن قام بأذيتهم, وحتى إن حصلَ بمعجزةٍ على ذلك، فهو لن يسامح نفسه أبداً.

غابت معالم المدن والقرى، ووصل إلى طرف صحراء مجدبة, حرقت الشمس عينيه وجِلْدَ وجنتيه, فاحمرَّ وجهه وبدا كأنَّه تعرّض للسلخ, وبعد أن نظر حوله عَلِمَ أنَّه قد ضلَّ طريقه, فقد بدأت رحلته بطريقة خاطئة، جازف بها بالمضي قدماً, كلُّ ما أراده هو العودة للجزائر لرؤية أهله, وفي تلك الأثناء لم يدرِ بداية طريقه من نهايته، تراجع بحصانه قليلاً ثم سمع صوت رجال يقتربون من صلب الصحراء, كان السرابُ في نظر حمزة يجعلهم يتحرّكون كأنَّهم داخل ماء, فبدأت صورتهم كأنَّها على سطح بحيرة مائعة, كانوا ملثّمين ويحملون السيوف, وعندما لمحوه من بعيد أسرعوا بأحصنتهم ليقتربوا منه, احتار حمزة بالفرار أو البقاء، لكنَّه لم يملك خياراً إلا بالمخاطرة، عَلَّه يحصل على إرشاد منهم للطريق, أحاطوه بأحصنتهم دون أن يقولوا شيئاً, أما حمزة فكان عاجزاً عن الكلام, نزل أحدهم عن حصانه وهو ما يزال ملثّماً كالآخرين، وقال: "من أين أنت؟"

قال حمزة: من رمال الصحراء

– هل يمكنك أن تكون أكثر تحديداً؟

– أليس من الخاطئ أن أبلّغ عن قومي؟

لم يمتلك حمزة خياراً آخر, فلو أخبر عن القرية لعلموا أنَّه ضلَّ طريقه, فمنذ أن اقتربوا حوله علم أنَّهم ليسوا أهلاً للثقة.

– وأين قومك؟ أتتجوّل وحدك؟

– أجل

حرّك الرجل رأسه فنزل اثنان عن حصانهما، وأنزلوا حمزة قسراً

قال الرجل: أرشفوه بعض الماء قبل أن يبلع لسانه

ارتوى حمزة بشراهة دون أن يسيطر على نفسه, فكانت تلك عادته, أن تحكمَه نفسُهُ قبلَ أن يتحكّم بها, وقد كان ذلك واضحاً بالنسبة إليهم, قال الرجل: "خذوا حصانه".

– ولكن.. كيف سأتنقل؟

– ألا تعلمُ طريق قومك؟

– أجل, لكنَّهم بعيدون من هنا

– من الأفضل أن تجريَ إليهم وإلّا قطّعتك إرباً

– حسناً سأخبرك بالحقيقة, لقد ضللتُ طريقي وأنا أحاول العبور للجزائر

– هل هناك مسقط رأسك

– أجل

– وهل تتوقّع منّي الأكثر؟

أراد حمزة الرجاء، لكن قاطعه الرجل: "أرشفتك ماءً دون مقابل, هل تظنُّ أنَّك ستجدُ شخصاً أفضلَ منّي؟"

– لا يا سيدي

– إذن فلتجرِ

ذهب حمزة مشياً فتبعوه بأحصنتهم وهم يخيفونه ضاحكين, فجرى راكضاً إلى أن غيّروا مسارهم ووصل لمكان فارغ في الصحراء، فرأى المنيّة تقترب إليه بعد أن سُرِقَ حصانه من قاطعي الطرق, نظر حوله وهو يفكّر "إلى أين الآن؟"

كانت الأمور مختلفة، ولا مجالَ للتقدّم لرؤية عائلته, مشى خطوة إلى الأمام إلى أن خَرَّ على الأرض, "تلك هي النهاية لا محال"، نظر إلى السماء ويداه على مصراعيهما كطائر سقط على ظهره, وبعد عدة ساعات لاحظ أنَّه علق في الصحراء لا محالة, ثم شعر بجفاف فمه وبالقليل من الدُوار, وبدا أنَّ هناك حرارةً تخرج من جسمه البارد, وشعر بقدميه كالجليد, وبتنميلٍ في أطرافه كأنَّ روحه تخرج على مهلٍ، تاركة له الدُوار والشعور بالغثيان، إلى أن بدأت ذكرياته تراوده, طفولته.. أصدقائه.. عائلته.. ابتسم إلى السماء وهو مستعدّ للمُضي قدماً, فالإنسان يحاول جهده أن يتفادى الموت حتى لو عرّض نفسه لذلك, أمّا في لحظة النهاية فيستسلم المرء للسلام, وشعر حمزة بذلك وبدأ بإغلاق عينيه, وفي لحظةٍ كان على استعدادٍ للذهاب، فشعر بيدين تحملانه ثم غطّ في غفوة فإغماء.

لم يلحظ العربة التي كانت تجرّه مع الأحصنة, ظنَّ نفسَه في مرحلة انتقالية بين الحياة والموت, كان يفتح عينيه بصعوبة ويسمع صوت العربة، ثم يعود مجدداً لسُباته, استغرقت الرحلة عدة ساعات إلى أن شعر بتوقف العربة التي كانت تحمله, كان كالطفل, لم يستيقظ إلا بعد أن توقّف تحريكه.

آلمته يداه, أراد تحريكهما لكنَّهما كانتا مقيّدتين خلف ظهره, ثم حاول تحريك قدميه وكانتا مقيدتين أيضاً, عندما بدأ باستعادة وعيه آلمه جسده بأكمله, نظر أمامه فرأى جنديين في العربة, واحد جزائريّ والآخر فرنسيّ, تمتم الفرنسيّ بكلماتٍ غير مفهومة للجندي الجزائري، فأومأ برأسه موافقاً إياه, ثم توجّه الجزائري لحمزة وقال: "هل استعدتَ وعيك الآن؟"

قال حمزة: أين أنا؟ وماذا ستفعل بي؟

– أظن أنّك استعدتَ وعيك؟

– ما الذي يحصل؟

قال الفرنسي شيئاً فترجمه الجزائري: "ما اسمك؟"

– حمزة.. حمزة الشبلي

– من أين جئت؟

– من بلاد الشام

– ما سببُ مجيئك؟

– أصلي جزائري وجئتُ لأرى عائلتي

– جيّد جداً، فنحن في حاجةٍ لأكبرِ عددٍ ممكن

– أكبر عدد من ماذا؟

تجاهله الجندي ثم ترجم ما قاله للفرنسي, توقّفت العربة ثم قام بفكّ الحبل عن أقدام حمزة، لكنَّه أبقى على يديه, ساعده على النهوض والنزول من العربة, فوجد حمزة نفسه في معسكرٍ للجنود, وقف الجزائري بجانبه وقال: "من الآن فصاعداً أنت جنديّ وسيتمّ تدريبك هنا".

– هل وصلتُ إلى الجزائر في عدة ساعات فقط؟!

ضحك الجندي قائلاً: عدة ساعات! لقد أبقيناك عدة أيام وأنت غائب عن الوعي.

لم يعلم حمزة لمن يستعدّون للمقاتلة, فلم تكن هناك حرب ولا صوت إطلاق نار منذ وصوله, هل كان في المكان الخاطئ؟ تمَّ نقله إلى حجرةٍ مع رفيق سكن, كان رجلاً بشعرٍ أشعثَ ولحيةٍ قصيرةٍ, أمّا ملابسه فقد امتلأت بالسواد كعُمّال المناجم, كشف عن يده فبان أنَّه قويّ البنية وجسمه صلب, وعندما جاء إليه حمزة كان مشغولاً بأمر يخفيه، ثم نهض سريعاً لإلقاء التحية عليه, سأل الرجل: "هل أنتَ مرتاحٌ في هذه الحجرة؟"

استغرب حمزة من سرعة استقباله

– أجل أشكرك

– يبدو أنّنا سنتشارك في هذه الحجرة الصغيرة يا صديقي الفأر

قال حمزة: ألا تودّ بقائي هنا؟

– بلى... بلى

وقف الرجل يفكّر لبرهة، ثم مَدَّ يده كي يصافحه

– اسمي عنترة العلي

صافحه حمزة وعرّفه عن نفسه, كان عنترة مليئاً بالشكوك, بدا التوتر على حركته وأسلوب كلامه, كان يضع يده في شعره كلَّ دقيقة, كأنَّه يقوم بتمشيط دماغه ليمتلك سهولة التكلّم, لكنَّ حمزة كان بارداً بدوره, أراد الموت أو إصلاح أفعاله بأيّ طريقة, لاحظ عنترة ذلك وقرّر إشراكه بما كان مشغولاً فيه.

– أعلم مَنْ أنت، فقد سمعت الجنود يتحدثون عن أمرك

– لا أعلم كيف علموا عن رغبتي بالقدوم إلى الجزائر

"أنا أعلم" قال بحماس، "قيل إنَّ قطّاع الطرق قد أبلغو جنوداً عن وجود جزائري تائه في الصحراء, وقد كانوا يرسلون أيَّ معلومات غريبة مقابل المصالح أو القليل من المال، ومن حُسن حظّك أنَّه كان هناك ضابط جزائري وآخر فرنسي، فقرّروا أن يبحثوا عنك في طريقهم، ألا تعلم أنَّ العرب في بلاد الشام يُثيرون الشكوك، وأنت جزائري أرادوا أن يعرفوا عن أمرك.

– لكنَّهم لم يقوموا باستجوابي!

– قالوا إنَّك كنتَ تهذي لكنّك لم تقل شيئاً مهماً، لا أدري على أية حال، كُنْ سعيداً فقط لأنّك على قيد الحياة.

أراد حمزة أن يتكلّم لكن قاطعه عنترة قائلاً – وهو لا يزال يتكلّم بتوتر – : "هل تعلم أنَّ العريف الجزائري يتقاضى أقلّ بثلاث مرات من الفرنسي؟"، عاد إلى حَكِّ رأسه وأردف قائلاً: "أظنُّ أنَّ الأمر ينطبق في كافة المجالات".

أراد حمزة التكلّم لكن قاطعه عنترة دون أن يخفَّ حماسُه: "علينا أن نبدأ التدريب"

– تدريب؟

– هيا!

تمتم حمزة وهو يشعر بتوتّر: حسناً لنخرج

– تدريبي أنا وأنت تبقى هنا

– من أمر بذلك؟

– النقيب، اذهب لسؤاله إذا أردت

– لا بأس

حَكَّ عنترة رأسه، وفي هذه المرة تألّم من أظافره, قال له حمزة: "هل الأمور على ما يرام؟"

– أجل لكنّي أفكّر في طريقة البدء

– فلنبدأ بشكل متسلسل

ابتسم له عنترة: "أجل.. أجل فكرة جيدة"، ثم أردف: "علينا التدرّب على الخروج والعودة في حال قام عدوٌّ بمهاجمتنا".

– لكنّي لا أعلم ما الذي يحصل حقّاً

– تسعون عام من الاحتلال الفرنسي على الجزائر، إذا شاركنا في هذه الحرب سننالُ استقلالنا

همس قائلاً لنفسه مجدداً: "ننال استقلالنا، سنمتلكُ حقَّ المواطنة، وسيتوقف قانون الأهالي"[2].

---

[2] نظام الأهالي هو ترتيب للسكان الأصليين مطبّق في المستعمرات الفرنسية في أواسط القرن 19 حتى 1944 – 1947 تمّ وضعه في الجزائر، ثم تعميمه في كامل مستعمرات الإمبراطورية الفرنسية ابتداء من 1889، هذا القانون طبّق أيضاً في المستعمرات البريطانية، والبرتغالية، والهولندية وهو نظام ظالم.

(19)

مَلَّ شغموم من فقر القرية، ورآها مكاناً قاحلاً, وقد أصبحت خدعاته السحرية لا تُجدي نفعاً، وإنْ أراهم نجماً قد نزل من السماء، فكُلّ ما يحصل عليه هو التبجيل والاستهجان، دون شيء قيّم يمضي إلى جيبه, فكّر بما يمكن أن يحصل عليه لو غادر إلى قرية أخرى، لكنَّ رئيسَهُ أمره بالذهاب إلى أكثر القرى انعزالاً وأقلّها علماً، فقرّر أن يغادر بشكل نهائي، وألّا يعود إلى هذا المكان المشؤوم مجدداً, وقد فاجأه صوت التاجر الذي قام بالضغط على كتفه لينهب جيبه.

– مرحباً أيها المبارك

التفت شغموم ببطء ثم أومأ له بالجلوس

– أرجوك.. تفضّل بالجلوس

جلس الرجل والهموم تظهر على وجهه

– لقد ضاع جهدي.. كلُّ ما عملتُ من أجله قد سقط منّي دون أن أشعر به، أتعلم ما هو سوء الحظ؟ إنَّ جيبي ليس مخروماً كي يسقط منه شيءٌ، أجل, إنَّه سوء الحظّ الذي صعد إلى جيبي وأضاع نقودي.

– يؤسفني سماع ذلك.. هل هنالك شيء يُمكنني أن أساعدك به؟

– أريدك بأن تبصر مكانهم.. لا أدري ما الذي تفعله تماماً, أتريد أن تقرأ فنجاني أو كفَّ يدي؟ أينجح ذلك في إظهار مكان النقود؟

– لا تجري الأمور بهذه الطريقة.

– سأعطيك نسبة من النقود وأوصي باسمك بين التجار في القرى الأخرى, أعلم أنَّ باقي القرى بعيدة جداً، لكن لديّ معارف أصبحوا يتنقلون للتجارة بسبب الفقر، أيّ شيء تريده.

فكر شغموم بفائدة نشر خبره كمبجّل، فربما يحصل بذلك على نقود كثيرة إذا قرّر أن يتنقل, ربت على كتفه ووعده بفعل ما بوسعه.

وفي اليوم التالي أخذ المبلغ الذي سرقه من التاجر ووضعه بين الصخور حيث رآه يمشي, دعاه إلى خيمته ثم أخبره أنَّ حلماً قد راوده بمكان النقود, فأسرع التاجر حيث وصف شغموم، ووجد نقوده، ثم أعطى شغموم نسبة ضئيلة, كانت تلك هي النسبة المتوقعة، لكن لم يعجبه ذلك، وندم على إعادة النقود, فهو يستطيع أن يصنع اسماً لنفسه دون الحاجة لسمعةٍ من أحد، فشعر بالغباء والحماقة، وقرّر أن ينهب أول تاجرٍ يراه في طريقه؛ تعويضاً عن فعلته الخاطئة، وبعدها يغادر القرية بشكل نهائي.

بعد ليلته الأخيرة استيقظ فجراً على صوتِ نقرٍ يطرق بكأسه النحاسيّ, فتح عينيه وهو نائمٌ داخل خيمته، ووجد على الطاولة الخشبية حمامة تطرق بمنقارها لإيقاظه, أمسك بحذائه ليلقيه عليها، ثم توقّف عندما لاحظ رسالة مربوطة بقدمها, نهض بصعوبة من فراشه وتمتم لنفسه: "حمامةُ زاجل لعينة", خطا إلى الطاولة الخشبية وحلّ عقدةَ الخيطِ عن قدم الحمامة، وأخذ الرسالة, سرعان ما طارت الحمامة بعيداً تاركة وراءها ما جاءت لأجله, فتح شغموم الرسالة بيديه المُجعّدتين، وكان مكتوباً فيه: "شكر من إيليا".

زمّ شغموم شفتيه بغرور قائلاً: "يا له من ساذج!!"

فقد أنجز كلَّ ما أراد إنجازه, ثم سرعان ما تدارك خطأ ما ارتكب, فإذا أرسل إليه إيليا, كيف علم بمكانه خارج القرية بجانبهم؟ وقف ليهدّئ من روعه ثم فكّر أنّه لا بدّ أنَّ بلالاً أحمق، وتكلّم عن رؤيته هناك, ومن الممكن أنّه تراءى لإيليا وجود شغموم هناك لحمايته, وبعد هذه الرسالة لا يوجد سبب للقلق, فبعد عدة أيام كان سيغادر تلك القرية البائسة, منذ أن ارتكب أنور باشا حملات الاعتقال بوثائق عن مجموعات سِرّيّة صدرت من القنصلية الفرنسية، أصبحت القرية في كرب, وازداد القمع والفقر, لم يَعُدْ هناك مَنْ يهتمّ لساحر ويساعد على وضع الطعام في طبقه, فسحرُهُ وتفسيره لأحلامهم لن تخرجهم من الحكم, فكّر شغموم في محاولته الأخيرة لتنفيذ آخرِ عرضٍ وبعدها يهمّ بالرحيل.

غادر وذهب لاستخراج الصمغ من الأشجار, كان يزيل الصمغ بخنجره ويضعه داخل صحن فخاري, وبعد أن أخذ حاجته خلط الصمغ بقليل من الماء, ثم دهن بضع فخارات صغيرة من الأسفل، وفكّر أنَّ ذلك سيوفي بالغرض.

وعند الثامنة صباحاً اجتمع الصغار عند طاولة شغموم, وضع شغموم الفخار وقال محدقاً في الصغار: "مَنْ سيدفع مستحقّاته؟"

نظروا إلى بعضهم

قال أحدهم: لكننا لا نملك شيئاً!

قال شغموم نافياً: لا شيء تعني لا عرض

أُحبط الصغير بدر قائلاً: يا ليتني ذلك الرجل

– أيّ رجل؟

أشار بدر برأسه إلى تاجر يقف بعيداً، ويتكلّم مع بضعة رجال, لاحظ شغموم أنَّ الرجل حذرٌ في وقفته، ويحاول التصرّف بطريقة طبيعية, سأل بدراً قائلاً: "ما به ذلك الرجل؟"

– يملك في جيبه المال

– هه! إنّه فقير يا بُنيّ، ربما يملك بضعة دراهم

– لقد ابتاع سلسلة ذهبية بالكثير من المال، يا ليتني أملك ذلك.

– حسناً... توقّف عن التذمّر وهيّا غادروا

– لكن ماذا عن العرض أيها المبارك!

فرد شغموم ذراعيه بالهواء كالأبله لتخويفهم، وقد ضاق ذرعه من هذه القرية الفقيرة, وقد لاحظ الناس بداية سَأَمِهِ، وأنَّه أصبح يطلب شيئاً مقابل أعماله, فخسر تبجيلهم واحترامهم، وأصبح مجرد رجل عادي وأحمق في بعض الأحيان, قال: "ها هو العرض والآن إلى اللقاء".

غادر الصغار وبقيت عيون شغموم على ذلك الرجل, عدّل من مظهره وانثنى في مشيته ليبدو أكثرَ عجزاً وأقلَّ عجرفة، ثم ذهب في طريقه إلى الرجال, من حظِّ شغموم أنَّ الرجال غادروا قبل وصوله إليهم، لكنَّ ذلك التاجر بقي وحده, قال شغموم: "السلام عليكم يا أخي".

رحّب التاجر به وهو سعيد برؤيته قائلاً: "وعليكم السلام أيّها المبارك"

مثّل شغموم وقال: ساعدني على الجلوس.

– بالطبع

وهنا نفّذ شغموم خدعته التي نجح بها مئات المرات, وهو الضغط على كتف الضحية كي يلهيَه الشعورُ عن خِفّة يده عندما تدخل في جيبه, لكنَّ الرجل كان ضليعاً بتلك الحركات فأمسك بيد شغموم داخل جيبه، وقال: "هل تسرقُ منّي أيها المبارك؟"

فتح شغموم عينيه وفمه، ونقود التاجر في يده, قال التاجر: "سأصرخ للناس الآن"

– لا..

عندما أخذ التاجر نفساً عميقاً بالصياح، قال شغموم مسرعاً: "سأعطيك ضعفَ المبلغ".

لكن فات الأوان، فقد شهد بعض الرجال ما حصل, أسرع شغموم إلى خيمته وقال: "سأشرح الأمر انتظروني لحظة".

هُرِعَ لحزمِ أمتعته المهمة فقط، ولكن لحظة دخوله إلى الخيمة وجد ما هو أسوأ, كان بلال واقفاً في منتصف الخيمة، وعندما رآه شغموم تصلّب من تلك الصدمة, ومن كثر شعوره بالمفاجأة لم يشعر بإيليا وجنديين يقفان خلفه، بل كان تركيزه على بلال تماماً، "ما الذي تفعله هنا بحقّ الجحيم؟!

– أُظهرُ الحقّ

ضحك شغموم بهستيريا قائلاً: "الحقّ أيها الشابّ العجوز المخادع!"

– سينتهي وقتك يا شغموم

– لن يحصل ذلك

– لا تملك شيئاً ممّا سرقته من هذه القرية

– وهل تخافُ عليّ الآن؟

– بل احسبْ ما سرقته عَلَّه يكفيك لبلدة ثانية

– لا يعنيك ما لديّ

– إذن تعترف بذنوبك

صاح به شغموم واقترب منه، "هل تظن ذلك سهلاً؟ السرقة إدمان إذا وجدتَ ما ليس لديك يُصبح لك". تحرّك شغموم لأخذ أمتعته، وقال: "غادر الآن.."، لكنّه توقّف عن النطق عندما التفت ليجد إيليا وجنديين, أمر إيليا الجنود بأخذه بينما كاد ألّا يتكلّم.

اجتمعت الحشود بأكملها وهي تشاهد الجنود يأخذون شغموم كالمجرم, أما بالنسبة إليه فكانت اللحظاتُ تمرّ كصورٍ بطيئةٍ, فهو لا يكاد يصدّق أنَّ خدعته لإيليا قد انعكست عليه, فالهفوات لا تظهر إلا بعد فوات الأوان, لم يشأ إيليا قطّ مقابلة والده, ولم يأبه بأمره, أمّا رسالته في الصباح فكانت تمويهاً, والصغير بدر مجرد صبيّ حصل على قطع نقدية لتمثيله, والتاجر جندي, لقد نفّذوا المسرحية المثالية للقبض عليه, وهو من كان يظنُّ أنَّه خبيرٌ بلغة الجسد وخداع العقل, نسي أنَّ عقله مجرد شيء موجود عند الجميع كذلك.

لم يأبه إيليا بذلك الموقف كلِّه أساساً, كلُّ ما أراده هو بعض الأفعال الصغيرة ليُظهر للرائد أنَّه يقوم بمهمته, لكنَّ بحثه عن معلومات عن اللواء لم يتوقّف أبداً, فقد كان يُرسل البرقيات ويسأل عن أحواله بين رفقائه السابقين، ولم يبدُ أنَّه حصل على معلومات مفيدة, أمّا بلال فقد أُصيب بالقليل من الدهشة في تلك الفترة, فهو لم يتخيّل أن يأبه إيليا بإنقاذه بتلك الطريقة, ولِمَ ينقذُ جنديّ شخصاً متمرداً! لم تُعجبه ثقته بإيليا وإعجابه به، فهو يمثّل العدو الذي يقوم بمحاربته, ولم يكن يخفى عليه أنَّ إيليا لديه انتماء للدولة العثمانية, و لم يدرِ لِمَ رأى فيه أخاً يثقُ به دون دليل على ثقته, لكن بدا أمره صحيحاً, وعندما انتهى الأمرُ واختلى بنفسه, بكى بلال بكاءً مريراً

مثل عجوز خسر حياته بأكملها, على قدر ما فعل إيليا بحياته من أعمال شنيعة, فإنَّ بلالاً يفعل ما يعادل ذلك تماماً, أو على الأقل, ذلك ما شعر به.

(20)

وقف عنترة في منتصف الليل أمام باب الغرفة, أيقظ حمزة وقال له: "لا يسعك النوم في أوقات التدريب".

نهض حمزة من فراشه وفرك عينيه بكسل, كان عنترة لا يزال بنفس المظهر، وبدا أنَّه لم يغمض له جفنٌ منذ يوم أمس, أما ملابسه ووساخته فكانت هي ذاتها, وشَعْرُهُ مثل كومة قمامة منثورة ينقصها الذباب, كان يتفحّص قفل الباب بعناية, يمسكه بيده ثم ينحني وينظر إلى الجحر.

قال حمزة: أين الجنود؟

لكن عنترة كان سارحاً في نفسه، وبدا أنَّه يكلّم ذاته من الداخل.

أعاد حمزة كلامه: هل تسمعني؟

التفت عنترة: ماذا قلت؟

– أين الجنود والمتدربون؟

– إنَّهم نائمون

– أنا وأنت وحدنا سنغادر؟

– سنتدرّب فأنت جديد هنا، وطلب منّي الرقيبُ أن أقوم بتعليمك

عاد اهتمام عنترة إلى الباب المغلق, أخرج من جيبه رقاقة خشب رفيعة، وأدخلها في الفجوة بين الباب والإطار الخارجي, ثم قام بإدخال الرقاقة فوق القفل في الفجوة بين الإطار الخارجيّ والباب، وبعدها قام بتغير زاوية الرقاقة في الفجوة حتى أصبحت متعامدةً فوق القفل تماماً وأنزله ببطء, ثم سحبها للخارج بحذر شديد للغاية، وفي تلك الأثناء قام بتحريك مقبض الباب في نفس الوقت، إلى أن تمكّن من إزاحة القفل من مكانة, نظر بفخر إلى حمزة وقال: "لقد نجحنا".

– أنت فعلتها.

ابتسم عنترة وقال لحمزة: "هيا بنا".

عبرا ممراتٍ بين غرف الجنود النائمين, كان عنترة ينظر بحذرٍ وينظر لحمزة وراءه محاولاً إعطاءه ابتسامة ليطمئنّ, غلبه العرق على جبينه، وبدا في حالة قصوى من التوتر, وصل إلى الباب الخارجيّ، وفعل نفس الخطوات تماماً, قال حمزة: "ألم تأخذ مفتاحاً للتدريب..."

قاطعه عنترة هامساً: "صه! ستقوم بإيقاظهم".

أشار حمزة بيده إلى فمه مشيراً بالصمت, عبرا الباب الرئيسي إلى أن وصلا إلى الخارج, اقشعرّا من البرد والنعاس، لكن لم يتراجع عنترة عن وجهته, قال لحمزة: "بضعة أميالٍ ونصل إلى السياج".

مضيا في طريقهما هادئين, بدا كأنهما مشيا نهاراً كاملاً من شدة التعب، حتى وصلا إلى السياج, قال حمزة: "ما هو تدريبي الآن"

وقف عنترة ليفكّر قليلاً وقال: بأن تتعلّم العودة وحدك.

ضحك حمزة وقال: إذا كنتَ هارباً من هنا فأنا ذاهبٌ معك

– لستُ هارباً

– أينما تذهبْ سأذهبْ برفقتك

صكَّ عنترة على أسنانه، وقال: "هل هذه محضُ خدعة؟"

– لستُ أنا من قام بجرّك إلى هنا

صمت عنترة قليلاً ثم أردف قائلاً: "هل تعلّمت طوال هذا الوقت؟"

– بالطبع تعلمت! يا لك من أحمق في ترتيب الخطط

لم يجد عنترة حلّاً بالتخلص من رفيق غرفته, فإذا حاول الهروب والتملّص من الأمر سيقوم بإمساكه لا محالة, وأفضل فرصة لخروجه بأن يأخذه معه, خصوصاً أنَّ حمزة بدا أنَّه لا ينتمي, فهو لا مبالٍ بنفسه, جاء من طريق الموت إلى ذلك المعسكر, ووجد نفسه في شؤون لا تخصّه.

قال حمزة: إلى أين الآن؟

– إلى نالوت

قال حمزة مستهجناً: نالوت؟! في ليبيا!!

– أجل

– لكن لماذا؟

– لنلتقِ برجلٍ

– ستغادر في طريق تستغرق أسابيع، وقد نُقتل في طريقنا من أجل رجل

– بل من أجل ثورة, ليبيا تحتاج إلى أمثالنا لطردِ العدوّ الإيطالي

ضحك حمزة

– يا رفيقي سنموت قبل أن نصل إلى الحدود، وسنغدو قائلين: "على نفسها جنت براقش".

– برفقتك أو لا أنا مغادر

– وماذا عن وطننا؟

– لو نظر العرب إلى أنفسهم كوطن واحد، لما تمكّنت الدول العظمى من الانتداب

لم يملك حمزة خياراً بأن يقتنع, عليه أن يمضيَ بما خطّط إليه هو وبلال, حتى وإن كان من دونه, دعا الله من أجل قوته وصحة خياره, لم يبقَ مجال للعودة في تلك اللحظة، لذلك قرّر المضي قدماً، "يبدو أنّك ستحصل على رفيق".

في تلك الأثناء, قضى بلال عدة أيام وهو يبحث عن حمزة, استسلم في آخر الأمر وهو يفكّر في كبر هذا الكون وصغر صديقه.

"عودي إلى القفص يا عزيزتي" قال بلال وهو يضع الحمامة زينة في قفصها, قطّب حاجبيه من القلق, ثم اجتازه حزن عميق، وشعر بالذنب لانشغاله عن حمزة, لاحظ آزر وجهه فربت على كتفه، وقال: "سنجده, تحلّى فقط بالإيمان".

قال بلال بإحباط: لكنّه لا يضلّ طريقه أبداً

– لا يوجد مَنْ لا يضلّ طريقه

لوّح بيده رافضاً وقال: تلك أمور نفسية يا رفيقي وليست عملية.

تحرّكت زينة بقفصها مسرعة ثم همدت وهي تنظر وراءهم, جاء صبيّ يطلب من آزر القدوم لرؤية شقيقنا أدهم, غادر إلى المنزل وبقي هناك بلال آملاً أن تخطر إليه فكرة للبحث, حدّق في زينة كأنَّها ستأخذه بين جناحيها، وتدلّه على الطريق, همس إليها قائلاً: "آه يا زينة لو كنتِ تنيناً لحكمنا العالَم معاً".

دخل آزر المنزل ووجد أدهم غاضباً, أراد شرح الأمور، فقاطعه أدهم قائلاً: "إنّي أخسر سلمى". أراد آزر تهدئته لكنّه دفعه بعيداً قائلاً: "ما الذي فعلته بحق الجحيم؟".

تفاجأ آزر من سؤاله وقال: "ماذا فعلت؟! لم أفعل شيئاً"

– لا توجد طبيبة تريد دخول منزلنا

ثم أردف بغضب: لا يوجد مَنْ سينقذ حياة زوجتي

– حسناً... اهدأ... سأرسلُ جودى وأتولّى حمايتها

– لن تفعل ذلك، يكفي ما فعلته من أخطار، ولن أخسر المزيد من أفراد عائلتي.

قاطعه آزر قائلاً: عائلتك! أليست عائلتي كذلك

جاءت والدتنا وقامت بمقاطعتهما: "يكفي شجاراً أيّها الأحمقان، لولا جودى وإنتاجها الزراعي لمتنا جوعاً". ثم خرّت بالبكاء قائلة: "إنَّ المرض والشجار يجتاحان المنزل، ألا نستطيع أن نحصل على بعض السلام".

ساعداها على الجلوس

قال أدهم: الأمور بخير يا عزيزتي

التفت آزر وذهب مبتعداً, وبعد أن غادرت والدتي إلى فراشها قلتُ لأدهم: "سأذهب إلى القرية"

– لا أثق بتلك الطريق

– فلنغادر ثلاثتنا إذن، وسأبحث عن طبيبة

صمت أدهم قليلاً ثم قال: استمرّي بالتواجد مع سلمى ولا تتركيها وحدها

– هل ستتصرّف بحماقة الآن؟

جلس بتعبٍ واضعاً رأسه بين يديه، وقال بانتحاب: "إنَّه مرض السلّ، لن تخرج منه بخير أبداً".

أشرت لآزر أن يقوم بتهدئته, وذهبت لتفقّد سلمى, وعند دخولي لحجرتها وجدتها مرهقة لا تتكلّم, كانت غارقة في عرقها وتسعلُ باختناق, وضعت يدي تحت رأسها وقمت بوضع وسادة ثانية, ثم وضعت كمّادةً باردةً على رأسها, أمسكتُ بيدها وأنا أفكّر كيف ستؤول الأمور, وعندما تركت يدها أمسكتها سلمى, أرادت منّي البقاء وقد امتثلتُ لأمرها, كنتُ قد وضعت كتاباً في الحجرة, وكانت تطلب مني أن أقرأ لها دائماً, قلت: "هل تريدين الاستماع؟"

أومأت برأسها, فحملت الكتاب وجلست بجانبها, وبدأت بقراءة قصيدة لـ ابن الفارض:

نَعَمْ بالصَّبا قلبي صبا لأحِبّتِي
فيا حبّذا ذاك الشَّذى حينَ هَبَّتِ

سَرَتْ فأَسرَّتْ للفؤادِ غُدَيَّةً

أحاديثَ جيرانِ العُذيبِ فَسَرَّتِ

مُهَيْمِنَةٌ بالرَّوضِ لَدْنٌ رِداؤُها

بها مرضٌ من شأنِهِ بُرْءِ عِلَّتي

لها بأعشاب الحِجَازِ تَحَرّشٌ

به لا بخَمْرٍ دونَ صَحبيَ سَكْرَتي

تُذَكِّرُني العَهْدَ القَديمَ لأنَّها

حديثَةُ عَهْدٍ من أُهَيْلِ مَوَدَّتي

أيا زاجراً حُمْر الأَوارِكِ تارِكَ ال

مَوارِكِ من أكوارها كَالأريكَةِ

ضحكت سلمى ثم سعلت بضحكتها، وقالت: "اخترتِ شيئاً لطيفاً"

ضحكتُ بدوري وقلت: هل تسخرين من اختياري؟

– أظنّكِ لو كنتِ رجلاً لكتبتِ غزلاً جريئاً

– لو كنتُ رجلاً لأخرجتكم من هنا

– تكونين بتهور آزر

انتظرت قدوم الليل بلهفة, جلست بجانب النافذة وأنا أنتظر الساعة أن تصبح الثانية, لكنّي لم أكن وحدي, فقد أعطاني آزر بعض الكتب ليطمئنّ ضميره, على قدر سعادتي بما حصلت عليه، فإنَّ تصرفاته الأنانية جعلت الجميع ينبذونه, فهو يكاد ألّا يتواجد في المنزل, واستبدل ذلك بأن يُعطي الجميع ما يحتاجون إليه, لكنّي خرجتُ وفعلتُ ما كنت أفعله دائماً, أجعل العالم الذي أريد بداخلي بدل العيش في الخيال.

بنسمة هواء باردة حرّكت خصلةً من شعري، وذهبت في طريقها إلى ثوبي, جلستُ مع ضوء الفانوس والقمر، وبدأت بالكتابة: "بين المضجع والليل, ترقدُ أنفاسٌ تحت النجوم, أجسادها في الويل, بعد خوضها للشجون, ألا ليتني فرقدٌ يطمئنّ دون وعد, يُعطي وهو رفيق للبعد, يقرأ

تحت الأبدان المترنمة, وبمخيلة إنسان في المهد, آهٍ والله إنّي في نعمة الليل, بين ورق صُقل في وجد, فقد رُجم منزلي بما ليس بخير, فآلت إليه أضغان الغير, سأغفو في يقظة امتنان, فالليلة, كنت أنا الفرقدان, سنون تمسح أصنافاً وأنصافاً, تجعل الحاضر لا يملّ الالتفاف, فيا مقلات الليل ابكي واسجدي, كوني كنجم وهين لا يخاف..."

(21)

في ألمانيا, جلس العالِمُ فريتز هابر في مختبره داخل جمعية القيصر فيلهلم، كان يعمل على أبحاثه التي ستصنع أول أسلحة كيميائية في التاريخ, على قَدْرِ ما عارضت زوجته تلك الأبحاث, فإنَّه استمرّ في عمله إلى أن نجح في ذلك.

كان إيليا يقرأ في الجريدة عن اغتيال الأرشيدوق النمساوي على يد شاب قومي يدعى غافريلو برينسيب, لم تكن الجريدة جديدة, فتفاجأ إيليا أنَّ حرب النمسا وصربيا هي ما أشعل حرب أوروبا, وبالطبع, الحقيقةُ لا تخفى عن مسؤول مثله، فقد علم عن حرب قادمة, فبقي مع الجنود عَلَّه يملك المقدرة على حماية عائلته، فمنذ عودته إلى البلاد العربية اقتنع باختياره, فبدل أن يكون ممرضاً اختار العيش كجندي محارب, وبينما كان يقرأ تذكّر احتفال جنوده بإخمادهم لثورة ألبانيا، وكيف أنَّ ذلك كان مجرد هباء, فقد نالت ألبانيا استقلالها بعد أن حاربت مطامعَ بتقسيمِ أجزاءٍ منها لدول كإيطاليا واليونان، وليس بالشيء الجديد أنَّ الأمور بدأت بالانحدار تدريجياً بعد انتشار القومية وبدء الاستقلال عن الدولة, لم يَعُدْ يعنيه الأمر على أية حال, فهو لم يظفر بشيء من حياته إلا بأعمال مشينة، وذاكرة لا تُمحى, وبقيت لديه مهمة خلاص أخيرة، بعدها يلقي بذلته العسكرية بين النيران ليبدأ حياة جديدة.

قام الرئيس باستدعائه, وما كان يوجد خيار لإيليا إلّا أن يتّبع الأوامر ولا يُثير الشكوك، إلى أن توضح الصراعات القادمة, لكنَّ بقاءه برفقتهم عرّضه للخطر في كلّ لحظة، خصوصاً بعد أن أصبح صديقاً مقرّباً لبلال, لكن لم يكن قلقه كبيراً, فكثيرون منهم كانوا يثيرون المتاعب, وكان إيليا أقلّهم إثارة للشكوك.

دخل إلى غرفة الرئيس وجلس قبالته, لم يبدُ رئيساً شرساً، ولم يظهر الخطر على معالمه, بدا شخصاً متفهماً وودوداً بالنسبة لرجل في منصبه.

– أحتاج إلى بضعة رجال للقيام بمهمة مراقبة

قال إيليا بالتركية: لك ذلك يا سيدي

في كُنْهِ الظلام جلس ثلاثة رجال, إيليا وجنديان آخران يراقبون ما يحدث، ومَنْ مِنَ العربِ يعمل جاسوساً للتمرّد, فقد بدأت في ذلك الوقت جمعيات سِرّيّة متمردة تثير الشغب, وكان بعضها خطيراً يُهدّد أمن الحكم العثماني, وفي تلك الليلة أثيرت الشكوك عن متاعب ستحدث في الجوار, فذهب بعض الجنود للمراقبة, كانت تستغرق تلك المهام وقتاً إلى الصباح, وتمركز منهم في مناطق مختلفة على أمل إيجاد دليل عن شخص ما, كانا يتكلمان معاً، وقليلاً ما شاركهم الحديث, كان هو نقيبهم وبذلك انتظروا الأوامر منه.

قال أحدهم: كيف لنا أن ننتهي كمراقبين في أعزل بقاع الدنيا, لا أدري من يختار العيش في هذه القرية المزرية.

رد الآخر: كم اشتاقُ لمهمات الحرب! أتعلم أنَّه دائماً ما يقولون إنَّ الجندي لا يختار الدفاع عن بلده، وأنَّه مجبر على حمل السلاح، وأحياناً أخرى يروننا نتمنى العودة للنوم في سبات هنيء، وكأنَّ ليس لنا رأيٌ أو جرأة! لا يعلمون أنَّ أغلبنا يحبّون الحرب، ويرغبون في أن يكونوا أبطالها, كم أتمنى أن أُعلّق على حيطان جوائز الشرف كي تكون فخراً لأولادي.

– لا أطيق الانتظار كي أرى صبياني جنوداً لا يهابون الدفاع عن أوطانهم, إنَّ لدي صبيّاً أستطيع تخيّل وجهه عندما يصبح رجلاً.

كان الجنديان يعبثان, ولا يبدو أنّهما مهتمان كثيراً بالإمساك بأيّ مشتبه, سخرا بالكلام وضحكا على مواقفِ فشلٍ حصلت لهما في السنوات الغابرة, أمّا إيليا فلم يأبه بأمرهم أو بإطلاق أوامر تجسّس عليهم, حاول قدر الإمكان تفادي الكلام، وإبقاء نفسه منشغلاً كيلا يتوه بسمعه في حال تكلّما عن أمورٍ قد تدلّه على اللواء, فما حدث لتلك المزرعة لم يتوقّف أحدٌ بالتكلّم عن المجزرة, لكنَّه سئم منهما وقرّر اكتشاف الأمور وحده.

سأله أحدهم: إلى أين تذهب؟

– سألقي نظرة في الجوار، أما أنتما فابقيا هنا

– أسرعْ... فإذا وجدنا شيئاً لن نمتلك الوقتَ إذا غاب أحدنا

قال الآخر ساخراً: وهل تصدّق هذا الهراء؟

لم يُعِرْ إيليا الكثير من الاهتمام لهما, فقال وهو يلتفت عازماً على أمره: "سأعود إذا وجدتُ شيئاً مشبوهاً".

كان الظلام دامساً، فأخذ إيليا فانوساً لينيرَ طريقه, ابتعد عن الجنديين مسافةً كافيةً حتى اختفى صوتهما, لكنَّه توقّف فجأةً، لحظةَ سماعه شخصاً يهمس، فأطفأ المصباح واختبأ مسرعاً بين الأشجار, راقب مَنْ كان يهمس فوجد رجلين يتبادلان أشياء لم تكن واضحة, حاول النظر عن كثب، لكنَّه فشل في تحديد ما كانا يمسكانه, لكنّهما كانا بالتأكيد عربيان.

تبادلا بعض الأوراق، فظنّ إيليا أنَّهما متآمران, تغيّرت وجهة نظره منذ أن تلقّى تلك الخطابات, عندما قرّر تحري الأمر بنفسه، تعهّد بألّا يقبض على رجل عربي.. رجل مثل نصف أصله, مع أنَّه كره والده العربي، وكلّ ما تعلّق به، لكنَّه بدأ يرى الأمور بطريقة أوضح, هل كان يتعمّد أن يغفل عن الحقّ أمام أداء مهماته أعمى؟ كانت تؤلمه تلك لأفكار, لكنَّه اضطرّ للمساعدة في بعض الأحيان على حصول ذلك, وفي تلك الليلة قرّر أن يدع الأمر وشأنه, لكن كان قد فات الأوان, فقد وقف الجنديان خلف الأشجار أيضاً، وراقبا برفقته, أومأ إليه أحدهم بأن يخرجوا بصمتٍ، فأومأ إيليا برأسه موافقاً إياه على ذلك, فخرجوا جميعاً وقاموا بإفزاع الرجلين, لاذ أحدهما بالفرار، أمَّا الثاني فتمّ الإمساك به وركله الجنديان حتى خَرَّ على الأرض.

قال الجندي للآخر: علينا تفقّد المكان

قال إيليا: احرسه جيداً، لقد ربطنا هذا الوغد

ولحظة مغادرتهما قام إيليا بإزالة الأصفاد عن يديه, كان الضحية ما يزال وجهه مخفيّاً بالعمامة، فهو لم يستطع الدفاع عن نفسه أمام الجنديين, فقال له إيليا بعد أن حرّره: "انجُ بحياتك".

قال الرجل بالتركية: "أيها اللعين الخائن!"، ثم ضرب إيليا على وجهه حتى أسقطه على الأرض, ثم خرج الجنديان لينهيا على حياة إيليا.

(22)

"عزيزتي سلمى..

أُرسل لكِ ما لن تقرئيه أبداً, إنَّ عدم الصبر يأتي من فراغ ممتلئ... أجل, ذلك تناقض، أن تجدي فراغ الوقت وامتلاء صدرك بالكلام, لكنَّ لسانك يعجز عن النطق, وبذلك ينفد الصبر, وتزورنا الكآبة, إلَّا أنَّي وجدت مكاناً للتكلّم, ما أروع الورقَ يا عزيزتي, وما أروعَ العلمَ، إنَّ أبسط الأشياء التي نفعلها لمصلحة أنفسنا تأتي بثمارها لاحقاً, لكن ماذا عن غيرنا؟

يد واحدة لا تُنجي, ليس عندما تكون باقي الأيادي مبتورة, لقد فقدناكِ, رحمك الله أيتها المَلاك المبهج, والآن مضى أسبوع على غيابك، وأريد أن أشكوَ هذا الاشتياقَ إليكِ, أليست تلك حماقة؟

كم أتمنّى حدوث معجزة تجعل من المطر ألماساً يشرق في ضبابه, والثلج قطناً نتدفّأ في حضوره, لا تحدث الأشياء بشكلها الحقيقي, قد يأتي الصقيع على كوخِ فقيرٍ يأنس في حبّ مَنْ بداخله, إنَّها أعيننا التي تحدّد قيمة النفس والجمال, أمّا الجوهرة التي في قلوبنا فهي تشعّ بعمق تفكير العاطفة, وبمجرد أن أكتبَ لكِ تبتهج جوهرتي، وتشعُّ متراقصةً كأنّك تقفين أمامي, حتى لو لم تصلك هذه الكلماتُ, إنَّها تستحقّ أن تُكتب.

فلترقدي بسلام يا رفيقة روحي.."

محبتك – جودى

لقيَتْ سلمى حتفها قبل عدة أيام من ذلك اليوم, فكتبتُ الرسالة وأرسلتُها للرياح حيث حلّقت مسرعة في الهواء, وأثناء عودتي وجدت ابنتها تجلس عند الحقول, كانت تشبه سلمى بجلستها المنتصبة، ويديها المتشابكتين في حضنها, جلستُ بجانبها، فابتسمَتْ لي وقالت:

– كم يبدو عملك جميلاً عمتي جودى

– إنَّك تبصرين بجمال عينيكِ يا صغيرتي

طوّقتُ يدي حول عنقها وقلت: "هل ترغبين برؤية شيءٍ مذهل؟"

– أجل

– انهضي برفقتي

في نهاية المزرعة أنشأنا باباً خلفيّاً, أخذتها وخرجنا من هناك, قالت لي:

– عمتي جودى لا يجدر بنا الخروج

– لا بأس إنّه آمن

أخذتها إلى النهرِ بالقرب من الجبال التي كانت تتشابك بأشجارها, وجعلَتْ من الظلّ وخيوط ضوء الشمس مكاناً حميميّاً يبدو خيالياً, كانت مليئة بأشجار الصفصاف التي تقف كالفزّاعة, وأشجار التنوب والصنوبر وغيرها الكثير التي تمنح الجمال والطمأنينة في النفس, أمّا الأعشاب الصغيرة فكانت مستوية في قصرها استعداداً لفصل الربيع, وزهور الهندباء البيضاء تتطاير ببطء مع حركة الهواء الذي كان يطلق عليها أمنيات الجمال, قلتُ لها بصوتٍ خافت: "سأعدُّ للثلاث وعندها ستصفقين معي".

بَدَتْ في غمرةٍ من الدهشة بعينين متسائلتين, أومأَتْ برأسها وامتلأت وجنتاها بلونٍ ورديّ كأنَّ الطبيعة رسمتها وأخذت بيدها كي تنتمي, قلتُ لها: "واحد, اثنان, ثلاثة"، صفّقنا معاً بشكل سريع وصاخب، فطارت عشرات الفراشات من بين الأشجار حول النهر, ضَحِكَتْ مندهشةً ثم فتحَتْ يديها كأنَّها على استعدادٍ للطيران حولها, أخذتُ بيديها ورقصنا مع الفراشات حتى شعرنا

بالدوار, سقطنا على الأرض ضاحكتين فتمدّدنا على ظهورنا، ونظرنا إلى غيوم السماء, قالت لي: "يبدو أنَّها ستمطرُ قريباً".

– أظنُّ ذلك

نظرت إليَّ وقالت بصوت رزين: "هل سيكون والدي بخير؟"

– أجل فالموت..

قاطعتني بهدوء قائلة: "لا بأس عمتي جودى لستِ مضطرّةً لقول ما هو مناسب، فأنا بخيرٍ والموتُ نهايةُ الحياة".

– ليس دائماً

نظرَتْ إليَّ مجدّداً فأكملَتْ قائلة: "إنَّ ما يجعلنا نصمدُ عند موت أحبائنا معرفتنا أنَّهم ما يزالون على قيد الحياة، لكن ليس في العالم الماديّ".

– هل تؤمنين بذلك من قلبك؟

– أجل

– وهل سأكون كافرة لو شَكَكْتُ بذلك؟

– لا... إنَّ أسوأ ما قد يحصل للإنسان أن يتوقّف عن صراع أسألته, تفكّري وانظري حولك... هذه الأشجار والفراشات التي حلّقت حولنا، تعيشُ لهدفٍ واحدٍ, إنَّها تولد مع رغبة للبقاء، وجميعها متشابهة, فلا تَرَيْنَ فراشةً تختار أن تمشي على الأرض بدل الطيران, ونحن البشر امتلكنا العقلَ كي نحلم بلمس النجوم والابتعاد إلى أقاصي الأرض, أمّا الله فقد خلق كلَّ شيء بقدرته, وهو قادر على أن يحيي بعد أن يُميت.

– أحبُّ أن أعتقدَ ذلك

– هل تُشكِّكين بداخلك؟

صمتت قليلاً ثم أومأت برأسها قائلة: "لا أرى الأمرَ واقعياً، لكنّي أخاف أن أعلنَ ذلك".

كانَتْ فتاةً ذكيّةً بالنسبة لمَنْ في عمرها, ولهذا أوكلتني سلمى أن أقومَ بالعناية بها, فهي تفكّر خارج المألوف, وتحبُّ أن تجيب عن الأمور بنفسها.

– خُلِقنا بالمنطق, وخُلِقت عقولنا بطريقة فضولية تبدو أحياناً مخيفة, فقد أرادنا الله أن نتفكّر وننظر إلى كلّ شيء بطريقة علمية, نحن والنبات والحيوانات ننمو بطرق منطقية, إنَّ الله قادر على فعل المعجزات، وقد يجعلنا نحلّق في السماء, لكن لو كان الأمرُ كذلك لخُلقنا بهائمَ, وتلك هي نعمة العقل, أن يمضي كلُّ شيءٍ حولنا كي نقوم بتحليله ومعرفة إجابته الواقعية والحقيقية التي لا تخلو من الشكّ.

ضحكت ندى قائلة: عمتي جودى كيف تجعلين كلَّ الأمور في نصابها؟

– عندما تعلمين أنَّه لا بأس بالخوف فلا تصبح الأمور مخيفة

أومأت برأسها ثم قالت: فلنذهب لتفقّد والدي.

نهضنا أنا وهي، ثم مشينا عائدتين إلى المنزل, كانت لديها نظرة قوية جعلتني أقلقُ حيالها, فسلمى كانَتْ على حَقّ, رأيتُ نفسي فيها، إلا أنَّها أشدُّ حزماً في هذا العمر.

وصلنا إلى المنزل، وكان أشدَّ برودةً من الخارج, سمعت بكاء والدتي في غرفتها, ذهبت للاطمئنان عليها، كانت تبكي على سلمى, تلك إحدى لحظاتها التي تتصرّف بها بطريقة طبيعية, وكم تمنّيت لو بقيت على تلك الحال, فجنونها أصاب العائلة بالكآبة, وانتظارها لحضور الأموات كان يقتلنا ببطء, هدأت ثم قالت لي: "هل توفي آزر أيضاً؟"

– لا أظنُّ ذلك

– لا تظنّين!! لكنّك لا تعلمين أين هو

– إنّه معتاد على الغياب عندما يقع في المتاعب

– إذاً سيكون بخير؟

– أجل سيكون بخير

لقد غاب آزر منذ أسبوع, لم أعلم حقّاً إذا كان بخير, لكنّي أردت لوالدتي أن تكون في حالةٍ جيّدةٍ, خطر لي في ذلك اليوم الخروج والبحث عنه, لم أشعر بالخوف من تلك الخطوة، مع أنّي لم أعتَدْ على الخروج إلى البلدة مطلقاً, وفي تلك اللحظة قالت والدتي: "هل سيحضرُ والدك عزاء سلمى أيضاً؟ قولي لآزر ليأتي برفقته".

التفتُّ إلى النافذة كي أتفاداها وأنظرُ إلى شيءٍ آخرَ

أردفتْ قائلةً: تبدين حمقاء يا جودى عندما تنظرين للخارج هل فقدتِ عقلك؟

كنتُ بالفعل أرى والدي في الخارج, بدا أنَّه جاء ليبحثَ عنّي, أردتُ أن أجلبَهُ إلى المنزل وأُريحَ والدتي من تساؤلاتها, لكنَّه لم يكن مستعدّاً لذلك, وأنا من جهة أخرى لم أملك بيدي أن أفعل شيئاً.

ترابطت الغيوم معاً وغطّت السماء بأكملها, سمعتُ دويَّ رعدٍ بينها، لكنَّ ذلك اليوم لم يكن منطقياً في فصل الربيع, وعندما نظرتُ لأعلى الجبال شاهدتُ سراباً ضبابياً... تقدّمتُ بخطواتي ولم أجده في الجوار أبداً، فبقيتُ أمضي حتى وصلتُ إلى النهر، لكن من دون جدوى, وعندها سمعتُ صوتَ رجلينِ يقتربان ويتهامسان, لم أشعر بالخوف منهم، بل اقتربت وأنا أتنقّل بخفيةٍ خلفَ كلِّ شجرة إلى أن أصبح صوتهما واضحاً.

قال أحدهم: إنَّه منزل آزر وفيه المخطط.

– لقد سَمِعْتُ عن حالة وفاة في منزلهم، وبذلك لم يبقَ رجالٌ في المنزل

– أتقول إنَّ المنزل عبارة عن نساء فقط؟ وأين ذهب كلبنا على أية حال

نظرتُ حولي بقلق عندما قال إنَّهما يمتلكان كلباً, لكنّي أردت محاولة البقاء لأطول فترة ممكنة كي أعلم عمّا يتحدثان عنه.

– أظنُّ ذلك, فوالدهم قد توفي منذ ما يقارب عشر سنوات، وآزر لا أحدَ يعلم ما حصل له، أما أدهم فقد جُنِّدَ، وإذا كانت الإشاعات صحيحة فإنَّه سَيُجنَّدُ من قبل جيوش جمال باشا كي يحارب البريطانيين في مصر, تلك خطة لا يعلم عنها الجنود بعد.

– هه! سيصدّقون السفاح ويذهبون إلى قناة السويس لاسترجاع أراضٍ لن تعود أبداً... إذن بقي هناك والدته وشقيقاته التي لا نعلم عن عددهن بعدُ.

– ذلك أفضل، فالنساء لا يستطعن الدفاع عن أنفسهن، سَيَغْضَبْنَ فقط ويرشُقْننا بالحجارة ريثما نسرق تلك الوثائق, قد نتمكّن من إسكاتهن بالسلاح

جاء الكلب الذي تحدّثا عنه ففركا رأسه ووضعا له الرَّسن، كان الكلب يحرّك ذيله بسعادة، لكنَّه سرعان ما توقف وأصبح ينظر تجاه الشجرة التي اختبأتُ خلفها, بدأتُ أتعرّق وكنتُ أتنفّس ببطء, أما هو فهدرَ بصوت خافت وحادّ، وشهّرَ عن أنيابه، فنظر الرجلان ناحيتي وهما ممسكينِ الكلبَ من رَسَنِهِ, ومن حسن حظي أنَّ الغيوم قد تحرّكت تاركةً تحتها موجة من العواصف الفجائية، وبذلك أخفت صوت ضربات أقدامي وأنا أركض مسرعةً باتجاه المنزل, أما الكلب فظنَّ صاحباه أنَّه يهدر بسبب الرياح التي جاءت على حين غِرّة، وعندها هطلت أمطارٌ غزيرةٌ، اضطرا للمغادرة مسرعينِ لحماية أنفسهما من البلل.

عدتُ إلى المنزل ودخلتُ مسرعةً وأنا أبحثُ في غرف أشقائي, قمتُ ببعثرة كلّ ما وجدته في طريقي، ثم هُرِعتُ إلى غرفة والدي، وبحثتُ في أدراجه وبين ملابسه إلى أن وجدتُ صندوقاً خشبيّاً صغيراً, جلستُ على الأرض ثم وضعته فوق قدميَّ، وقمتُ بفتحه، وعندها وجدت ضالّتي, كان فيه مسدس متوسط مع علبة رصاصات بها ما يقارب خمس عشرة رصاصة, حملته وأنا ما زالت يداي ترتجفان، ثم بحثت عن مكان وضع الرصاصات, لم أستطع تحديد مكانها، لكنّي وجدتُ على الجنب زِراً صغيراً، فقمتُ بضغطه، وإذ بالملقم يسقط, كان فارغاً، وعندها حاولتُ معرفة طريقة مَلْئه بالرصاصات، لكنَّ يديَّ لم تتوقفا عن الارتجاف, فبعد كلّ تلك السنوات في العزلة عن الحياة الاجتماعية ومخالطة الناس، وجدتُ نفسي أقفُ أمامَ أعداء، وربما مجرمين، ووُجِبَ عليَّ أن أواجهَهم وأُشهِّرَ السلاح في وجههم, قرّرتُ التوقّف عن المحاولة وأنا أعوّد يديَّ على الثبات عند نقطة معينة, ثم وجّهتُ السلاح على بقعةٍ في الحائط، لكنَّه كان ثقيلاً ولم تثبت يداي أبداً، وبذلك علمتُ أنّي لن أكون جيدة في تخويفهم كذلك, لعنتُ سوء حظي ثم انتقلت لغرفة آزر وأنا أبحث عن روايةٍ ما تصف طريقة تلقيم السلاح, فكّرت لو تعلّمت طريقة استخدامه، لكانَ كافياً أن أملأه بخمس رصاصات, وخمس رصاصات تعني خمسة رجال، وذلك أفضل ما يكون.

بدأتُ أتصفّح أوراق آزر فوجدتُ ترجماتٍ عن (وليام بليك, والت وايتمان, إميلي ديكنسون...) قلت في نفسي: "اللعنة على مشاعر أخي، فهو لا يترجم إلّا الشعر في الفترة الأخيرة... (مدل مارش, كبرياء وتحامل...) أدب والمزيد من الأدب! (بارمينيدس, هرقليطس..) ترجمات فلسفية دون فائدة للحماية... (فيودور دوستويفسكي, أنطون تشيخوف..)".

وجدتُ ترجمةً تُدعى (الجريمة والعقاب)، وعندها أمضيتُ دقائق في القراءة، رأيتُ أنَّ البطل قد اختار فأساً لقتل تلك العجوز, رميتُ الأوراق بعيداً، ووُجِبَ عليَّ أن أفكّر في حلّ مناسب، نظرت في المرآة وأنا أشعر بتوتّر رهيب, بدوت شاحبةً كأنَّ الدماء لا تجري في وجهي أبداً, كنتُ قد قرأت في إحدى المرات روايةً عن فتاة قامت بضرب خدودها كي تُخفي شحوب وجهها, قمتُ بقرص خدودي وصفعتُ نفسي ببطء، فعاد لوني إلى طبيعته, بعدها سرحتُ قليلاً وقمتُ بتنظيف أسناني عدة مرات دون وعي، فقد كنّا نمتلك أشياءَ لا يوجد لها مثيل في منازل القرية، ومن ضمنها عبوة تُدعى معجون أسنان، وهي من صناعة الصيدلانيّ العثماني سليمان الفريد.

عاد إليَّ وعيي وأردتُ أن أخفيَ شحوبَ وجهي، وأن أظهرَ بشكلٍ قويّ, فتذكّرتُ أيضاً أنَّ الفتاة في تلك الرواية قد جرحت إصبعها لتدهن بالدماء شفاهها, فجرحتُ إصبعي ودهنت ببقعة الدماء شفاهي، شُبّه ذلك الفعل بشيءٍ يُدعى (أدوات تجميل)، لم أعلم ما هي أو سبب وجودها في تلك القصص، لكن إذا كانت تُعيد مظهر الحياة إلى الوجوه إذن، فلا بُدَّ أنَّها تمثّل شيئاً جيداً.

انقضت عدة أيام منذ أن غادرا المعسكر، كان عنترة قد جهّزَ خُطّته بالكامل, وعندما عبرا الباب الرئيسي التقيا بصديقٍ له، فوفّر لهما مخبئاً لعدة أيام إلى أن تنقضي فترة بحث الجنود عنهما.

استيقظ عنترة مبكراً وقام بإيقاظ حمزة

– انهضْ لصلاة الفجر

قاما للصلاة معاً, ثم أعدَّ عنترة الشاي مع البلح، وجلسا أمام النار داخل الخيمة المفتوحة, قال عنترة: "سنغادر بعد عدة أيام".

– ألسنا مختبئين في مكانٍ قريبٍ جدّاً؟

– ذلك للأفضل, فالجنود يبحثون في أبعد الأماكن التي يظنّون أنّنا نركض إليها، لكنّنا في الحقيقة متواجدون حولهم، وذلك شيء لن يلاحظوه أبداً.

– الاندماج... خطّة هروب لم أفعلها مسبقاً

– سننجح في ذلك

تحرّكت النار بفعل الهواء، ثم بدأت قطرات المطر بالهطول, سُمِعَ دويُّ رعد، فنهض الاثنان كي يغلقا الخيمة, وسرعان ما ضربت كثافة المطر الأرض بطريقة متتالية, وأضاءت الخيمة في كلّ لحظة بضوء البرق الذي قام باختراقها.

نظر حمزة إلى عنترة وشعر بأنَّه مدينٌ له في الحقيقة, وقرّر أن يبوء له بخطيئته التي جعلته يغادر بلاد الشام, فبعد أن أصبحا مقرّبين، ولقّبه عنترة بأخيه, أراد حمزة أن يظهر على حقيقته, على قدر ما كان مؤلماً بأنَّه أظهر حقيقة نفسه، التي طالما خاف الإفصاح عنها, إلّا أنَّه قد اقتنع بأنَّ المرء يرى التوبة عندما يتقبّل جحيم نفسه، وضع حمزة يده على جبينه، وقد احمرّ وجهه وهو على وشك البكاء، قائلاً: "غادرتُ لأعلمَ أنَّ البعد لا يبدو أن يعني شيئاً".

– لقد أرسلتَ نفسك للموت بالعزلة، وأرسلني الله إليك لتنجو بحياتك

– وهل تثقُ بي بعد أن تفوّهت بحقيقتي؟

– النادم على أخطائه يكون رفيقَ ثقةٍ أكثرَ من الإنسان الذي يتعايش مع أخطائه؛ لأنَّ الضمير يُحسب بالندم، وليس بالأعمال الخيّرة.

مع أنَّ عنترة بدا أبله في أغلب الأوقات، إلّا أنَّه تفوّه بكثير من الحكمة, لا عجبَ في أنَّه خاطر بحياته من أجل المغادرة, فهو لم يكن ليقبل أن يكون جُرذاً لقوم انتدبوا على وطنه، وجعلوا من صوته انتماءً مؤلماً.

قال عنترة: لديّ عائلة تعلَّمَتْ ألّا تنتظرَني

– كم تمتلك من الأبناء؟

– فتاةً وصبيّاً، ولدي زوجة في منزل والديّ

– لم يحالفني الحظّ بالزواج

– ومن امتلكت في حياتك؟

– بعض الرفقاء المُخلصين

– ولِمَ تركت عائلتك في الجزائر؟

– سافرتُ إلى فرنسا وحاولت نيل الثقافة الأوروبية، لكنّي عدتُ خاوي اليدين عندما تمّ رفضي تماماً, بعد ذلك التقيت بصديقي بلال، وذهبت لوجهته إلى قرية سربة تاركاً عائلتي في حيرة.

– يا لها من حياة!

– يا لتلك الطرق المسدودة!

توقّف الرعدُ والمطرُ برهةً، ثم جاء صديق عنترة ليسألَ عن أحوالهما: "لقد جهّزت اثنين من الإبل محمّلين بمؤونة تكفيكم لعدة أيام، بعد ذلك عليكم تدبّر أمركما".

قال عنترة: أشكرك أنا مدين لك

غادر الرجل ثم قال عنترة لحمزة: "سَنُغادر فجرَ اليوم القادم".

(24)

مَرَّتْ أيامٌ على اختفاء إيليا، وذلك سبَّبَ شعوراً بالقلق لدى آزر وبلال, فبدأا بالتفكير في جميع الاحتمالات, إمّا أنَّ إيليا بمهمة سرّيّة تنصّ على تتبّعهم وجمعِ معلومات عنهم، أو أنَّ أمره قد انكشف, أمّا عن خبر اعتقاله، فوضعا احتمالَ أنَّه محضُ خدعةٍ لا محال, كان آزر مرتاحاً بقرار عدم عودته إلى المنزل, فنحنُ لم نرَهُ منذ أسبوعين عندما توارى عن الأنظار خلال تلك الفترة المثيرة للقلق في القرية، التي كانت تزداد جوعاً بسبب تلفِ محصولها وندرة العمل فيها, فقد أصبح وجود الجنود أمراً معتاداً منذُ مدةٍ بعد أن كانت قريتنا في عزلة عن أحداث سياسة العالم, أمّا أولئك الذين ذهبوا كتجار ومشوا مسافات طويلة على مواشيهم للوصول إلى مناطق عملية، فكانوا هم أنفسهم الذين تلقّوا تعليماً من آزر قبل سنوات, وبسبب تعليمهم وقدرتهم على التفكير والحساب لم يخافوا من الذهاب بعيداً، مع أنَّ أعمارهم لم تتجاوز عشرين ربيعاً, وخلال أيامهم في القرية كانوا يرتادون متجرَ القطع الأثرية لدى آزر وبلال وحمزة؛ كي يدفعوا قسطاً بسيطاً من المال مقابل قراءة أوراقهم المترجمة، لكنَّهم مثّلوا نسبةً لا تتخطى ربعَ القرية, حيث كان الباقون لا يزالون جاهلين ومزارعين وعمّالاً، حفظوا القرآن توارثاً عن آباءهم وأجدادهم، كما تعلّموا الصلاة لكن دون تمكّنٍ من القراءة, وبسبب جهلهم بما يحصل وعن كيفية سير الحروب والسياسة في الكتب التاريخية والعالَم، كان تجنيد الشباب أمراً مستهجناً ومخيفاً, فبعضهم بكى خوفاً من الذهاب، وبكت عائلاتهم كذلك دون الحصول على أجوبة تُفهم, أما نحن فغادر منا أدهم تاركاً وراءه ابنيه الصغيرين, لكن على خلاف القرية لم أكن أنا وآزر جاهلين سبب ذلك.

قرّر بلال أن يذهب إلى منزل عمّه، وقابل هناك ابن عمّه بعد أن رفض خليل الخروج لمقابلة أحد, قال الرجل: "كيف أخدمك أيّها العجوز؟"

ردّ بلال: أنا أبحث عن رجل قام بمساعدتي

– من هو ذلك الرجل؟

– جندي يدعى إيليا، قيل لي إنَّه يقطن هنا

– إنَّه يقضي واجبه في المعسكر منذ أيام

اقترب بلال هامساً وقال: "إذا كان في ورطة أستطيع مساعدته"

– وماذا الذي ستقدر عليه أيُّها العجوز؟

– هل تمتلك خياراً غيري الآن؟

مسح الرجل يده على جبينه واحمرّ وجهه من الغضب, قال محذراً: "لا يستطيع والدي معرفة الأمر".

– لك وعدٌ منّي

– لقد قاموا بسجنه دون الإخبار عن السبب, ومنعوا زيارته أو السؤال عنه

تعجّب بلال وربط لسانه عن التعبير, فهو وإن توقّع الأسوأ، لم يظنّ أنَّ أموره قد تنتهي بذلك الشكل, لكنَّه حاول طمأنته: "سأرى ما أستطيع فعله".

عاد بلال إلى مضجعه حيث كان آزر يُقيم هناك منذُ سبعة أيام, شعرا أنَّهما يتعرّضان للمراقبة، فوجود إيليا كمعتقل يعني أنَّه فشل في مهمته، لذا لا بدّ من إرسال شخص أكبر وأكثر عنفاً من إيليا, فكّر بلال إذا ما قام إيليا بحمايتهم، وأنَّ ذلك ما يسبّب له المتاعب, لكن اختار آزر ألّا يكون ساذجاً، وقال إنَّه فشل في أمرٍ آخر, ولم يُرِدْ آزر أن يُعرِّضَ منزله للخطر، فهناك شخصٌ ما يتبعه إلى هناك, علما أنَّهما مراقبين على أية حال، لكن لم يعلما سبب ذلك بعد.

قال بلال: سنذهب إلى خيمة إيليا ونقوم بتفتيش ممتلكاته بحثاً عن دلائل.

قال آزر معارضاً: سَنُتَّهَمُ بالسرقة إذا ما خرج ذاك الذي يدعى إيليا

– إنّه ليس كما تظنّ

– ماذا لو كان الأمر كلّه محض خدعة؟ ماذا لو لم يكن في ورطة، وينتظر منّا أن نتحرك

– لو أراد الإيقاع بنا لفعل ذلك بكلّ سهولة، وقد لمّح لي من قبل أنّه يعرف بأمرنا

– يعرف بأمرنا؟! وما الذي يمنعه من اعتقالنا؟

– قال إنَّ تمرّدنا دون فائدة وإنّنا لن نخرج منه بتغيير فعليّ، لذلك لديّ شعور أنَّ مهمة هنا ليست سياسية، بل بدت لي أنَّها شخصية, فهو دائم الذهاب لمنزل عمّه، وقد أخبره عن احتمال قدومي وكان محقّاً في ذلك، إنَّه يحاول الحذر من شيءٍ ما، لكنّي لم أستطع أن أحقّق في أمره كما يجب.

فتح آزر فمه ليعارض مجدداً لكنَّ بلالاً قاطعه: "يجب أن تثقَ بي في هذا الأمر، وأقولُ لك إنَّه واجب علينا إنقاذ هذا الرجل أو على الأقل مراقبته"، ثم أردف بلال: "نحن لا نترك رجلاً وراءنا".

– وإذا حصل شيء..

– لن يحصل, أعدك بذلك

لم يقتنع آزر بالذهاب مع بلال, لكنَّه قرّر المضي بالأمر من أجل استكشاف إيليا, فقد كان مبدأ آزر "ستربح المعركة إذا فهمت عدوك وتصرّفت مثله", لكنَّه لم يفشِ ذلك لبلال, وظنَّ في ذلك اليوم أنَّ رفيقه ساذج وتمّ خداعه, وإذا لم ينقذ نفسه سيقوم هو بإنقاذه.

ذهبا إلى الخيمة حيث تبع بلال إيليا في إحدى المرّات, كانت أغراضه لا تزال في مكانها, نظر بلال حوله وقد بدا أنَّ كلَّ شيء يشبه إيليا, فعلى ذلك الجبل الموحش تصمد أبسط الزهور والأوراق, وينعزل كلّ شيء في محيط عالمه, بعيداً عن المؤامرات والخوف نبتت في تلك العزلة حياة يتملكها الغموض وجمال الروح والثقافة, وقد أحبّه بلال حبّاً غير مشروط, ووجد فيه أخاً، وتمنّى لو أمكنه ردّ جميل إنقاذه, فالخير دائماً ما يعود إلى صاحبه, وكلُّ يدٍ تساعد تجدُ من يُنهضها لحظة السقوط, فكما تدور الأرض حول الشمس تأتي للإنسان فصولٌ تعود إليه ببدايات جديدة, ومهما حاولنا تغيير ذلك تبقى المعادلة هي نفسها, ولا شيء يبقى عالقاً, كان بلال قلقاً

بأن يجد شيئاً مشبوهاً، وبذلك يكون آزر على حقّ, وقد لاحظ آزر تصرفاته فقال له: "لم أرغب في أن أعارضك من قبلُ, لكن ألم تكن الخُطّة منذ البداية خسارتك لعائلتك ومقتلهم".

– تلك هي القضية، لكن صدّقني هناك شيءٌ مختلفٌ.

– ما هو هذا الشيء؟ إخلاصك أم طيبتك المبالغة؟ لو حصل ذلك لي أو اقترب شخصٌ من عائلتي أقسم إنّي قد أحرقه حيّاً.

– كيف ستعلم وأنت تختبئ؟ ما الذي تعلمه عن وضعهم أو عن وضع أخيك أدهم الذي ذهب إلى التجنيد؟ وماذا عن المنزل الذي لا يملكه رجل في فترة حرب؟ أخبرني أتدرّب النساءَ على السلاح والقتال؟

ألقى آزر الصندوق من يده بغضبٍ وتقدّمَ من بلال ليتشاحن معه بيديه، لكنَّه تراجع عن ذلك قائلاً: "لِمَ تظنُّ أنّي أرسلتُ أدهم؟ لأنّي متمرّد وسيقومون بإعدامه وتعذيبه كي يُخبر عن مكاني! تتكلّم وكأنّنا لم نقرأ عن أفعال جمال باشا وعن وضعه للجنود في قريتنا المنعزلة, مَنْ ظنَّ أنَّ هناك خطراً بسبب مكانٍ كهذا بين الجبال؟ أرسلتُ أدهم كي يدافع عن حياته، وعلى الأقل لن يُعذّب بسببي، وبذلك كذّبت على الطبيب كي يكتب تقريري ولم يمتْ أدهم كما مات والدنا".

صمت بلال واختصر كلامه قائلاً: "فلنكمل البحث".

بقيا صامتين وهما يضعان أغراض إيليا في صناديق, لاحظ آزر امتلاكه للكتب فقال: "إنَّه يمتلك الكثير".

– وبعضها ما يزال مغلّفاً.

– هل يستطيع ذلك الرجل المدعو إيليا قراءتها؟

– لا أظنّ ذلك, لكنَّ الكتب لا تُخبر الكثير، على أية حال فإنَّ الأمر مثل إخفاء إنكلترا عن أوفاركس

ضحك آزر بسخرية، وقال: إنَّها معلومة لا تؤذي أحداً، ويا له من تشبيه! يظنّون أنَّ إخفاءهم قصة أوفاركس سينهض شعبهم بالمسيحية, وماذا لو كان أوفاركس أول ملك في إنكلترا مسلماً؟

إنَّ لديهم هوساً في الديانات، ويُخفون الحقائق دون التكلّم عن الإنجازات, فهو مسلم واستطاع توحيد المناطق لتصبح تحت حكم واحد، وقد أخفوا القطع الذهبية التي كانت في فترة حكمه وقد كتُب عليها (لا إله إلا الله).

– هه! يجب أن نضع بقية أغراضه في صناديق، فلو أردنا التكلّم عن حقائق الكتب التي سنجد نصفها كاذبة، سنبقى هنا إلى الأبد.

– سأضعهم في منزلي فذلك سيكون أكثرَ أماناً

– لكنّك لم تذهب إلى المنزل منذ مدة

– لذلك لن يتوقّع أحد قدومي، وسيكون الأمر آمناً

قال بلال: حسناً... وماذا عن إخراجه من السجن؟

– ماذا عنه؟

– يجب أن نقومَ بتهريبه

– هل أنت جادّ في ذلك؟!

قال بلال: سأقوم بالأمر معك أو بدونك, فهل ستتركني أقوم بالأمر وحدي؟

قال آزر بخيبة أمل: سأقومُ بمساعدتك

– يجب أن نعرف شخصاً من الداخل

– يمكن تدبير ذلك لكنّنا نحتاج إلى المال

– وهل تظنّ أنَّ شرطيّاً سيرتشي؟

قال بلال: أعلم ذلك! بالمال أنت تبتاع الأشخاص أيضاً

– سنقوم بتدبير ذلك، لكنْ علينا إرجاعُ أغراضه فور خروجه

قال آزر كاذباً: بالطبع

أخذ آزر الصناديق إلى المنزل, ولحظة دخوله قامت والدتنا بضمّه كأنه ما يزال طفلاً, قال آزر: "ستكون الأمور على ما يرام".

– ولن تذهب مجدداً؟

– لن أذهب مجدداً

أخذ القليل من الوقت للجلوس معها، ثم ذهب إلى عربة الأحصنة التي تخصّه، وأنزل الصناديق ثم رتّبها في غرفته, كان متلهفاً لرؤية ما بداخلها، وقد نوى تفتيشها جميعاً، وعدم الإصغاء لتفاهة بلال, فهو قد تعلّم ألا يثقَ بأحدٍ، ولا يشفقَ إلّا على رفقائه، وبعد أن قام بترتيبهم ألقى نظرة فخر على ذلك الإنجاز, فيا تُرى ما هي الأوراق التي يحتفظ بها؟ وهل تكفي للمساعدة بإنشاء ثورة عربية؟ ذلك الحلم الذي بدأ بالصعود بأن يتواصل مع الجماعات للاتفاق مع الشريف الحسين وإرسال الحقائق إليه كي يقوم بنجدتهم، وبعدها يحصل الوطن العربي على استقلاله ويتوحّد ليحكم نفسه بنفسه.

لا مزيد من الخلافات ولا مزيد من الاستعمار والمتاجرة مع الغرب على المناطق التي هي ملك لنا.. أجل... سيحدث ذلك وسننال احترام العالَم لنا, كان حلمه بإنشاء شعبٍ متعلّمٍ ولديه اكتفاء ذاتي زراعياً وصناعياً, أراد أن يكون لدينا علماء ليصنعوا تلك العربات التي يقولون إنَّها تُدعى (سيارات)، وإنشاء طرق في القرية مع باقي القرى، وصولاً إلى المدن الكبرى، وذلك بتصنيع المركبات ثم افتتاح المصانع، وبدء التصدير بحراً وبرّاً، وربما جوّاً، فبعد أن سمع عن اثنين يُدعيان بِـ(الأخوين رايت)، واختراعهما أول طائرة، والقيام بأول تجربة طيران ناجحة عن طريق آلة أثقل من الهواء في عام 1903، فربما لا بأس في التفكير جوّاً بعد إنشاء علماء بيننا, ذلك ما أراده من أفرادنا، وذلك ما سيقوم بإنجازه بدايةً بفكِّ أسرار الصناديق.

عاد إلى والدتي لكنَّه وجدها تقف كتمثالٍ، وهي تعقد يديها وتزمّ شفتيها, قال لها: "ما بكِ يا أمي؟"

– لقد جاء رفقاء والدك

– ماذا؟!

اخترق بعضُ الجنود منزلنا، وقاموا باعتقاله وجرّه إلى الخارج، وبذلك تبدّدت جميع طموحاته في إنشاء دولة عربية واحدة متحدة ومتعلمة.

(26)

بين الأودية وتحت الأشجار, نام هناك بين حشرات الربيع القارصة, وعندما التفت لينظرَ إلى سماء الصباح, وجد على يده وأقدامه بقعَ القرصِ التي كانت تأكل جسده, حاول عدم لمسها، لكنَّها كانت تُشعره بالجفاف وتثيرُ الحكَّ بشدة, لمسها بيده فآلمته وصرّ على أسنانه بشدّة مطلقاً صرخة ألم مكبوتة في حلقه كيلا يُلفت انتباه أحد.

نهض بلال من مكانه وتعرّض لتلك في لحظات الصباح التي يتمنّى فيها المرء أنَّ مصيبته ما كانت إلّا حلماً سيئاً, صفع نفسه على الواقع المرير، ثم بكى كالطفل, وفي الغصن الذي يعلو رأسه جلست أفعى تراقب حاله, استشعرته بلسانها ورمقته بنظرةٍ حادّةٍ, تقدّمت إلى الأمام وأسقطت معها بعضَ أوراق الشجرة, رفع بلال بصره ثم نظر إليها قائلاً: "هل ترثين حالي أيتها الأنيقة".

هكذا كان اسمها (الأفعى الأنيقة)، بطولها الذي يصل إلى 50 سم، وبلونها الأصفر الزاهي الذي يمتدّ عليه خطّ برتقالي مرقّط بدوائر سوداء، نهض بلال وحملها بيده فتلوَّت على طول ذراعه, قال: "هل تعلمين أنَّ الناس يموتون من الخوف عندما تلدغهم أفعى؟".

أزاحت برأسها معارضة إيّاه، لكنَّه أعاد رأسها ليُكلّمها مجدداً، "أجل هذا صحيح, أغلب الأفاعي ليست سامّةً، وأنت لستِ كذلك يا عزيزتي, لكنّي إذا لم أمتْ من الخوف قد أموت من الجنون". ألقاها على الأرض فهربت مسرعةً كأنَّها تشعر بالقرف من تذمّره بمأساته.

شعر بجوعٍ شديدٍ, فكّر في الذهاب إلى القرية، لكنَّه تراجع عن قراره وقرّر الاصطياد في الوادي, نظر حوله لكنَّه لم يجد شيئاً ليسدَّ به جوعه, فكّر في نفسه: "لِمَ يَجِبُ أن أدعَ الأفعى تذهب بعيداً". نظر إلى الأشجار وإلى الطيور المُحلّقة، وتلك التي تجلس لتأخذ قسطاً من الراحة, حاول رمي الحجارة على الأغصان، لكن سرعان ما طارت بعيداً, ولم يفلح بلال في شيء يساعده على تخطّي ذلك اليوم، فقال متغنياً بشعرٍ لابن الرومي من قصيدته: بكاؤكما يشفي...

"وأنتَ وإنْ أُفْردتَ في دارِ وَحْشَةٍ فإنّي بدارِ الأنسِ في وَحْشةِ الفَرْدِ

أودُّ إذا ما الموتُ أوفد مَعْشَراً إلى عسكرِ الأمواتِ أنّي مِن الوَفْدِ"

أراد قول شيءٍ من أفكاره، لكنَّه لم يمتلك الطاقة الكافية كي ينطقَ بترنيمةٍ موزونةٍ على بحرٍ من بحور الشعر, فاكتفى قائلاً:

كلّ ما هنالك أنّي أحببتك...

من تأليف والدتي

(وتدٌ قد غُرس في القلب غرسا

فأخذتُ أنادي..

أيا قوم أمي

أيا قوم أبي

هل من مجيب..؟!

لكنَّهم ما استطاعوا النحيب..

فناديتُ..

يا قومَ يعربَ قد كنتم من قبلُ بواسل

لكنَّ بني يعرب في سباتهم القديم

فما كان منّي إلا أن زرعتُ نفسي وَتداً بجانبه

فرقَّ قلبه ومازحني

وزحزح غرسَهُ وزحزحني..

وأخذنا نتجاذبُ أطرافَ الحديثِ حتى لاح الصباح..

ولم نسكت قط عن الكلام المباح..)

ترنَّم في صوته, وفراغُ معدته لم يسمح له بالتفكير في شيء غير الطعام, جلس على الأرض ثم تمدّد على جنبه, كان يقول لنفسه: "جبان أنت جبان, اذهب إلى القرية وأنقِذْ نفسك من الجوع, جبان.. جبان.."

كرّرها لنفسه إلى أن غطّ في نوم عميق, وفي أحلامه عادت إليه الذكريات عمّا فعله مع زملائه من تخريب, دائماً ما كان يُقال عنه قوميّ وثائر, لكن لم يكن واضحاً تماماً ما كان يفعل, ولا عن جماعته السرّيّة, وفي تلك الذكريات التي عادت إليه عاش حقيقته التي لم تكن ظاهرةً للناس, وكانت كالتالي...

خلال سنواته الماضية, قام هو وحمزة وآزر بتدريس الفئات العمرية التي لم تتجاوز الخامسة عشرة على الحرية, ووضعوهم مساعدين لهم عند سرقة الأسلحة وتخريب أماكن عسكرية, قاموا بإثارتهم ليرغبوا في تحرير قراهم والتمرّد على القوانين, لكنَّ بعض الأشخاص في تينك القرى لم يتحمّسوا تماماً لتلك الفكرة الاستقلالية, فهل كان خوفاً من التغيير أم مجردَ جهلٍ لإنشاء تلك الآراء؟ على أي حال, كانت مجرد قضية خاسرة باءت بالفشل, تماماً كوضع بلال عندما استيقظ مجدداً.

نظر إلى السماء وأيقن اقتراب الغروب, كانت الغيوم تقوم بتحريكه بدل أن تتحرّك, أو هكذا بدا له في دُواره, وضع راحة يده على الأرض لتساعده على النهوض, ثم سمع شيئاً يدوس على أوراق شجر ساقطة, لم يخطر في باله مَنْ قد يجده, ولم يمتلك طاقةً للفِرار, استجمع قوته وهو يكاد ألّا ينهض، ثم أمسك بعصا وذهب ليتخلّص من الصوت بنفسه, وعندما تقدّم للأمام, وجد سنجاباً يشقّ طريقه بين الأشجار, أمّا بلال فوقف كحيوانِ صيدٍ لم يأكل منذ أيام, ثم وضع العصا بمحاذاة كتفه وهو يستعدّ للصيد كإنسانِ الكهف البدائيّ, ومن شدة جوعه ألقى العصا فاصطادت السنجاب باحتراف, ضحك بلال بهستيريا مخيفة وأخذ السنجابَ استعداداً لوليمته.

قام بتجميع حشائشَ وأوراقٍ, ثم أخذ غصنين صغيرين, حفر في أحدهما فجوة صغيرة ووضع طرف الآخر في تلك الفجوة, قام بتثبيتهم بين الحشائش التي قام بتجميعها، وفرك الغصن بكلِّ قوته في تلك الفجوة, بدأ يرى شرارة نار تتطاير فأكمل مسرعاً، إلى أن اشتعلت النار وآلمت

يديه, أمسك بالسنجاب الميت وقام بتعليقه على عصا أخرى, نظر إلى وجهه النافق وقال: "أعتذرُ منك أيّها السنجاب على جعلك عشاءً لي"، وسرعان ما قام بشوائه.

بعد أن تناول الطعام بدأ يفكّر في الخروج من تلك المشكلة, وعلم أنَّ آزر يستحيل إيجاده، فلا بُدَّ أنَّهم يقومون بتعذيبه من أجل المزيد من الأجوبة, تمنّى لو ضاع هو وحمزة معاً، واستخدما قوتهما لإنقاذ رفيقهما, لكن ليس بيده حيلةٌ وحده, ولا يعلم أين حمزة اختفى على أيّ حال, لكنَّ الشيء الوحيد الذي يعمله هو مكان إيليا, ولم يجد خياراً إلا بأن يقومَ بإنقاذه أولاً.

(27)

في نهار دافئ في إحدى شوارع تركيا الخضراء, توقف إيليا وهو في الثامنة عشر من العمر أمام كنيسة أرثوذكسية, دخل إليها متردّداً ثم تأمل المقاعد الفارغة، وبضعة طلاب يتلون أغنية دينية, رأى على اليسار رجلاً يجلس وحده, ولم يكن غيره من المتفرجين على أولئك الطلاب. وقف إيليا عند محاذاة المقاعد التي يجلس عليها الرجل، فقال له الرجل: "اجلسْ يا بنيّ إن أردت ذلك".

جلس بجانبه وكان ينظر إليه بين الحين والآخر, بدا في العقد الرابع من العمر, له وجه حادّ وملامح جادة, قال إيليا: "هل أنتَ مستمتع بالعرض؟".

– غالباً ما آتي إلى هنا لأستمع إليهم فهم رائعون

لاذت بينهما لحظات صمت

سأله الرجل: هل تظنّهم كذلك؟

قال إيليا: على صعيد فنيّ... أجل

استغرب الرجل من سؤاله وقال: هل أنتَ مسيحي؟

لم يكن مسلماً أو مسيحياً, لم يحمل ديانة في قلبه إلا عبادة الله وحده, لم يكن ذلك اختياره بل النفس تختار للإنسان مخرجاً عن ذاكرته أو عن سوء حياته, فإمّا أن يصبح المرءُ عدائياً سيئاً أو يصنع لقلبه شكلاً جديداً لا يتطابق مع الحبِّ الذي اختير له أثناء نموه.

– أنا باحث

– وعَمَّ تبحث؟

– عن الله

تفاجأ الرجل بردّه

– لكنَّك في بيت الله

– وعلى بُعد شارعين يوجد مسجد قيل لي إنَّه بيت الله كذلك

– لكنَّك في البيت الصحيح!

ابتسم إيليا نصف ابتسامة ثم نظر إليه بعينيه المحيرتين بلونهما قائلاً: "ألا يؤلمك يا سيدي أنَّنا نتشاجر على بيوت الله، بينما خُلقنا من طين واحد؟ أليس قلبنا هو منزل الله؟ إن لم يكن كذلك لكان بعضنا مصنوعاً من الذهب والآخر من الطين".

صمت الرجل وفمه فاغر من أجوبة إيليا, رآه أحمق, غادر من مكانه مسرعاً وهو يتمتم بكلمات غير مسموعة، إلا بأنَّ إيليا سينتهي بالجحيم.

الديانة والكتب المقدسة كالتكلّم مع الروح, تلك الكتب التي تمتلك إجاباتٍ مختلفةً لكنَّها تنتهي بكلمة الله بطرق مختلفة, لم يحمل القرآن قطّ, لكنّه وجد الإنجيل في منزل عائلة والدته المسيحية, لم يفقه منه الكثير, وكانت لديه شتى الأسئلة لكنَّه اكتفى بقراءة الكتب البعيدة عن الأديان, "الدين هو الوجود, فإذا وجدتَ الرابطَ بين الحياة وكتابٍ مقدّس سأرى الاختيار"، هذا ما فكّر فيه إيليا, وعلى قدر ما حاول الابتعاد عن التفكير في مذهبه، شعر بذنب وجوده, فبدأ محاولته الأولى بالاعتراف لرجل دين في الكنيسة, ركع أمام مريم العذراء وربط يديه أمام وجهه وأغمض عينيه, كان يشعر بالإرهاق من نفسه، ويكاد ألّا يحصل على نوم مريح, فالأفكارُ جنودٌ تهدّد النوم لديه, إذا لم يجد الأجوبة كانوا سيبقون مُوجِّهين أسلحة الأرق إليه, وكانت تلك حربه في كلّ ليلة.

استيقظ إيليا من ذاكرته على صوت جندي: "انهضْ أيُّها الخائن".

كانت يداه مكبلتين, ووجه مليئاً بالدماء والكدمات, فقد قاوم ضرباتهم بجدارة, وفكّر في أنَّه لن ينصاع ويتضرّع إليهم، حتى لو كان لآخر نفس, ولسوء الحظ, كاد بالفعل أن يصل إلى آخر أنفاسه مودِّعاً تلك الحياة.

ولم تكن تلك المرة الأولى التي يُسجن فيها, كان في عادته متمرّداً هادئاً, لا يفقد أعصابه، وإن امتلأ كوبه بالغضب والحقد, فقد سُجن في المرة الأولى عندما كان يدرس في

الجامعة؛ وذلك لأنَّه ساعد صديقه في الفرار بشجار أشعله مع مجموعة طلاب, ولأنَّ إيليا اعتُبِرَ من عائلة أرسلان، حُكِمَ عليه ثلاثة أيام فقط, لم يُشعل سجاراً قطّ، لكنَّه كان مخلصاً لصديقه وكان بجانبه دائماً.

وُضِعَ إيليا على الكرسي وفمه مليءٌ بالدماء, كانت حجرة الرئيس كغرف السجن تماماً, مصنوعةً من الخشب المملوءِ برائحة العفن، والمكان مضيءٌ بشموعٍ جعلته يبدو كجنازة.

جلس الرئيس بثقة ناظراً بفخر على إيليا, اعتدل في جلسته

– جندي من دون اسم, يأتي للعب الورق مع الجنود، ويرتدي بذلته عند الحاجة للتجسس, هل ظننتَ أنَّي أحمق كيلا ألاحظَ ذلك؟

– "ولم يخب ظنّي بك". لقد عنى إيليا ما قاله.

أولائك الجنود منهم من تمرّد ومنهم من قام بفضح أمر مخططاتهم، وذلك أثناء شربهم الخمرَ حتى سيطر على عقولهم, لكنَّ إيليا لم ينجرف يوماً بل أخذهم كحمقى يزوّدونه بكلّ ما يحتاج إليه.

– اصمت فلا يزال لديك الكثير من العظام كي نقوم بتكسيره

حافظ على فمه مغلقاً, فهو لن يحتمل المزيد من الألم الجسدي, قال الجندي لإيليا: "هل تعلم يا إيليا أنّنا متشابهان؟"

لكنّه لم يتفوه بكلمة

أردف الجندي قائلاً: كلانا يعلمُ أنَّ ضعف الإنسان في نفسه, كلانا قد يحتمل التعذيب الجسدي على الروحي, لم أقتلك وأنا أستطيع الحصول على نقطة ضعفك.

خلف الكرسي المصنوع من الخشب المهلهل، برز مسمار مع بضعة مسامير أخرى في أماكن مختلفة, كان إيليا يحرّك يديه متضايقاً من حباله, لكن عندما لاحظ ذلك النتوءَ الحادَّ، بدأ بفرك الحبال إلى أن حرّر نفسه, لكنَّه بقي ممسكاً بالحبال منتظراً اللحظة المناسبة.

قال إيليا: لو كُنّا متشابهين لانقلبت بجانبي من أجل أولئك الأرمن المساكين، ولحرّرتني وقلتَ لي عن مكان اللواء الذي أصدر لي الأمر في ذلك اليوم.

– مساكين؟ ماذا كانوا قبلنا أيُّها الأحمق؟ وهل تنكرُ أصلك, لقد قُمْنا بإعطائهم النظام وتوحيدهم ليصبحوا يداً واحدة, لكنَّهم ناكرون, بل وجاحدون لمن قام بتلقينهم, لكنّي آسف على جنودي الخائنين الذين تشّبعوا من تخلّف هذه الأقوام الجاهلة.

أراد إيليا مماطلة الوقت, فأكمل قائلاً: "لقد أُجبروا على الجهل..."

قاطعه بغضب وهو ممسكٌ بيدي الكرسي الذي يجلس عليه إيليا

– وماذا عن والدك العربي؟ لم يكن مجرد ظالمٍ بل هو أحمق كذلك, ومع مرض السلّ الذي حلّ به بقيتُ حوله أتكلّم عنك وعن رفضك مقابلته, وقد صدّق ذلك كطفل يؤمن بالروايات الخيالية, حيث الأسد صديق الأرنب، والثعلب لا يغدر بمن يسمّيهم أصدقاءه, كما ترى إنَّ أذكى الأشخاص هو من يدرس عن عدوه كما يدرس عن شخصية تاريخية.

عندها قرّر إيليا أنَّه قد حان الوقت المناسب لتحرير نفسه قبل أن يأتي المزيد من الضباط, سحب المسدس من خصر الرئيس وصوَّبه على رأسه طالباً منه أن يلتزم الصمت, قال إيليا: "سأخرج من هنا وستساعدني على ذلك".

– أفضّلُ الموت على الغدر

ابتعد إيليا نحو النافذة ثم قفز دون أن يفكّر في العواقب, ولحظة ركضه سمع دوي الحراس يخرجون، وأصواتُ بوقٍ تُنبّه بفِرار أحدهم, وعلى بُعد عدة أميال وجد بلالاً حيث كان في انتظاره.

قال بلال: لم أظنَّ أن زينة ستصل إلى نافذة زنزانتك

– هيّا علينا المضي

قال بلال: لكن أين آزر؟

– لم ألمَحْهُ حولي

– لكنَّه في إحدى تلك الزنزانات

– لماذا لم تقلْ ذلك في رسالتك؟

– اللعنة! لم أجد مترجماً أثق به ليكتبَ لك بالإنجليزية

سمعا صوت إطلاق نار، ثم سقط بلال على الأرض قال إيليا: "أين أُصِبْتَ؟"

قال وهو يتألم على الأرض: "في كتفي الأيمن".

– هيّا عليك بالنهوض على أقدامك

ساعده على الركض وهو يضع ذراعه اليسرى حول رقبته، حتى وصلا إلى طريقٍ زراعيّ

قال إيليا: اجلس بين الأعشاب سأعود بحصان

– لا يُمكننا أن نفترق الآن

– لن ننجوَ على أقدامنا

– حسناً... لكن لا تتأخر

تمتم بلال لنفسه وهو يتألم: "اللعنة! اللعنة! كيف انتهيت هارباً.."

غاب إيليا أكثر من عشر دقائق، وبلال يسمع الجنود في الأرجاء, حاول أن يكتم حركته وصوته وهو يتألم، وعلم أن لا فائدة من ذهاب إيليا, فهم محاطون تماماً في ظلمةٍ دامسةٍ, إما أن يتركه ليلقى حتفه أو يعود ويُعدمان معاً, رأى أقدام جندي بين الحشائش تقترب ببطء, ذُعِرَ بلال ودعا في آخر لحظات حياته, ثم سرعان ما أمسك به الجندي واضعاً يده على فمه، وقاده خارج ذلك المكان بهدوء، معاكساً طريق السجن, غاب عن الوعي بمجرد تفكيره بذلك، وتمنّى الموت, لكنَّه لم يتخيّلْ قطّ أنَّه سيستسلم بهذه السهولة.

وقد صدق حدسه, فعندما استيقظ شعر بألمٍ خفيفٍ في جسده, فقد اعتُني به جيداً, عادت إليه ذاكرته ببطء، وكانت كالخيال, تذكّر لمحاتٍ ممّا حصل، فلا بُدَّ أنَّه استيقظ في الصباح التالي.

"أراك مستيقظاً" قال إيليا وهو يجلب الماء, دارت على وجهه علامات تعجّب, ثم نظر إلى كتفه ووجد ضمادة ملفوفة بعناية حول الإصابة.

– لا أذكر أنَّك آخرُ ما رأيت

– لن تذكر الكثير

– لِمَ هذا؟

– لأنَّك في اليوم الثالث من غيبوبتك

فتح عينيه من هول صدمته ثم قال: "ثلاثة أيام!!"

– لم تكن الرصاصةُ الشيءَ الوحيدَ الذي طرحك في الفراش, بل يبدو أنَّك عانيت قبل ذلك

– كيف اعتنيتَ بي؟ أعني أشكرك لكن...

– أنا صيدلانيّ، لذا لم أجدْ صعوبةً في ذلك

تناول إيليا معطفه ثم قال: سأخرج قليلاً, إنَّ هذا المكان ناءٍ، ولم أجد قطّ شخصاً حول هذه الخيمة.

قال بلال ضاحكاً: إلّا أنا.

– عليكَ أن تحمد الله أنّي لم أقتلك من قبل

– نحن إخوان ولذلك لن تقتلني

كان إيليا يبحث عن شيء إلى أن وجده، "أريد منك شيئاً"، حمل الظرف في يده ثم ناوله لبلال.

– اقرأ لي هذه الرسالة, فهي مكتوبة باللغة العربية

تفحّصها بلال ثم رفع حاجبيه كأنَّه فهم شيئاً: "أين وجدتها؟"

– لماذا؟ هل تعني شيئاً؟ وما الاسم المكتوب خلفها؟

– أجل... تعني الكثير

قال إيليا: وجدتُها عالقةً على غصن شجرة عند النهر

– انتظر قليلاً

فتح بلال الرسالة ثم قرأها بصمت, أنزل يده على المظروف في حضنه، حرّك رأسه بخيبة أمل

– يا لتلك العائلة المسكينة! هي لا تحتاج لمزيدٍ من المصائب

– أي عائلة؟

– آزر الرقبان, عائلة رفيقي

– ومن كتب هذه الرسالة؟

– شقيقته جودى, يبدو أنَّ اليأس وصل بهم إلى حدِّ أن كتبوا الرسالة لموتاهم

نهض إيليا وقال: "جودى؟ ألا يبدو الاسم غريباً؟"

– غريب جداً, فالكلمة الصحيحة هي جودي, أي بالياء، وهي مذكورة في القرآن وتعني الجبل الشاهق.

– هلا تقرأ لي مضمونها؟

قرأ بلال رسالة سلمى, لكن ظلّ إيليا متعجباً وقال: "كيف يمكن لفتاة أن تكتب وتقرأ؟ حتى الرجال في هذه القرية لا يستطيعون ذلك".

– لا أدري... لكنَّ أمر تلك العائلة عجيب جداً

تطايرت الذبابةُ من مكانٍ إلى آخر، وهي تستكشف كلَّ زاوية من محيطها, فعجبتُ لها, وقلت في خلدي: "إذا كانت الفلسفة تعني للبشري محبة الحكمة، أو طلب المعرفة، أو البحث عن الحقيقة, ما الكلمة التي تدور في خلدها؟".

قرّرت إماطة اللثام عن أمرها, ثبتَتْ في مكاني وجعلتها تستقرُّ على يدي, رفعتها إلى أن اقتربت من وجهي، فجمدت في مكانها وهي تحاول استيعاب تلك الحركة البطيئة.

قلت: ما الذي تعرفينه عني؟ هل أعلم أنّك ذبابة وأنتِ لا تعلمين أنّي بشرية... هل تُميّزين ما أميّزه.. أم أنا أشدُّ دهاءً؟

نظرتُ في تفاصيلها المعقدة, ثم وضعتُ كوباً شفافاً وحبستها فوق يدي, وتساءلت عن حاجتها إلى ستة أقدام، والطائر يحتاج إلى قدمين, هل هناك قانون للارتفاع؟ وهل يُعقل أنَّ الله خلقنا بالمنطق وليس بحكمة عشوائية؟ أحببتُ اعتقاد ذلك.

بعد فترة قصيرة, بدأت الذبابة تشعر بالدوار, فقد كانت تختنق! انتظرتها إلى أن شعرت أنها ستسقط خائرة, وفي تلك اللحظة رفعتُ طرف الكوب لأدخل إليها الهواء, فعاد النشاط إليها, رفعتُ الكوب ثم نفختُ عليها لتحلّق مجدداً, ثم أمسكت بالورقة وكتبت:

"شيء في الهواء, ليس في حدّ ذاته, هل يعقل أنَّه يحمل مادةً ما؟ ما الذي يبقينا على قيد الحياة؟ قرّرت تسمية ذلك الشيء بمادة التنفس, أما الأشياء الأخرى قد تراودني حقيقتها مجدّداً، غادرت إلى القرية لأول مرة, وجدتُ بائعاً يعرض الأقمشة وفي جعبته كتابٌ يُدعى (الأميرة ذات الهمّة), قلت له وأنا أشير إليه: أريد أن أبتاعه".

– أعتذر يا سيدتي فهو ليس للبيع

– سأعطيك ثمنه وثمن قطعة قماش

– بل ستبتاعين ثلاث قطع

– قطعتين؟

فكّر قليلاً ثم قال: أبيع!

انتهت الصفقةُ وأخذتُ الكتابَ بعد أن استغربتُ من وجود كتابٍ للبيع في القرية, لكن بدا أنَّ الرجل لم يعلم عن مضمونه على أيّة حال، وكان يحمله بالجوار على أمل أن يعقد فيه صفقةً ثم يمثّل عكس ذلك، أعطاني الكتاب والقطعتين على مَضَضٍ, وبعد أن عدتُ إلى المنزل شرعت أقرأ الكتاب, علمتُ أنَّ اسم تلك الأميرة فاطمة بنت مظلوم الكلابي، وأنَّ تلك الفتاة خبَّأها والدها وحزن لخسارته مقاليدَ الحكم بولادتها.

لم يكن لي تكهُّنٌ بأنَّها ستخوض معارِكَها بشجاعةٍ وسطَ الرجال، وأنَّها ستصلب انتصاراتها إلى أَسْرِ الإمبراطور الروماني في أوجِ الحروب بين العرب والروم؛ لتدخل على رأس الجيوش العربية إلى القسطنطينية، وتصبح أكثر ملوك العرب في عصرها سعةً ونفوذًا, فعُرِفَتْ بذات الهمة، وقرّرت أن تهبَ نفسها للإسلام، لكنَّ تقاليد القبيلة تجبرها على الزواج من ابن عمها فترفض علناً، لكن لا أحد يستجيب، فتقرّر إتمام الزيجة عاقدة النية على الانتقام من عمِّها وابنه الحارث (زوجها)، متخذة زواجها وقربها منهم سبيلاً يُسهِّلُ عليها عملية الانتقام.

ذلك والكثير من المعلومات التي قرأتها عن تلك المرأة، لقد أحببتها, أدخلت في عروقي قوةً لم أشهد لها مثيل, تمنَّيْتُ لو أعرف المزيد عن فتيات وضعن بصمتهن في تاريخ البشرية.

نادتني شقيقتي أخيلة فدخلتُ إلى المنزل, وفوجئتُ برؤية شقيقة سلمى وزوجة أخيها, نهضتُ وأمسكتها بيدي كأنّي أنا من خسرت شقيقتها.

قالت: عزيزتي جودى, لقد أزهرت كزهرة أقحوان تخلبُ العينين.

– أشكرك... طالما اعتبرتُكِ شقيقتي الكبرى

– أجل... فنحنُ عائلة واحدة

جلسَتْ لتحتسي الشايَ، وبدا أنَّها تحاول أن تجدَ الوقتَ المناسب للتحدّث, تلك كانت ليلى, امرأة لطيفة وهادئة تتّسم بالرزانة والحكمة, وقد كانت تكبر سلمى بعشر سنوات, لكنّنا لم نلتقِ بعد موتها, فبعد مغادرة أدهم وآزر لم يبقَ هناك وقتٌ لتلبية واجب العزاء, أمّا الصغيران فبدأا بالتأقلم دون طرح الكثير من الأسئلة, وربما كانا واعيين لينظرا من خلال أعيينا.

قالت زوجة شقيقها متوجهة بالكلام لي ولأخيلة: أنتن لم تحظيْنَ بالحياةِ المزدهرةِ الاعتيادية, ويجب أن يكون هناك مَنْ يعتني بأمركما.

قلتُ: "وأنا أقدر ذلك, وأعلم ما الذي ترمين إليه، لكن يصعبُ أن أظنَّ هناك من يستطيع الاعتناء بوالدتي غيري, أمّا أخيلة فعليها أن تمضي في حياتها". أردفتُ وأنا أنظر لشقيقتي: "لديها ذكاء وحنكة تكبرها سنّاً, وأعلم أني لن أقلق عليها أبداً".

قالت ليلى: لكنّي تدبرت الأمرَ بالكامل, اتّفقت مع زوجي على الاعتناء بالصغيرين، أمّا والدتك فقد وجدنا من يمدّها بالرعاية من إحدى النساء التي كانت تعمل مربيةً، ثم انتقلت للاعتناء بكبار السنّ, أما العريسان فكانا قد سمعا عن حياتكما, وكما تعلمين يصعب في هذه الأثناء العيش في المنزل من دون رجال.

بدا في وجهي الارتباك ولم أعلم ماذا أقولُ حقّاً.

أردفتْ ليلى: لا تعلمين يا جودى حقيقة الخارج, فقد أخذ الجنودُ المؤنَ, وأصبح الناس يخسرون مزارعهم وليس فقط أرزاقهم, عليكِ العيش مع زوجٍ، حيث سيوفّر لك حياةً بعيدةً عن المخاطر.

– وأتخلّى عن عودة عائلتي معاً؟ كلّا ذلك ليس خياراً.

نهضت ليلى غاضبة ثم صرخت في وجهي: لا تكوني ساذجةً، لقد جنّدوا أدهم، أما آزر فهو كان وما زال أنانيّاً, سأقوم بتوجيهك إلى الحياة الصحيحة حتى وإن عارضتي ذلك.

جاءت والدتي وقد سمعت ليلى

– أنا والدتها, أمّا أنتِ فلتموتي كسلمى

أوقفتها وأنا أتعجب من ذلك

– أمي!

عادت ليلى إلى مكانها

أردفت والدتي: تلك هي الحياة, ربما طعنتُ ليلى في صدرها، لكنَّ ذلك لن يذهبَ بها إلا إلى الواقع.

غادرت وهي غاضبة، فدنوت من ليلى وأنا أنظر إليها بامتنان: "لن أجرَّ رجلاً إلى الحضيض الذي وصلتُ إليه".

حاولت ليلى المعارضة لكنّي أكملت: "سأقوم بإتعاسه! سأفكّر في أمّي وإخواني في كلّ لحظة، وسيجد حداداً بجانبي, لا يوجد شخص يريد ذلك مع كلِّ هذه الأحداث التي تحصل حولنا".

أجهشت ليلى بالبكاء وقالت: "آه يا عزيزتي, غالباً ما تكلّمت عنك سلمى، ودعت لكِ بالسعادة".

تمنَّيْتُ لو تمتلئ عيناي بالعبرات، لكنْ كان مؤلماً ألَّا أستطيعَ البكاء مع مَنْ أحبّ, أمّا الدموع فكانت كالجمرات التي تحرق صدري ولا تأبى أن تخرج وتريح ما بداخلي, لكنَّ ليلى علمت بذلك, وربما الجميع علموا بإعاقتي، ولهذا لم ينظروا إليَّ بعتب.

– سآخذ الصغيرين الآن, وأتمُّ الخطوبة على أخيلة في الأسبوع المقبل, فلتخبريني إذا غيّرتِ رأيك.

– أشكرك

ليلة أخرى، وأرقٌ يشتدّ بي لأنهضَ إلى الخارج, فأخذتُ الفانوس عدة مرات، وتناولتُ كتاب النحو لأبي الأسود الدؤلي، ذلك الكتاب الذي ساومتُ عليه, هَمَمْتُ بالقراءة والكتابة تحت الأشجار، وكنتُ كنجمةٍ بارزةٍ لا تنتمي إلّا للظلام, لكنّي لم أعلم أنَّ الأرقَ استبدَّ بأحدهم في النظرِ لأكونَ له السماء, فقد جلس إيليا مبهورَ العينين في الظلام، وكان ويراقبني, وكنتُ من دمّرَ خُطّته بالدخول وسرقة أغراضه من المنزل، كان قد أبقى في يده رسالتي التي كتبتها إلى سلمى.

(29)

غادر حمزة وعنترة من مدينة ورقلة إلى الشمال الشرقي وصولاً إلى الطريق الذي يربط حدود ليبيا والجزائر, استغرقت رحلتهما عدة أسابيع ليصلوا إلى نصف المسافة التي ستؤدي بهم إلى طرابلس. بعد تلك الأيام الشاقة من الترحال, أخذا استراحةَ يومين في مدينة غدامس, وبعد أن استقبلتهم قبيلة بني وازيت, قاموا بدلّهم على ينبوع عين فرس، كي يأخذوا حاجتهم من الماء لنهاية الرحلة.

وضع حمزة القِدْرَ على الأرض وقال: هل لديك سلاح؟

قال عنترة: ماذا يخطرُ في بالك؟

– قُطّاع الطرق

– سوف نصل بأمان

صمت حمزة مُكفَهِرّاً ووضع ماءً في القِدْر, قال عنترة: "هل أنتَ بخير؟"

أخذ نَفَساً عميقاً وقال: "أنا أترك كلَّ شيءٍ من أجل رحلةٍ مجهولةٍ".

– ليست مجهولةً...

– ليس بذلك الصدد, إنما أفكّر ماذا سأفعل لاحقاً؟

– سنعود, وستحاول البحث عن عائلتك ثم أصدقائك بعد أن يتوقّف الجنود عن البحث عنّا

ثم أكمل قائلاً: لقد فعلنا جيّداً بالفرار، ولم نقبل أن نكون دميً متحركةً.

أومأ حمزة برأسه موافقاً وقال عنترة: "حسناً إذن.."

شكرا مضيفهما، ثم أكملا طريقهما بنهارٍ كامل, وعندما حَلَّ الليل, زعقَ صوتُ الضباع في مكانٍ ما، تحت نجوم الصحراء القاحلة كان من الجيد الشعور بنسيم هواء الصحراء في الليل,

خصوصاً بعد أن لفحتهم الشمس بحرارتها, لم يَعْتَدْ حمزة على هذا النوع من الترحال, لذلك شعر بألمٍ في رأسه، وبتوعُّكٍ في معدته.

– لم أظنَّ يوماً أنّي سأعبرُ مسافةً كهذه

ضحك عنترة

– أراهن أنَّك لم تظنَّ أيضاً أنها ستكون إلى طرابلس

– وليس إلى طرابلس أبداً

أخذ عنترة نَفَساً عميقاً، وأغمض عينيه إلى السماء, بينما جعله البعير يبدو كأنَّه يتراقص تحت ضوء القمر

– آهٍ... كم أشتهي الآن خبزاً من منزلي

– لا يوجد مكان كالمنزل حتى وإن كان رثّاً

– إنَّه شعور الأمان يا رفيقي، لا يعلمه إلّا مَنْ يأمل بالعودة

– وهل من المحتمل أن تعود؟

– وهل أدري إن كنتُ سأموت لحظة وصولي؟ أظنُّ أنَّنا لا نملك إجابة لأي شيء

لاذت بينهما لحظة صمت، وسكتت الضباع معهما كأنَّها تتلصّص على ذلك الحوار, لم يبدُ الأمرُ أكثرَ راحةً, فقد عَلِم كلاهما أنَّه سرعان ما ستزول لحظة انضمامها للثورة.

وبعد أن وصلا إلى جبل نالوت, رحّب قريب عنترة بوصولهما, ثم أدخلهما لينالا قسطاً من الراحة، بعد أن قضيا أسابيع في رحلتهما، وفي المساء جلسا مع ذلك الرجل الذي قام باستقبالهما.

قال لحمزة: هل تعلم أنَّ لعنترةَ أصولاً ليبية؟

نظر حمزة بذهول إلى عنترة

– لا لم يُخبِرْني بذلك

ابتسم عنترة وقال: "هل ستدعني أخبرُهُ بذلك؟"

– دع الأمرَ لي, إنَّ والدته ليبية وقد تربّى على يد خاله، وخَمِّنْ مَنْ كان رفيقه وابنُ خاله أيضاً في الطفولة؟

– لا أصدّق ذلك!

قال الرجل: أنا أتفهّم وجوده هنا, لكن لِمَ ركبت الرياح برفقته إلى نالوت؟

– لقد وجدتُ عنترةَ في ظلمتي، ثم رافقته بعد أن ظننتُ أنّي غدوتُ وحيداً

– وهل تدافع عن شيءٍ ليس في جذورك؟

– الجذور تختلف لكنَّ الأرضَ واحدةٌ, هكذا نحن

ضحك قائلاً: أراهنُ في حياتي أنَّ هناك مَنْ يُصدّق هذا الهراء

في الخارج سمعوا صوت الحشود تنهض وتثور على حين غِرّة, خرجوا ليروا ما بالهم، وإذا برجل يقتادهم ويصرخُ مهيناً حاكم البلدة.

قال قريب عنترة: إنّه خليفة بن عسكر

قال حمزة: ومَنْ هذا الرجل؟

لكنَّ قريب عنترة كان قد غادر بين الحشود, نظر إليه حمزة ورآه بربع القامة, يميل للنحافة, لونه أصفر، وعيناه ضيّقتان, ثم شاهده يركب خيله بمهارة ويقود الحشد للمزيدِ من الغضب, سأل حمزة رجلاً آخرَ عمّا يحصل, فقال الرجل: "إنَّ خليفةَ حادُّ الطباع وعصبيُّ المزاج، وقد نجح أحد الجنود باستفزازه بطلبه للزواج من فتاة نالوتية؛ ليُهينَ هذه القرية, فثار عليه خليفة مقتاداً إيانا".

كان يصعب سماع الرجل، وبصعوبةٍ التقط حمزة ما نطق به, سأله حمزة وهو ينظر إلى خليفة: "ألا يخافُ أن يقوموا بإردائه بالرصاص؟".

– رأيه كالعقيدة لا يتراجع عنه, وما قام به ذلك الجندي الإيطالي سيندم عليه لاحقاً

كانت ليبيا تحت الغزو الإيطالي في طرابلس، بدعوى أنَّ الإيطاليين جاؤوا لتحرير الليبيين من الحكم العثماني، وبالرغم من المقاومة العنيفة من الليبيين للغزو، قامت الدولة العثمانية بتسليم ليبيا إلى إيطاليا، بعد توقيع الطرفين اتفاقاً تعترف بموجبه الأستانة بامتلاك إيطاليا لليبيا، فيما عُرِفَ بمعاهدة لوزان, وكان خليفة بن عسكر[3] وأمثاله كسليمان الباروني، ومحمد سوف المحمودي، وعبد النبي بالخير وغيرهم، ممّن حاولوا تحرير بلادهم من ذلك الحُكم.

بعد أن بقي حمزة عدة أيام مع عنترة, أثاره الفضول بأن يعرفَ أكثر عن خليفة, وعمل على أن يكون أحد رجاله الذين لم يتجاوز عددُهم تسعةً في ذلك الحين, وفي لقاء لهم من أجل إنشاء كمين للجنود الإيطاليين وسرقة أسلحتهم, قال خليفة: "سنجتمع في قصبة يوجين التي تقع على بعد كيلومترات من نالوت".

نام حمزة في فراشه وهو يفكّر كيف آلَتْ إليه الأمور, لم يكن قد غادر بلاد الشام منذ وقت طويل, اشتاق لحياته, لأصدقائه, آلمته تلك اللحظة وهو يخونهم بمساعدة الجنود على الإمساك بهم, وتساءل في نفسه هل عرف بلال وآزر عن خيانته أم لم يحصلوا على تلك الفرصة؟ أغمض عينيه الدامعتين، واستمرَّ بالاستغفار إلى أن أشرقت الشمس, وآن وقت المهمة.

انضمّ عنترة إليهم في الصباح, وقاموا بسرقة الأسلحة، وتمّت المهمة بنجاح, لكن في لحظة مغايرة بينما كانوا يحتفون بانتصارهم، كان عنترة قد تلقّى رصاصة في رأسه, نظر حمزة إليه مصدوماً بمظهر رفيقه وهو ينزف بغزارة تحت رأسه, سقط على قدميه ووضع يديه على وجهه.

محاولاً فهم ما يحصل, إلّا أنَّه لم يفهم ذلك أبداً, وفي اليوم التالي حمل عِدّته مقرّراً مغادرة نالوت, لحقه خليفة بن عسكر وأعطاه حفنة من النقود وبعض الطعام والماء.

قال له حمزة: ما رأيتُه فيك لم أرَهُ في رجلٍ من قبل, ولا أندم لحظةً على قدومي إلى هنا

[3] خليفة بن سعيد بن علي بن عسكر، أمازيغي ليبي وأحد قادة الجهاد في ليبيا ضد الغزو الإيطالي. توفي في يوليو 1922

قال خليفة: اعتنِ بنفسك.

غادر حمزة وهو يُفكّر أنَّ التاريخ سيكون عاراً إن لم يذكر خليفة بن عسكر, فقد حرّر بلدتي نالوت وكاباو من أيادي الإيطاليين, وبينما كان عائداً إلى وطنه أضاع طريقه من دون مرشد, فوقف على الجمل في منتصف الصحراء، لم يكن هناك مكانٌ للاختباء فيه, لا من الشمس ولا من مخلوق يحاول أذيته, لكن وُجِبَ عليه المخاطرة وإكمال طريقه, فلم يكن هناك مجالٌ للعودة بعد أن قطع تلك المسافة الهائلة التي أخذت وقتاً طويلاً, وبعد عدة أيام فرغ منه الطعام والماء, ولم يبقَ معه إلا النقود, نزل عن الجمل وألقى بها بغضب على الأرض، قائلاً: "ما فائدة النقود في منتصف الصحراء اللعينة!".

شعر بالدُّوار, وبدأ يشاهد سراب ماء, كان يركض إليه لكن انتهى بالمزيد من الرمال, وبعد أن أصبحت رؤيته حمراء كلونِ عينيه, خَرَّ على ركبتيه وسقط على الأرض, كانت تلك – ولا بُدَّ – لحظة حياته الأخيرة.

(30)

في منزل واسع ومزرعة فسيحة بقينا أنا وأمّي وحدنا, تزوّجت أخلية وغادرت إلى منزلها الجديد, لم يكن هناك مالٌ كافٍ لحفلة الزفاف أو للذهاب إلى بيتٍ يخصّها وحدها, قَبِلَتْ بذلك الواقع، وذهبت للعيش في منزل عائلة زوجها, لكنَّها وجدت السعادة, وفي النهاية هذا ما يتطلّبه الأمر، إنشاء عائلة، وأخذت معها صغيري أدهم وسلمى كي تقومَ بالاعتناء بهما.

كنتُ نادراً ما أحصل على نومٍ كافٍ، واعتدتُ على النظر من النافذة طوال الليل خوفاً من هجوم خارجي, وإذا ما شعرت بالنعاس كانت تُراودني الكوابيس فأنهض لأتفقّدَ المنزل بأكمله, احتجتُ للعودة إلى عاداتي القديمة، وبذلك بتُّ أخرج في الليل مجدّداً مع السراج في يدي اليمنى، وكتابٍ في يدي اليسرى, مع وجود مسدسٍ – لا أعرف كيفية استخدامه – مُعلقٍ على خصري، وخنجرٍ في حذائي، كنتُ أطردُ فكرة الأمان بالزواج لعدة أسباب: منها أنَّ والدتي لن تحتمل فقدان الجميع معاً، وأيضاً خوفي من فكرة ممارسة الجنس مع رجل, فأنا لن أستطيع تقبيل شفاه (إدوارد روشيستر)، كما فعلتْ (جين إير)، ولن أستطيع الإمساك بيد (بول) كما فعلتْ (فرجيني).

كنتُ معجبةً بتأقلم أخيلة بعد تلك العزلة؛ لتعتادَ على العيش حول ناسٍ جدد, لكنّي لم أرثِ حالي، ولم يكن أسايَ ليحكمَني, إنما بدا أنّي أواجه العالم بأكمله وحدي، وتلك فكرةٌ أرعبتني حينئذٍ, فلا يوجد أحد كي يسند ظهري، ولا شخص اجتماعي لينصحني، كنتُ تحت أديم السماء أنا ومسدسي وإيليا الذي لم أعرف أنَّه كان يجلس في الظلام يُراقبني كلَّ ليلة.

لم تفارقني تلك الأعينُ طوال ليالٍ، أراد القفز وإخافتي، ثم أقوم بتسهيل طريقه إلى غرفة آزر, لكنَّه خاف من فكرة صراخي, وتخيّلَ كيف سيبدو لو فشلت خُطّته, فبقي هناك في كلِّ ليلة يراقب جلوسي وقراءتي, أمّا أنا فلم ألحظْ شيئاً, فقد لازمني الخوف والتوتر من الخروج في تلك الساعة إلى أن أصبحت عادةً لا تُذكر.

خرجت في أحد الأيام لأجلبَ ماءً من النهر, كانت بداية يوم صيف دافئ، تُغطّي شمسه أغصان الأشجار المتراكمة والمرتفعة, وعندما وصلت لمنتصف الطريق، سمعتُ خطواتٍ تتبعني, فوقفت بهدوء وتوقّفت تلك الخطوات معي, وشعرتُ بشخصٍ ما يقفُ خلفي تماماً, خفق قلبي بشدة، لكن بقيَتْ ملامحي متّزنةً، ووقفتي كذلك, التفتُّ ببطء وأنا أضعُ الفخار تحت ساعدي, وإذ بجندي قويّ البنية, حاد الملامح، يعلوني بطوله وكبره، كان يتبعني.

بقيتُ صامتة وبقي هو كذلك، أردتُ التكلّمَ وهو أراد أيضاً, لكن عندما أوشكنا على النطق معاً، توقف كلانا عن الكلام, وقف أمامي تماماً وهو يحدّق بي, التفتُّ لليمين فاعترض طريقي, ثم التفتُّ إلى اليسار ففعل نفس الشيء, وهنا نظرتُ في وجهه فابتسم.

– لن أقوم بأذيَّتِك

أومأت برأسي وأنا أبلع ريقي

– حسناً

– ألن تصرخي للنجدة؟

– كلا

– لِمَ؟

– أتودُّ أن تعلمَ حقّاً؟

– أجل, لكن يُمكنني القولُ إنّي معجبٌ بهدوئك

– ليس طويلاً...

أخرجتُ الفخارَ بسرعةٍ من تحت يدي، وشئت أن أُحطِّمها على رأسه, فأمسك بها بحركة سريعة وأبقاها في يده.

قال لي: أيمكنُنا التحدّثُ الآن؟

أومأت برأسي وقد احمرّت وجنتاي، وشعرتُ أنَّهما تحترقان, قال: "يا الهي! ألن تبكي؟"

– أنا لا أبكي

– أبداً؟

– أبداً

– يا لكِ من عجيبة!!

– هل يُمكنني الذهابُ الآن؟

– أخشى أنَّه لا يمكنك ذلك, إنّي رفيقٌ لآزر.

– آزر؟!

– أجل.. لقد احتجتُ إليه بأن يحتفظَ ببعض أملاكي, والآن لا يُمكنني الوصول إليه لأعيدها

– إذن أنتَ تطلبُ منّي ذلك

– أجل... كلُّ ما عليكِ فعلُه هو أن تُعيديها إليّ

عدّلتُ ثوبي ثم فكّرتُ قليلاً، وقد شعرتُ بالقليل من الارتياح

– عليكَ أن تطلبَ منه ذلك

– إنَّه لم يذهب إلى المنزل منذ أشهر

– إذن فلتتكلّم مع شقيقي أدهم

أردتُ المغادرةَ فاعترض طريقي قائلاً: "إنَّه في حرب البلقان الثانية".

نظرتُ إليه بحيرة وقلت: "وإذا لم أفعل؟ هل ستقتلني؟".

– لِمَ تُراوغين وأنتِ تستطيعين إنهاء الأمر الآن؟

– لأنَّي أعلم عن أفعال أخي بما فيه الكفاية ليُعرّضنا ذلك للخطر

– إنَّها مجرد كتب

علمتُ بداخلي أنَّ آزر احتفظ بأشياء مريبة, وقد احترتُ قليلاً بأمري وقلت: "ربما يعود آزر, عليك انتظاره، أما أنا فلا أستطيع مساعدتك".

تنحّى عن طريقي فمضيتُ, وعندما ابتعدتُ عنه بضع خطوات قال: "إنَّه أمرٌ مبهج"، أكمل قائلاً: "أن أرى شخصاً يستغني عن راحة ليله كي يقرأَ حتى الفجر"، مشى بتلك الخطوات، اقترب إلى أن واجه وجهي، وأردف: "خصوصاً أنَّه لا يوجد فتيات يفعلْنَ ذلك".

شعرتُ كأنَّ جلدي يحترق, وسرعان ما غادرتُ إلى المنزل، ثم أطبقتُ الباب خلفي, لم أكنْ وحدي أنهضُ في الليل, بل كان يُراقبني, قلتُ لتهدئة نفسي: "لو أراد أذيتي لفعل".

وفي لحظة صادمة, اختفى الارتجاف والتوتر, فإذا كنتُ أتعامل مع رجل مسالم, ماذا لو أعطيته حقَّهُ فقط؟ لكنّي تذكّرت أنَّ الخطر لا يُداهمني وحدي, بل يجب التفكير بوالدتي وما قد يحصل لها.

ذهبتُ إلى مضجعها وأنا أدعو لها, ظهرت في وجهي

– ما الأمر يا جودى؟

تروَّعَتْ نفسي، وابتسمتُ

– فلنذهب لزيارة أخيلة

في منزلها الجديد, وبين أفراد محبّين, عاشت أخيلة حياةً جيدةً, عندما ظهرت أمامي وجدتها مشرقة على غير العادة كما كانت في منزلنا المظلم باليأس، هُرِعَتْ إليَّ وحضنتني بقوة: "جودى! كم اشتقت إليك".

– انظري إليك يا عزيزتي, تحملين النور بأكمله في سعادتك

– نعم... لكنَّ ذلك يُشعرني بالأنانية في بعض الأحيان

التفتَتْ وهي تنظر إلى الخارج، ثم عادت لتتكلّم معي.

قلتُ: لا تُفكّري كما أظنّ

– بل يجب ذلك, فقد تركتُكِ وحدك في ذلك المنزل الكئيب

– ليس كئيباً, بل يحمل في طياته ذكرياتٍ جميلةً لمن غادروا

– إذن لن تقومي بتغيير رأيك؟

نظرتُ إلى والدتي وهي تجلس مع النساء في الخارج، فنظرت أخيلة بدورها، قلت: "لا أستطيع أن أتركها وحدها".

– سيعوِّضك الله عمّا فاتك

– دعينا من الهموم الآن.. أخبريني عنك؟

بعد أن طال لقاؤنا إلى وقت الغروب، عدتُ ووالدتي إلى المنزل, وعندما حَلَّ الليل لم أستطع النوم أبداً, بدأ الهذيان وأنا أفكر أنَّ ذلك الجندي في الخارج الآن, وكيف يعلم عن حياتنا كلِّها, فكّرت في نفسي "لعنتك الآلهة يا آزر! ما الخطرُ الذي جلبته لنا.."

كنتُ أتقلّب وأنهض، وأحاول النظر من النافذة, كان الخوف كمعرفة وجود الشيطان في الخارج، وأنا أختلس النظر لأرى كيف اختار هيئته, ثم خطرت لي فكرة كانت ستجعلني أفعل الشيء الصحيح.

ذهبت إلى غرفة آزر وفتحت قفلها بهدوء, أضئتُ المصباح وقد وجدت الصناديق التي تكلّم عنها الجندي, لم يراقبني عبثاً, ولم يُمسك بي عن عبثٍ أيضاً, يوجد شيء مهمّ في هذه الصناديق, ولم أكن لأدعَ ذيول النهار تظهر قبل أن أكتشف الأمر.

مسحتُ الغبار عن الصناديق, وفتحت الصندوق الأول فوجدت مجموعة كتب, وكذلك في الصندوق الثاني والثالث, هل هذا ما حارب من أجله؟ بضعة كتب قد يجد مثلها لو بحث قليلاً.. قمت بترتيبها فوق بعض, فوصل ارتفاعها إلى خصري, جذبني كتاب بعنوان (تهافت التهافت) للفيلسوف ابن رشد, كان عبارة عن ردٍّ على كتاب لأبي حامد الغزالي (تهافت الفلاسفة), وعندما فتحت الكتاب إلى نصفين قرأت:

"إنَّ الصفة غير الذات, والذات غير الصفة، والنوع ليس الجنس غير الجنس من كل وجه, فمهما ذكرنا النوع, فقد ذكرنا الجنس وزيادة, وإذا ذكرنا الإنسان – وفي نسخة إنساناً وفي أخرى الإنسانية – فلم نذكر الحيوان إلا مع زيادة نطق, فقول القائل: إنَّ الإنسانية هل تستغني عن الحيوانية؟ كقول القائل: إنَّ الإنسانية هل تستغني عن نفسها إذا انضمَّ إليها شيء آخر؟ فهذا أبعد عن الكثرة من الصفة والموصوف.."

سقطت ورقة من الكتاب, فالتقطتها عن الأرض وقرأت ما كُتِبَ فيها, فجاءتني الصدمة, وقمت بعكس الكتاب وهزّه فسقطت منه أوراق كانت قد دُسَّت بين الصفحات, وهي أرفع من أوراقه كيلا تظهر أبداً, قمتُ بفتح المزيد من الكتب، فوجدت المزيد من الأوراق, جلست وأنا أقرأها وأقوم بترتيبها, وسرعان ما لاحظتُ أنَّ الجندي لديه الحق باسترداد أملاكه, وكان لا بدّ من رؤيته مجدداً, أمّا باقي الأوراق فكانت بالإنجليزية, لكنَّها بدت جميعها مثيرة للريبة.

(31)

يقول أناتول فرانس: "المرأة هي مكونة المجتمع، فلها عليه تمام السلطة ... لا يعملُ فيه شيءٌ إلّا بها، ولأجلها". لكن في حالة سارة آرونسون, كان تريد الحصول على سلطة فلسطين بأكملها، ذلك الوجه الملائكي الذي أخفى في كتابه حنكةً وانتماءً لشعبٍ يهوديّ من غير وطن،

بعد إقناعٍ من أخيها قامت سارة بدراسة اللغات، وأتقنت عدة لغاتٍ، منها العبرية والتركية، وأتقنت القليل من اللغة العربية.

أنشأت مع أخيها وشقيقتها شبكة تجسّس تدعى (نيلي), كانت تنقل المعلومات للبريطانيين من فلسطين إلى مصر، بدا أنَّها على علاقة عاطفية برجل يُدعى (توماس إدوارد لورنس).

وصلت تلك البرقية إلى بلال وهو يفكر أنَّ اسمَ عشيقها مألوف, وعندها تذكّر رجلاً يُلقَّب بِـ(لورنس العرب)، وقد وجب عليه التصرف إزاء تلك البرقية، لازمه التوتّر وبقي في تلك الأسابيع دون أن يحصل على قِسطٍ من الراحلة، غادر إلى مضجعه وبدأ بنفض المكان بأكمله إلى أن خنقه الغبارُ, جلس مهزوماً ولأول مرةٍ في حياته تضايق من لحيته البيضاء, أراد أن ينزعها من جِلده، وإن تسبَّبتْ له بألمٍ مُبرحٍ, أراحه تخيّل مظهر شعره الأبيض منغمساً في الدماء، ثم وعى على نفسه ممسكاً بها، ويشدّها إلى أسفل.

أراد استبدال نفسه بأيّ شخصٍ آخر, تذكّر ما حدث في اليوم المشؤوم الذي قُتلت فيه عائلته, تذكّر النيران وكيف حالفه الحظ أنَّه كان خارج المنزل عندما حصل ذلك، وأيضاً حواره مع آزر.

قال له: لماذا أرادني الله أن أكون على الأرض بدلاً من السماء؟ إنّي أحترق يا رفيقي كأنّي مِتُّ والله يعذّبني كأنَّه يضع الجحيم في أحشائي.

قال له آزر: إنَّك تتلوّى في تلك النيران وأنتَ تحاول الخروج منها, ألا يُشعرك الوهن بأنَّك تملك قدمين تحاولان الثبات على سطح الأرض؟ عليك أن تتألّم وتموتَ عدة مرات لتعلمَ كيفية التأقلم مع البقاء على قيد الحياة.

– أريد أن أكون أيَّ شيءٍ عدا رجل يتمنّى الموت ويهابه في نفس الوقت

في المساء خرج إلى القرية بعد أن كان عاكفاً في خلوته, لاحظ في الخارج شيئاً مختلفاً, بدأ الجوع يظهر على الناس وبعضهم نيام في الخارج, بدا البؤس والاستسلام على وجوههم، وبدَوْا كأنَّهم ينطقون: "نريد موتَ الموت, وليس موتاً مع الحياة".

كان العربُ محبطين, جُنِّدَ أولادهم وأشقاؤهم ولم يعلم المحبّ من خسر في قلبه, كان حالهم كحالي تماماً, كنتُ من أولئك الذين لا يعلمون، فأنا لم أسمع خبراً عن آزر وأدهم، ولم ألتقِ بوالدي إلا نادراً, فقد كان يأتي على عجلة من أمره ويغادر وهو يتلفت يميناً ويساراً, أظنُّ أنَّي كنت كبلال, عاكفةً في خلوتي أنتظر خبراً بسبب عجزي عن المغادرة.

مشى بتؤدةٍ ولم يكن وجهه أقلَّ إحباطاً من القوم, لم تكن وجهته إلى مكانٍ محدّدٍ، بل أراد فقط أن يستنشقَ هواءً نقيّاً, ذهب إلى الأماكن التي التقى فيها بإيليا, بين الأشجار حيث رأى وجهه تحت القمر لأول مرة... مكان الخيمة الذي اختفى.. وفي الوادي حيث أنقذ إيليا حياته للمرة الثالثة.

– أنا لستُ بجيد.. أنا لستُ في منزلٍ, فأنا لا أحمي أحداً تحت سقفي, أنا مجرد حائط قد يسقط ويُهمّش أفضل الناس, مَنْ لي لأتولى حُكمهم! مَنْ لي لأقرّر مصيرهم.

قُوطِعَ في أفكاره عندما هجم عليه رجلٌ ملثّمٌ, أخرج الرجل خنجراً لكنَّ بلالاً لم يُبدِ ردّة فعل.

قال بلال: يبدو أنَّك مجرد رجل جائع, أتودُّ القدومَ إلى منزلي لتناول العشاء؟

أخفض الرجلُ رأسه خجلاً، وغادر بلال, فهو لم يكن قاطعَ طريقٍ سيّئ، بل كان مجرد جائع صفعته الحياة ليأخذ بالقوة حاجته.

عاد إلى منزله وبعد عدة دقائق سمع طرقاً على الباب, فكّر أنَّه لا بُدَّ أنَّ ذلك الرجل قرّر تناول العشاء وربما الاعتذار, لكن عندما قام بفتحه وجد أمامه إدريس يرتدي بذلةً عسكريّةً أنيقةً، ويضع سيفاً على خصره, رأى إدريس آفاقاً سوداء في وجه بلال, قال له: "ما بك؟".

– تداركتني الحياة, ادخل قبل أن توافيك المنية من مللِ تذمّري

ضحك إدريس ثم وضع يده على كتف بلال

– أخاف عليك من الكبر فتزداد لحيتك بياضاً

– وهل الإحباطُ سيجعلُها أكثر نصاعةً؟

– اجلسْ يا رفيقي ودَعْني أُعِدُّ لك القهوة

– جندي في منزلي ويُعِدّ لي القهوة! يا لي من لعين محظوظ

– أنتَ لعين محظوظ في عدم تجنيدك, كيف خدعت عقولهم!

جلس إدريس وهو يضع القهوة أمام بلال ثم ارتشف من فنجانه وقال: "لقد فاجأتني عندما جئتَ إلى دير القمر, كيف لك ألّا تفهمَ تلميحي؟".

– لم أُفكّر في سبب قد يجعلك تهاب إيليا

– ليس مهابة على قدر أن تكون حذراً

قال بلال: كيف استطعت الحصول على تلك البرقية؟ سارة آرونسون! إذن هي امرأة مَنْ تقوم بتدمير الدولة.

– يُقال إنَّ أنور باشا مُتيَّمٌ بها، وأنَّهما التقيا للنقاش في بيروت

– أظنُّ أنَّه يجب نشرها إذن, لكن ماذا عن لورنس؟ سمعتُ أنَّه سَيُساعد القوات البريطانية كي تتفق مع الشريف حسين... يبدو أنَّنا سننتقلُ من استبدادٍ إلى آخر.

– هل نطقتَ بذلك لأحد؟

– لا... آزرُ في السجن وحمزة بخّرته الشمس إلى إحدى السماوات السبع

– ماذا تعني بِبَخَّرَتْهُ؟! هل لقي حتفه؟!

– لا أدري, أراد العودة إلى الجزائر فاختفى دون توديع

– لكن ليس من عادته أن يفعل ذلك

– ألا تراني كئيباً ووحيداً؟ ما بيدي حيلة لرفقائي

صمت إدريس قليلاً ثم قال: أتدري كم أشتهي أن أحرق هذه البذلة؟

– اذهب إلى الحرب وعندما تصل إلى العدو ستتكفلُ هي بحرقك

تضايق إدريس من تلك الجملة فقد أدمت قلبه, اعتذر بلال على ما تفوّه به، وقال: "امتلكتُ ثلاثة رفقاء، وكانت لي أربعة أرواح, غادر اثنان وقريباً ستغادر أنت, وأنا يا رفيقي لا أصمدُ بروح واحدة".

– الروح الواحدة عبارة عن حُشاشة

– أجل, فهي بقية الروح في الجريح أو المريض.. وبقية الروح بالذي يعيش وحيداً

قضى إدريس ليلته في مضجع بلال, وفي الصباح بعد أن تناولا الإفطار دار بينهما حوار حول تحديد مصيرهما بشكل أوسع

قال إدريس: انظرْ إلى كلمات رئيسي الضابط, إنَّه شاعر محترف وكم وَدِدْتُ لو تعرّفتما على بعضكما.

"تذكروا أنكم أبناء من خضعت لسيفهم دولُ الرومان والعجمُ

والشرقُ دان لهم والغرب دان لهم وتحتَ أخمصِهم كم طأطأت قممُ

سَلْ أرض "أندلس" إن كنت تجهلُنا وأهلُ أندلس عنّا بما علموا

آثارُنا باقيات في مرابعهم وعلمنا ناطقٌ والفضلُ والشيمُ

أن يزعموا أنّنا لسنا نماثلهم في كلّ مكرمةٍ يا كذبَ ما زعموا

تنبّهوا وانهضوا فالحقُّ مهتضمٌ مَنْ نام عن حقّه أودى به العدمُ"

أثارت تلك الأبيات إعجابَ بلال فقال: لمن تلك الكلمات؟

– إنَّها كلماتُ رئيسي الذي يدعى عمر حمد[4]

– رئيسك! هل تصادقه؟

[4] عمر مصطفى حمد، ولد في بيروت عام 1892 حفظ القرآن الكريم على يد الشيخ شاتيلا في الطفولة، ثم التحق بالكلية الإسلامية في بيروت بعد أن اكتشف القائمون عليها ذكاءَه ونبوغه، فحصل على الشهادة الثانوية عام 1912

– أجل فهو قوميّ مثلنا تماماً

– وكيفَ حفظتَ هذه الأبيات؟

– لقد جعلته يُلقيها على مسامعي عدة مرات

– ياه!! نحن نحاربُ لوطنٍ ليس لنا

– بل نحارب من أجله

– كيف ذلك؟

اعتدل إدريس في جلسته وقال: "حسناً, استمع إليّ جيداً, لقد أخبرته عنك وعن المقالات التي قمنا بترجمتها عن الاتحاد والترقي، وهو يودّ لو يلتقي بك".

نهض بلال فزعاً وقد ازداد بياض شيبه، وقال: "ماذا لو كان تصرّفه مجرد خدعة؟! أيها الأحمق!"

– اهدأ إنَّها ليسَتْ خدعةً

– كيف تضمنُ ذلك؟

– أنا أضمنُ ذلك بتلك البساطة, سوف تلتقي به ومن ثم نغادر إلى الحجاز

– الحجاز!! ولِمَ الحجاز؟

– ستعلمُ عندما تقابله

– حسناً... سأقابله

– لكن بقيت المهمة الأخيرة بعد أن فشلت

– وماذا عن زوجتك وأولادك، لا بُدَّ أن تؤمّن لهم الحماية

– لا تقلق حيالهم، زوجتي بخير وأولادي كذلك, لكن هل فكّرت في المهمة؟

نظر بلال إليه بعدم ثقة وقال: "أجل لكنّي لم أتمكّن من الإيقاع به"

– إذن اقتله! ولا تضع له البرقية الأخيرة، فيبدو أنَّ الأحمق قد بدأ يفكّر أن يكون في جانبنا, لا تدسَّ له شيئاً.. اقتله فحسب.. اقتلْ إيليا, ألم تكن هذه خُطّتك منذ البداية؟

(32)

خرجتُ في اليوم التالي إلى ذات البؤرة, جلستُ على صخرةٍ وأنا أتلفَّتُ بتوتّر إلى أن ظهر بعد ساعة من وجودي, أشعل سيجارة وقال: "ظَنَنْتُكِ ستعودين".

– إذن أعطيكَ ما تريد وتتركنا وشأننا؟

– لا تقلقي, لن يحصل مكروهٌ لكِ أو لوالدتك

– وماذا عن آزر؟

– ماذا عنه؟

– أخبرني عن مكانه

صمت قليلاً ثم قال: "إذا ظنَنْتِ أنَّ الخطر بي، فأنتِ لا تعلمين شيئاً, حيازتك لتلك الصناديق تضع منزلك في دائرة الشكّ".

– ماذا لو خسرتُ الصفقة؟ ماذا لو لم تغادر أبداً؟

– ما هو الشيء الذي قد أريده منك؟

صمتنا قليلاً فاقترب وجلس بجانبي, كان يشبه حائطاً مليئاً بالأسلحة, فخنجره تدلّى من جانب حزام خصره, وفوقه وضع مسدساً وبعض الأشياء التي لم أفهم مغزاها, بقي صامتاً وهو ينظر إليَّ من الجانب, قال: "هل تودين التحدّث في الأمر؟"

– هل تلك الحقائق حقيقية؟ أعني.. هل الاتحاد والترقي.

قاطعني قائلاً: لا تتفوّهي بتلك الأمور لأحدٍ، لكني لم أتوقع أنَّكِ تعرفين الإنجليزية أيضاً

– لا أعرفها, قرأتُ الوثائقَ بالعربية بجانب كتاب إنجليزيّ لم أفهم منه شيئاً

لاحظتُ أنَّه لا يستطيع القراءة بالعربية, فهو لم يعرف باقي المحتويات التي وضعت في الصناديق, أردفتُ قائلةً: "أنتَ لا تستطيع القراءة بالعربية أليس كذلك؟".

– لديكِ حدّة ذكاء, أعترفُ بذلك

نهضتُ من مكاني وأنا أفكّر، ثم التفتُّ إليه وقلت: "ما رأيك بصفقة جديدة؟"

– لكنّنا لم ننهِ هذه الصفقة بعد

– ولن أنهيَها إذا لم توافق على طلبي

– ما الذي تريدينه؟

– سأقومُ بتعليمك القراءة والكتابة باللغة العربية

– حسناً, مقابل ماذا؟

– أريدك أن تقوم بتدريبي على استخدام السلاح, أريد أن أتمكّنَ من حمله، وأن أتقنَ التصويب

– هل تفكّرين بإرداء أحدٍ ما؟

– لو أردتُ لما أخبرتك بذلك, هل تنجحُ كجنديّ في تلك الأسئلة التي يسهل الكذب فيها؟

– لم يسبقْ أن مررتُ بهذا الموقف

– هل ستوافق؟

ابتسم وقال: لكِ ذلك

(33)

قال أفلاطون: "إنّنا لو صادفنا شيئاً يوجد ولا يوجد في الآن نفسه, فإنَّ هذا الشيء يحتلّ وسطاً بين الوجود الخالص واللاوجود المطلق, ولا يكون موضوعاً لعلمٍ ولا لجهلٍ, وإنما لمَلكةٍ بين العلم والجهل, وإذن فالظنُّ أشدُّ غموضاً من العلم وأكثر وضوحاً من الجهل..."

الله يسمع ما بداخل صمتنا, لكنّي تمنَّيْتُ لو أمكنني السماع أيضاً, إنّي أغارُ من كليم الله عندما خاف وسمع ثم اطمأنَّ, إنَّ جبل الهموم تحت أقدامي صار دكّاً لعدم قدرتي على الصمود في تلك الأحيان, أتسمعني يا الله؟ إنّي أحتاج إلى سماعك أيضاً.

ما هذا الحيز الذي أشغله؟ إنَّه وجودي, لو لم أُولد لما شغلتُ هذا الفراغ, لا أستطيعُ أن أرتفع, شيءٌ ما يشدّني إلى الأرض، وقد قيل لي فيما بعد إنَّها تُدعى الجاذبية... توقّفت تساؤلاتي عندما سمعتُ صوتاً يقترب تحت ظلِّ أشجارنا, ظهر رجل ببذلةٍ عسكريةٍ فنهضت من مكاني وانتصبتُ أنظرُ إليه.

قال لي: يا إلهي, انظري إلى نفسك كم كَبُرْتِ

كنتُ ما أزالُ أنظرُ إليه بتساؤلٍ إلى أن قال: "ما بكِ يا جودى؟ أنا إدريس".

هدَّأْتُ من روعي وارتحتُ لرؤيته

– إدريس! أشعرُ كأنَّ دهراً مضى

ضحك قائلاً: أيُمكنني الجلوس؟

– لا يوجد أحدٌ لاستقبالك.

قاطعني قائلاً: أعلمُ جيداً, وأنا قلق من بقائك ووالدتك وحدكما في هذا المنزل

– إنَّنا نتدبّر أمورنا جيداً

جلس على صفِّ أحجارٍ مرتبةٍ، وجلستُ أمامه على مقعد خشبي، وبدا عليَّ الخجلُ والحذر

– أنا لستُ غريباً عنكِ يا جودى

قلتُ مبتسمةً: لقد كُنّا نلعب دائماً عندما كُنّا صغاراً

– كنتِ تغشّين دائماً

– لقد سجّلتُ فوزي على أيّ حال

عدنا قليلاً بالذكريات, بعد ذلك حان الوقت للسؤال عن أشقائي.

– أتعلمُ شيئاً عن آزر وأدهم؟

– أدهم لا, لكنَّ آزر في السجن

بقيتُ صامتةً ولم أتفوّهْ لعدة دقائق

قال: الخنساءُ رثت أخاها, إلّا أنَّكِ أكثرُ حظّاً؛ لأنَّه ما زال على قيد الحياة, يُمكنك البكاء إن أردتي.

– أنا لا أبكي

نظر إليَّ بتعجبٍ، وقال: "مطلقاً؟"

– مطلقاً

– يا له من شيء عجيب!!

– أليس المهمُّ أن يكون المرءُ بخيرٍ مهما كان اختلافه؟

– كيف تملكين هذا العقل؟!

– الخنساءُ امتلكته أيضاً

نهض من مكانه وقد ثار توتره

– أتستطيعين القراءة والكتابة؟

خفتُ من نظرته إليَّ, فقد بدا كأنَّه يريد افتراسي

– لا.. اعتاد آزر أن يقرأ لي

لم تعجبه إجابتي, أومأ برأسه بطريقة غير مطمئنة، ثم جلس عائداً في مكانه, أمرني بالجلوس, ولم يكن ذلك طلباً، بل بدا كأنَّه أمر عسكري "اجلسي!". أردف قائلاً: "بدأ الجوعُ يضرب الناس, وأصبحت الحياةُ خطيرةً, أريدك أن تعلمي أنَّك بأمان ووالدتك أيضاً، فأنا سأعتني بكما".

– أشكرك, لكن أنا وأمي لَسْنا من شأنك

– ستصبحين كذلك

فهمتُ من مقصده أنَّه يعنيني بالزواج, فقلت له: "لكنَّكَ رجلٌ متزوج!".

– بل أنا أبٌ أيضاً، ويمكنني الزواجُ منك, ليسَ الأمرُ سيئاً، قد تصبحين وزوجتي رفيقتين.

بدا أنَّه يفرض رأيه ولا تهمّه إجابتي حقّاً, وعندما كنّا صغاراً كنّا مقربين ولم نميّز في مراحل حياتنا الأولى أنَّنا لسنا أشقاء، وعندما كبر إدريس تعلّم من تفكير آزر، فأصبح برفقته في بعض الأحيان التي كان يغادر فيها القرية, وبعد ذهابه إلى دير القمر تعرّف على فتاة في الثانية عشرة، بينما كان هو في السابعة عشرة، فعقدا قرانهما واستقرّا خارج القرية, بقي على تواصل مع رفقائه، وكان ما يزال قومياً تحت غطاء كونه مجرّد رجل عائلي, وقد كان عنيفاً مع زوجته لكنّها لم تكن لتشتكي، فقد عاشت حياة الزوجة المطيعة بكلِّ إذعانٍ وسعادةٍ، ولم تكن أكثرَ جهلاً من نساء القرية المطيعات.

ذهبتُ للبحث عن والدي في نفس المكان الذي التقينا فيه, لم أجدْه في اليوم الأول ولا في الثاني, لم أجِدْهُ طوال أسبوع كامل, كنتُ أتردّد إلى هناك بضع مرات في اليوم, فقد أردت إقناعه بالعودة إلى المنزل، وطرد إدريس إذا حاول الاقتراب منّي مجدداً, وقد يُعيد ذلك والدتي

إلى صوابها على أية حال, ومن جهةٍ أخرى أيضاً لم أكن على استعدادٍ لأكونَ زوجةً أولى كي أصبح زوجةً ثانية!

قرّرتُ التخلّصَ من جميع العقبات, فجلبتُ قطعةَ قماشٍ كبيرةً، وجعلت منها كيساً كبيراً، ثم وضعتُ بعض أغراض إيليا في داخلها, كان من السيئ أنّي سأنكث بتلك الصفقة، وأخسر فرصة تعلّمي استخدام السلاح, لكنّي لن أحتاج إلى ذلك طالما والدي سيعود إلى المنزل, وقلتُ إنَّه حتماً سيعود لحمايتي. لم استطع حمل الكيس من ثقله, ولو حاولت اجتراره لتطلّب منّي اليوم بأكمله, فأخذتُ تلك الأغراض متفرقة حيث أمسكني إيليا، وقمتُ بتجميعها في ذلك المكان, وعندما انتهيتُ نظرتُ إلى السماء، فكان الوقت على وشك الغروب, فكّرت أن أعطيَ نفسي فرصة أخيرة للذهاب والبحث عن والدي, وفي هذه المرحلة وجدته يجلس هناك بانتظاري، هُرِعت وطوّقته بين ذراعي, بادلني بنفس تلك السعادة، بأن قبّلني على جبهتي.

– لقد وعدتني أن تأتيَ إلى هنا, أين كنتَ طوال الأسبوع؟

– قد علموا عن أمري يا عزيزتي

– كيف؟

– لا أدري, أخاف أن يكون هناك مَنْ يراقبني عن كثبٍ, اجلسي يا جودى

أخبرته عن إدريس وعن حاجتنا لإيجاد طريقة للعودة, فرفض ذلك رفضاً تاماً، وقال بعينين دامعتين: "أتمنّى لو أمكنني حمايتك يا عزيزتي".

– وماذا سأفعل الآن؟

– سيحصل لكم أسوأ من ذلك لو علموا بأمري

– لنهربْ إذن

– لا تحصلُ الأمور بتلك البساطة

– إنَّها الحياة أو الموت على أيّة حال يا والدي, ماذا لدينا لنخسر؟

– أن نبقى على قيد الحياة بحذرٍ, سنخسر راحة البال

– راحة البال؟ إنّه أمر تافه مقارنة بمرض أمي وزواجي من إدريس

– ألم تعرضْ أخيلة أن تعتني بوالدتك في منزلها؟

– لا أشاءُ لها التعب

– عليكِ بذلك يا جودى فأنتِ لا تملكين خياراً

– أين أذهب أنا؟

– تزوّجي إدريس

أخبرني والدي بكلّ ما لم أُرِدْ سماعه, لم يكن ذلك ما تخيّلته أبداً، وقد أهلكتني تلك الصدمة, كيف له أن يقترح تلك الأمور؟ وأين يمكن للمرء أن يذهب بعد أن يُوصَدَ آخر باب في وجهه؟ أردتُ النفور من هذا العالم, كنتُ في صلب الأرض وأنا أتمنى رؤية السماء التي لم أرَها قطّ.

– ستستمرّ بالمجيء إلى هنا ونلتقي فقط؟ هكذا إذن

– هذه المرة الأخيرة يا عزيزتي

شيء غريب حصل, لقد بكيتُ عند خبر موته في المرة الأولى, لماذا لم أبكِ عند لحظة فراقه أيضاً؟ فكّرتُ في خطة جديدة, وقلتُ إنّي لن أخضع لشيء ولو كسرت الحياة ظهري.

(34)

هدوءٌ مزعجٌ جعل الدقيقة تزحف كساعة, هكذا كان وضع إيليا عندما تناول الغداء مع عمّه خليل, احتدم النقاش بينهما في ذلك الصباح حين طلب عمّه منه أن يذهب إلى عائلة جدّته الأتراك لطلب المساعدة. لم يُحبّ إيليا من أقاربه وعائلته الكبيرة إلّا عمّه, فقد كره جدّه العربيّ وجدّته التركية, ومن جانب والدته الفرنسية لم يمتلك فرصةَ أن يعرف شيئاً عنهم بعد أن تخلّت عنها عائلتها بسبب زواجها من والده.

كانت جَدّته التركية من عائلة عريقة وثريّة، لكنّه لم يُحبّذ حياتهم أبداً, فقد نال فرصةَ التعرّف عليهم عندما درس في جامعة إسطنبول، وأقام عندهم بضعة أشهر.

قال خليل: إلى أين يجدر بنا الذهاب؟

– هذا ما أحاولُ اكتشافه

– إليك بالذهاب إليهم يا بُنيّ

– إنَّها عائلة جدّتي التركية يا عمّي التي لا تكاد تهتمّ بك، وأنتَ ابنها, فهل سيأبهون بابنك المحتجز؟

بَدَت علامات الحزن على وجه خليل

قال له إيليا: لا تخفض رأسك, أنا سأعتني بكما

– أتعدني بذلك؟

– أعدك بذلك

غادر منزل عمّه مكفهرّاً من رؤيته ضعيفاً, فقد كُسِرت يده بذلك الاقتراح, كيف لا وهم المتكبرون الذين لا يرون من يجلس أمامهم إلّا بأسلوب أنَّه يجلس تحت أقدامهم, أمّا عوز الآخرين إليهم، فكان يروي ظمأهم، فقد أعجبهم أن يبدوا كسلاطين على الناس، حتى لأفراد عائلتهم, فخليل منهم ومن دمائهم, مع ذلك أعجبهم إلحاق الدمار بأولادهم، ولا عجب أنَّ والد إيليا لم يكن أقلّ اختلافاً منهم, ولذلك شعر إيليا برغبة عارمة بسماع خبر موت والده.

غادر للقاء بلال بعد أن طلب رؤيته, لكنَّ بلالاً تفاجأ بزيارة مفاجئة ومتطفلة من إدريس, وبذلك جلس الرجال الثلاثة معاً, حاول إدريس تبرير نفسه بعدم قدرته على التعرّف عليهم في دير القمر, وانتظر إيليا لسماع تفاهته دون أن يقاطعه, وقد شعر إدريس بالرعب من عدم طلب إيليا منه شرحَ الأمرِ، بل اكتفى بالقول إنَّه فَهِمَ الأمر, أراد تحذير بلال من ناحية، لكنَّه وجد فيه راحة وسعادة أمام إيليا من ناحية أخرى، وشعر بتهديد بسبب ذلك.

جلسوا حول طاولة بلال الخشبية والمهشّمة, بدت كأنَّها متماسكة كباقي الأثاث المتهرئ أيضاً, تكلّموا في السياسة وتعمّد إيليا وضع إدريس في موقف حرج.

– أيصعب على المرء أن يقف متفرجاً على معتقداته وهي تحاربُ من أجل طريقٍ ثانٍ؟

أراد إدريس أن يهجم عليه، وتخيّل نفسه يقتله دون أن يعرف سبب رغبته بذلك, يا لشرِّ الإنسان وهو يتخيّل فريسته، فهو يراها تتعذّب ولا تموت أبداً, ثم أفرغ إدريس كوب الشاي في فمه كأنَّها كأس نبيذ بارد، يريد أن يثمل عليها، لكنَّها أحرقت فمه، ووضع اللائمة على إيليا بتلك النار التي اشتعلت في فمه وأحشائه.

تكلّم بلال عن اشتياقه لحمزة وآزر قائلاً: "ألا ليت الصديقَ يعود يوماً"، ثم تكلّموا عن أدهم، وكيف أن منزلنا أصبح خطيراً بوجودي ووالدتي وحدنا.

قال بلال: إنَّهم عائلة رفيقي وسأبقى أعتني بهذا المنزل.

لم يتكلّم إيليا بل بقي صامتاً, فهو لم يعرف شيئاً عن عائلتي, أمّا إدريس فأنهى الموضوع بقوله: "لا يوجد داعٍ لذلك يا رفيقي بلال".

قطّب بلال حاجبيه قائلاً: "ماذا تعني؟"

– سأتزوّج الفتاة كي أقومَ بحمايتها وأقومَ بتدبير والدتها عند شقيقتها، فأنا سأتحمّل جنون زوجتين، كيف سأتحمّل جنون امرأة ثالثة... ها!

ضحك ساخراً وقد ظهر أنَّ زواجه منّي لم يكن لحمايتي أكثر من أن يكون لمتعته, حدّق فيه إيليا ورغب بتهميش رأسه بذلك التعبير الذي قاله, ولم يكن بلال أكثرَ سروراً، بل حرقته شراسة إدريس ورفض دعوته برفيقه بتلك اللحظة.

بعد أن غادر إدريس بقي بلال وإيليا ليتبادلا الحديث قليلاً

قال إيليا: لِمَ أرسلتَ في طلبي لرؤية ذلك الأحمق؟

– لقد فاجأني بحضوره، فأنا لم أخطّط لذلك

– لم ترافقه على أية حال؟

– هه! لقد كان شخصاً مختلفاً, كان عبارة عن كتاب ببضع صفحات، تحتوي على كلّ ما هو جيد في العالم, أمّا الآن فهو مثل كتاب غلافه كرتوني وبألف صفحة فارغة.

– هذا ما يبدو عليه بحقّ

– أرسلتُ في طلبك كي أعرف انتماءك

– ما علاقة انتمائي؟

– أنتَ جنديٌّ مخلصٌ ورفيقٌ مخلصٌ أيضاً, لم أعتقد يوماً أنّي سأجد جندياً شقيقاً لي.

صمت إيليا برهةً، ولم يعجبه مدح بلال, فهو لا يراه كأخٍ له كما يقول، لكنّه يراه بقدر كافٍ ليدعوه صديقه, ومع اختلافهما كان يشعر بالملل عند تحدّثهم عن اختلافاتهم السياسية والحياتية، فقد اكتفى بكونه يحتفظ بأفكاره ومعتقداته لنفسه, ولم يُحبّذ أن يحاول أيُّ شخصٍ إقناعه بشيءٍ لا يريده، فقد ارتكزت قناعته على الاقتراب منهم كي يصل في النهاية إلى اللواء, فقد علم مؤخراً أنَّهم كانوا يعملون في نفس المزرعة التي ابتاعها اللواء، وفي نفس المكان الذي أدّى فيه مجزرة تلك العائلات.

– أقدّرُ ذلك

– لكن أودُّ لو أعرفك أكثر، فأنا لا أعرفُ حتى ديانتك.

– لا بُدّ أنَّك تعيش في عالم مختلف

– أين انتماؤك يا إيليا؟

"هذا ما أحاول اكتشافه"

كان إيليا لا يؤمنُ بدينٍ محدّد, يُبجّل الله فقط, أمّا عن انتمائه فكان للأتراك ولأحبابه غالباً, وقد تمنّى بلال لو يحاول اكتشاف غموضه, لماذا لا يتكلّم؟ فهو يعرف أنَّ بلالاً متمرّدٌ، ويعرف عن أفكاره المختلفة, أيخاف ألّا يتقبّله أحدٌ؟ لا.. فقد كان إيليا واثقاً من نفسه، ولا يهاب التكلّم، لكنَّه فضّل عدم خوض أيّ نقاش في أيّ أمر. أرادَ بلال إخباره بحقيقة ما فعل لكنّه لم يتمكّن من ذلك, فقد أحبَّ إيليا وكره خسارته.

قال إيليا: لا تقلق فأنا لن أدعَ أحداً يشكُّ في أمرك، ولن أدع مكروهاً يحصل لك

– أعلمُ أنَّ كلامي بلا فائدة, فأنا بلا فائدة! لكنّي سأحميك بدوري أيضاً، وإن كلّفني ذلك حياتي.

بعد أن غادر إيليا فكّر في أمري وأمر إدريس, ظنَّ أنّي طلبتُ التعلّم على السلاح بسبب خوفي من إدريس، وقد وجد الأمرَ منطقياً, لكنَّه لم يعلم أنّي طلبت منه قبل أن يحصل ذلك, أردتُ التعلّمَ بشدةٍ وأكثرَ من أيّ وقتٍ مضى, ومن حظّي أنَّ إيليا ذهب إلى مضجعه واختار سلاحاً خفيفاً سَهْلَ التعلّم, وضعه على خصره بجانب سلاحه وخنجره, ثم أفرغ علبة الرصاص في كيس قماش ووضعه في جيب بدلته العسكرية، وأخذ معه عازلاً للصوت أيضاً, قام بتجهيز مكان للتدريب، ووضعَ علاماتِ تصويبٍ على قطع خشبية كبيرة لأرتكز عليها عند إطلاق الرصاص, علم بداخله أنَّ فتاة مثلي لا تترك منزلها للزواج بتلك الطريقة, ولا بدّ أنَّه علم أنّي لستُ بالغباء الذي يجعلني أعتقدُ أنَّ إدريس يقوم بحمايتي, أرسل إليّ بورقةٍ رسمَ عليها المكان والساعة الثالثة أسفل الورقة؛ لأنَّه لا يستطيع الكتابة بالعربية, فهمت الرسالة وذهبت للقائه, وجدته يجلس وهو شابكٌ أصابعه معاً، وبدت على وجهه ملامح أنَّه فهم حياتي بأكملها.

– أَزِلْ تلك الابتسامةَ عن وجهك..

قاطعني قائلاً: هل أنتِ مستعدّة للتدريب؟

حدّقت إليه بغرابة

– بتلك السهولة؟

– أجل بتلك السهولة

جلستُ بجانبه كأنّي أعرفه منذ عهد قديم, لم أَخَفْ منه كما خفتُ من إدريس، مع أنَّ إيليا امتلك مظهراً قاسياً، وكانت تصرّفاته شديدة ومخيفة بالنسبة للغير, كنتُ بخير وأنا أتكلّم معه.

قلت: لقد جلبتُ لكَ جميع أغراضك، سأوجّهك إليها

– لِمَ فعلتِ ذلك دون إكمال الصفقة؟

– ألا تشعر بالسعادة؟

– أترغبين في شعوري بالذنب؟

– أتشعر بذلك؟

– لِمَ تستمرّين في إضعافي؟ أجل.. أنا أشعر بالذنب

– جيد

– أخبريني إذن

– أريدُ شيئاً هائلاً وأدعوكَ ألّا ترفض طلبي

– ماذا تريدين؟

– اجعلْ منّي جنديّة

– جندية!! أردتِ التعلّمَ على السلاح وستحصلين على ذلك

– لا يكفي, أريدُ أن أحملَ السيف وأن أقاتل دون سلاح أيضاً

– سيكون ذلك صعباً

– سأحتمل ذلك

– سيتألّم جسدك

– سأعتادُ على الأمر, عاملْني كجنديّ مبتدئ

وقف إيليا أمامي وقال: "هل أنتِ متأكدة من احتمالك للألم؟"

– وهل سيكون أكثر ألماً من شخصٍ يحاول إيذائي؟

لاحظ إيليا خوفي من إدريس لكنّه لم يتذكّر الأمر, بل اكتفى بالقول: "مهما كلّف لكِ ذلك الأمر".

(35)

منذ الصباح لم تهدأ يدا الخياط عن العمل, ومع ذلك كان لديه المزيد لإنجازه في مدةٍ لا تتعدّى يومين أو أكثر بقليل, تراكمت الملابس والقماش فوق منضدته، وانتهى الأمر بعجزه عن فرزها, قال متذمراً: "ألم يَعُدْ هناك مالٌ عند الناس لشراء ملابس جديدة؟ ضَعْ رُقَعاً هنا.. خط ذاك.. بل أرجوك اصنع لي قميصاً من الخِرق الباهتة..."

انتهى وهو يُنشد لحناً من اختراعه يشبه ترنيمة حربية, وسرعان ما كان يتخلّص من تذمّره عندما خطر له مقدار المال الذي يجنيه في يومٍ واحد, قال لنفسه: "هيه! سأتعشى اللحم والأرز كلَّ يوم". أخذ استراحةً قصيرةً للتدخين, كانت أطرافُ أصابعه صفراء من كثرة مسكه السجائر وصنعها من التبغ، ومتورمة أيضاً من كثرة عمله في الخياطة, أمّا عن نظافتهما فكان لذلك لونٌ آخر, عاد يدندن اللحن لكنّه توقّف لحظة دخول إيليا عليه، فنهض احتراماً له.

– بماذا أخدمك يا سيدي؟

كانت بيد إيليا حقيبة متوسطة، ثم أعطاه تلك النظرة الصامتة التي تجعل المرء يتوتّر في مكانه ويقف بحذر

– أريدُ يدَك أن تفعل لي شيئاً بالكتمان

– أنا في الخدمة يا سيدي اطلب ما شئت

– هل تعلم شيئاً عن تفصيل ملابس النساء؟

ضحك الخياط

– إنَّ النساء هن مَنْ يُنجحن عملَ الخيّاط، وإلّا لأمسكتني أقتاتُ فتات الخبز عن الأرض

– حسناً... جيد جيداً, لكن هل لكَ بتعديل شيء رِجّاليّ كي يصبحَ لفتاة؟

– يا لهُ من طلب غريب! أرني

أخرج إيليا من الحقيبة بذلة عسكرية وأراها للخياط, قال الخياط مندهشاً: "لِمَ تريدها لفتاة؟!"

– أيمكنك فعلها أم لا؟

– دَعْني أرَ... بعضُ التضييق من هنا.. القليل من الخيوط.. هذا الزر..

توقّف عن فحصها بعد بضع لحظات، وقال: "أجل بعد كثير من العمل قد أنجح في ذلك"

– هل يمكنك إنجازها الليلة؟

– الليلة! انظر إلى هذا العملِ المُكدّس

– سأضاعفُ أجرَك

– اعتبر الأمرَ منتهياً

كان قد حان الوقت لنلتقي, وذلك حسب اتفاقنا بالتواجد في المكان الذي قام إيليا بتجهيزه, وضع ثلاثة ألواح خشبية متناظرة بطول ثماني أقدام، كان المكان منعزلاً وقريباً في نفس الوقت من الأشجار والنهر, كنت قد وصلت قبله ورأيته عندما تقدّم من بعيد, كان يرتدي صدريةً سوداءَ أنيقةً بداخلها قميص أبيض، ومعطفاً خفيفاً، وبنطالاً أسودَ، وحذاءً عسكرياً ارتداه فوق بنطاله, بدا مظهره كعسكريّ متقاعد, اقترب وألقى السيجارةَ بعيداً، وقد انعكست الشمس على بهتان عينيه، حتى ظهر كأنَّه لا يملك حدقة.

– هل أنتِ على استعداد؟

– أجل

خلع معطفه، وكان يوجد سلاحين على زنّاره, أخرج سلاحاً منهما، ثم قام بإفراغه ووضع الرصاصات في جيبه, قال: "اجلسي"

– أجلس!! ولِمَ؟

– لن تقفي في البداية

– حسناً

جلستُ وجلس هو بدوره بجانبي, انحنى إلى الأمام وقال وهو يحمل المسدس بكفّ يده: "هذا مسدس يُطلق عليه 1911"

– شبيه بذلك العام؟

– أجل.. لأنّه صُنِعَ في ذلك الوقت, إنَّه مسدس نصف آلي، وستبدئين بالتدرّب عليه.

مَدَّ يده ليناولني إياه

– احمليه

حملته براحة يدي، كان ثقيلاً وأصعبَ ممّا يبدو عليه

قال: افعلي الحركة التي فعلتُها ومثّلي أنَّك تقومين بإفراغ الرصاص

أخرجتُ الأخمص وأرجعته مكانه, وقمتُ بتحريك الزلالة، وأرجعتُ المطرقة

ابتسم إيليا وقال: يبدو أنَّ الأمر سيكون سهلاً

– ألم يسبق لكَ أن قمتَ بتدريب فتيات؟

– أنتِ أول جندية

أخرج سيجارة بعد أن ألقى بالأولى، ثم قام بإشعالها

– قفي

وقفتُ وقلت: ماذا الآن؟

– احملي المسدس بوضعية الإطلاق واختاري لوحاً خشبياً

فعلتُ ما طلب منّي ووجّهته إلى الأمام, طلب أن أقف ثابتة بذلك الشكل

– انظري إلى ذيل المسدس وما بين سبابتك وإبهامك, إنّكِ تتركين فراغاً، وهذا خطأك الأول, أمّا الثاني فهو ارتفاع يدك وأكتافك، إنّكِ تحملينه إلى أعلى قليلاً.

أخفضتُ يدي وأغلقتُ ذلك الفراغ، ثم أخذ منّي المسدس وأخرج ثلاث رصاصات من جيبه, أخذ شهقة كبيرة ثم ألقاها من يده.

– أتودّين المحاولة الآن؟

– حسناً

وضع الرصاصات في راحة يده وشرح: "هذه رصاصات عيار خمس وأربعين إنش, سأضع واحدة لتقومي بتجريب الطلقة الأولى".

قلتُ بحماس: سأجرّب الآن؟

ضحك وقال: تمهّلي قليلاً, يبدو أنّنا سنواجه تهوّراً

أمسك بيدي اليمنى ووقف ملتصقاً بي من ذلك الجانب, كان المسدس بيده اليسرى فوضعه بيدي، ثم أغلق يديَّ الاثنتين على المسدس وطوّقني تماماً وهو يُثبِّت يديَّ وأكتافي معاً, ما ميّز إيليا والذي جعلني لا أخاف منه، أنَّه لم يمتلك خوفاً للاقتراب منّي, ولم يتوتّر أو يتردّد, فقد طلبتُ منه أن يعاملني كجندية وحصلتُ على ما أردتُ تماماً.

– الآن سنطلق الرصاصة معاً، وستشعرين بارتدادٍ قويّ جدّاً في جسدك, أمّا أنا فقمتُ بتطويقك كيلا تسقطي، وهذا قد يسبّب إطلاق الرصاصة في الهواء, مستعدة؟

– أجل

– سأعدّ للثلاث.. واحد.. اثنان.. ثلاث

ضغطنا معاً على الزناد وآلمني إبهامي من ذلك الضغط, ارتدّ جسدي إلى الوراء من دويّ الرصاصة، فأمسكني إيليا جيداً, كنّا قد أطلقناها على اللوح الخشبي وجاءت في المكان المناسب, التفتُّ إليه وقلتُ ضاحكة: "لنجرّب مجدداً".

بقينا بضع ساعات إضافية، أطلقنا فيها خمس عشرة رصاصةً، وشرح لي الفرق بين السلاح الدوّار والآلي, وقارن الرصاصات ببغضها إلى أن اقترب موعد الغروب، وجلسنا معاً.

– حسناً حان دوري

جلبتُ الأوراق والقلم وقلت: "هل تعرف الأحرف العربية؟"

– لا أعرف شيئاً

– فلتركّز قليلاً

قضيتُ معه ساعةً، كان قد تعلّم قراءة الأحرف وكتابة أسماء الدول التي ذهب إليها

– كيف الحياة في العالم الآخر؟

– لِمَ تدعينه كذلك؟

– لأنّي لن أراه أبداً

– أتودّين لو رأيتِ

– هل ستحتمل عينايَ ذلك؟

– بلا شكّ، لقد تعلّمتِ وحدك واليومَ كنتِ أفضلَ من أيّ مبتدأٍ قمتُ بتدريبه

– إذن... كيفَ هي الحياة؟

– متقدمة جداً, لديهم كهرباء وسيارات وتعليمٌ أفضل من أيّ مكان في العالم, لكن يوجد بالطبع مناطق بدائية لا تخطو إليها الحضارة

– والكتب؟

– لديهم الكثير

– والفتيات هل يكتبن القصص ويفعلن أشياء مهمة؟

– ليس جميعهن يفعلن ذلك بسهولة, لكن أجل يوجد, تشتهر في بريطانيا كاتبات مثل جين أوستن, شارلوت برونتي, والشاعرة إميلي ديكنسون... لكنّهنّ حاربْنَ للوصول إلى مجد الكتابة.

– كيف تعرفُ كلّ ذلك؟ لا يعقل أنَّكَ قرأتَ كلَّ شيءٍ في العالم إلّا إذا كان العالَمُ عبارة عن مكتبة واحدة.

– أعرف الكثير لكنّي لم أقرأ كلَّ شيء فهذا غير معقول, أقرأتِ لجميع العرب الذين تعرفين أسماءهم؟ ليس بالضرورة لكنّك تعرفين الكثير عنهم

نهضتُ من مكاني ووقفت وأنا أنظر إلى النهر, وقف بجانبي

– أتحبّين هذا المكان؟

– إنّي أراه مثلما يرى جان جاك روسو جزيرة (سان بيير)، فكما هو يرى انعكاساً في الطبيعة لما يحسّ به، تناسبني العزلة مثلما ناسبته تماماً, لكنّي لا أوافقه في المبالغة باعتقاده أنَّ الجميع يتآمرون ضده... لا أعرفُ أناساً على أيّ حال كي أظنّ ذلك.

قال إيليا اقتباساً لِـ(جان جاك روسو): "إلا أنّي أعلم في الوقت ذاته أنَّ الحقيقة في الأشياء، وليست في الأحكام التي يُصدرها عقلي بشأنها".

– إنَّه لأمر غريب, لم أظنَّ يوماً أنّي سأناقش ما قرأت، والأفضل أنَّك جلبت اقتباساً لروسو

– وأنا لم أظنَّ أنّي سأعرف فتاةً تملك دماغاً كدماغك

بَدَتْ جملته مضحكةً كتهديدِ ضابطٍ أكثرَ من أنَّها إطراء, كتمتُ ابتسامتي وقد احمرّت وجنتاي خجلاً.

– هل فهمتِ ما قلته؟ إنّي أحاول أن أكون لطيفاً

– أجل.. لا بأس في ذلك

صمتنا قليلاً ونحن ننظر إلى المنظر خلف النهر, كان هادئاً وخالياً، ومليئاً بالأشجار

قال: أتيأسين الآن؟

– لا, لكنّي في قطرة ماء وأطمح للبحر

– العالَمُ قطرة ماء وأنت البحر

– تتكلّم مثل جلال الدين الرومي

ابتسم وقال: وهل يخطئ ذلك الصوفي؟

تلألأ طرف العقد الذهبي الذي عاقبني والدي بارتدائه، فلفت انتباه إيليا.

– أليس خطيراً أن ترتدي الذهب؟ عليكِ الحذرَ من الناس

وضعتُ يديّ على صدري وقلت: "لا أستطيعُ خلعه، فله قصة طريفة"

– أخبريني عنها

أخرجتُ العقد وبدأت بسرد القصة فقاطعني إيليا: "لقد ضربتِ الصبيَّ على وجهه وركبته، وسرقته عندما وقع منه".

صمتُّ برهةً وقطّبتُ حاجبيَّ، فقال: "هذا عِقد والدتي الذي ضربتني للحصول عليه".

(36)

صحراء.. قبيلة.. عنترة.. بن عسكر..

جاءت التخيّلات فوق وجه حمزة وهو في ضباب بين النوم والاستيقاظ, شعر أنَّ رأسه كصخرة كبيرة تؤلم رقبته، وتكاد تتحطم من التصدّع والألم, مرّت عدة أيام وهو مغشيّ عليه, كان يستيقظ أحياناً ولا يعلم بمكانه، ويأكل في غرفة صغيرة، قام فيها بخدمته عسكريّ عربيّ, كان يتفقده أيضاً طبيب ويناقش حالته مع شخص ما, ربما كان نفس ذلك العسكري أو ربما كان شخصاً آخر.

في كلّ مرةٍ ظنَّ أنَّه مات فيها كان يعود ليرى نفسه في هذه الحياة مجدداً, ماذا على المرء أن يفعل كي يلقى حتفه؟ خصوصاً أنَّه جبان لا يجرؤ على غرس إبرة في إصبعه، هكذا كان حمزة وقال في سرّه: "لو رغب بلال بالانتحار لجَرُؤَ على ذلك لكنّي أجبنهم، فأنا من قام بتدمير حياتهم". كان يُفكّر في ذلك وهو بين الوعي واللاوعي, لكنَّ ما صعق عقله وأضاء عينيه هو رؤيته لوالدته فوق رأسه تقول: "آه يا حمزة, لقد أعادوك إليّ". شرعَتْ في البكاء وهي تحمل يده, رفع رأسه قليلاً وبدا كأحمقَ في مظهره ذاك، تساءل: "لكن كيف؟". أرجعت والدته رأسه إلى مكانه وقالت له: "في الوقت المناسب يا عزيزي".

– لا.. أرجوكِ قولي لي.. هل أنا أحلم؟ أأنا في الصحراء وأنتِ سراب.. هكذا الأمر أليس كذلك؟

بدأ يذعر وينهض من مكانه، ثم أسرعت والدته لتُعيده إلى الفراش، فدفعها بعيداً بكامل قوته إلى أن سقطَتْ مُحطّمةً فُخّارَ الماء، ودخلت إحدى تلك القطع المُحطمة في يدها, صرخت عندما هوت، لكنَّها هدأت بشهقةٍ عندما وصلت إلى الأرض, أخرجت تلك القطعة المُحطمة من يدها فنزفت، واختلط قليل من دمائها بالماء المصبوب على الأرض, أمّا حمزة فبقي متسمّراً في مكانه وهو يجلس على حافة السرير، وحدقتا عينيه أكبرُ من حجمهما الطبيعي.

خافت والدته من تلك النظرة وأرادت الخروج لتتجنّب رؤيته, فالنظرُ إليه كالنظر إلى الشيطان في داخل مَنْ تحبّ, أما هو فكان ينظر محاولاً أن يتذكّر مَنْ هي, ثم انتعشت ذاكرته عندما جاء والده وصفعه صفعة قوية نزلت كالبرق على وجهه, فداخ منها وسقط على السرير, نهضت والدته ودثّرته باللحاف وهي تبكي.

بعد عدة أيام من الصمت عاد إلى رشده, كان يذكر دفعه لوالدته، لكن دون أن يعلم سبب فعلته تلك, أراد الاعتذار في كلّ مرة اقترب منها، لكنَّه سرعان ما كان يتراجع مفكراً أنَّه قد

يظهر متعمداً إذا ذُكِرَ الأمر, جنون الريبة وتحليل الوقائع كانا يدفعان به إلى الحماقة, فقد كان ينظر للأمور على أنَّها لوحة فنية بحجم حائط، وهو يقف مدقّقاً في تفاصيلها ناسياً أن يرجع خطوة إلى الوراء كي ينظر إلى الصورةِ كاملةً.

كان والده يحفر ما يشبه الخندق في فناء المنزل؛ كي يقوم بتخبئة حمزة, كان يسكب الماء لتطرية الأرض، ثم يقضي ساعات وهو يعمل بالمجرفة دون توقّف, أما والدته فكانت تجلس على كرسي لتبقى بجواره وهو يعمل، وتقترح عليه طرقاً لإنشاء فتحات للتهوية، ومحاولة وضع أنواع الطعام الذي لا يفسد ولا يتأثر بالرطوبة، مثل الزيتون والعسل ومخلل الطماطم، وكلّ ما يمكن نقعه في معلبات مع الماء والملح، أما حمزة فبدأ بالقدوم والحفر مع والده، وقرّر عدم تركهما مجدداً.

بدأ يتكلم ويخرج قليلاً من المنزل, وفي أحد الأيام عندما كان يجول الشارع لاحظ رجلاً يرتدي معطفاً طويلاً داكناً، وقبعة مدورة تخفي نصف وجهه, كان قصير القامة ويميل إلى النحول, ومن التجاعيد الخفيفة التي ظهرت حول فمه بدا في عقده الخامس, كان وجوده أمراً اعتيادياً إلى أن لاحظ حمزة أنَّه رآه عدة مرات بطريقة غريبة, أيعقل أن تكون مجرد صدفة؟

جرّب حمزة أن يلتفت إلى ركن منعزل, وقد تطلّب منه حوالي ثلث ساعة كي يذهب إلى زُقاق, وعندما التفت رأى الرجل يمشي على الجهة الأخرى من الطريق، متّخذاً نفس الاتجاه، وكان يحاول ألّا يُظهر تتبُّعَه لحمزة, قال في خلده إنَّ الرجل يبدو على قدر هائل من الغباء, من الذي يتّبع شخصاً بتلك الطريقة الواضحة ثم يحاول التصرف بغموض؟! لا خوفَ منه على أيّة حال؛ لأنَّ مَنْ يظهر وجهه يعني لم يخطر في باله أنَّه قد يتعرّض لضربة, وبذلك لو كان مجرماً لكان أشدَّ حرصاً على نفسه، تجاهله حمزة وغادر عائداً إلى المنزل.

جاء والده مرتبكاً وتحدّث معه: "يبدو أنّنا سنضطر إلى إخفائك، ماذا فعلت في الخارج؟ يجب أن تكون أكثر حرصاً.."

– اطمئن يا والدي، فقد قلّلت من خروجي، وأكاد لا أُلاحظ أبداً

– سَيُجرون تفتيشاً للمنازل.. إذا تخطّينا هذه المرة سنكون على ما يرام

– لن أسبّب لك ولوالدتي خطراً؟ يمكنني الذهاب لمكان آخر.

– سَتتسبّب لها بنوبة قلبية! فهي لم تَنَمْ أو تأكل جيداً أثناء غيابك

بعد عدة لحظات من الصمت قال حمزة: "لا يُمكنني الجزم بما يغفر الله، لكن استغفرْ لي يا والدي إذا رفضَ ربّي ذلك؟"

– أتودُّ أن تعرف إذا غفر الله لك؟

– أجل

– هل غَفَرْتَ لنفسك ولأفعالك؟

– لا

– إذن تلك هي طريقة الله في القول إنَّه غفر لك

– وكيف ذلك؟

– أعطاك ضميراً وقاضياً للنفس، فحكم عليها بالعذاب الأبدي, لكنّي وأنتَ تعلم أنَّه لا توجد حياة أبدية إلا في داخل الأجساد الفانية، فقد قتلك الله لتحيا بعد الموت من جديد

– ومن أين نكتسبُ الحكمةَ؟

– تنضج وحدها حسب بذرة أفعالك السيئة

– بذرة كالعلقم تُنتج ثمراً حلواً

ابتسم والده، وقال: تماماً كذلك

غادر والده المنزل وبقي حمزة مع والده سعيداً بالحياة التي أعطته فرصةً لتغيير مجراها, لا يحصل المرء على فرص ثانية تأتي إليه دون جهد, أيعقل أن يكون محظوظاً؟ وعندما عاد والده أعلن عن مجيء رجل برفقته, بقي حمزة يستمع من وراء الحائط فسمع والده يقول لوالدته: "لقد تعرّفت على هذا الرجل بالصدفة عندما كنتُ عائداً من العمل، فقد تعرّضتُ لجنديّ يتّهمني

بالتخفّي على ابنٍ لي، فجاء هو ودافع عنّي! ما هذه الصدفة والرزق الذي جاءني وجنّبني المصائب".

– اذهب إليه يا عزيزي عَلَّنا نجد مخرجاً لولدنا

عندما ذهب والده إلى الضيف استمع حمزة من خلف حائط آخر لحديثهما, قال والده كاذباً: "لقد غادر ابني إلى الأبد, فقد غَضِبَ منّي وقرّر الرحيل".

– هكذا هم الأولاد لعينون! تقضي حياتك لتجعل منهم آدميين، فيُهرَعون كالجرذان بحجة رغبتهم برؤية العالَم، إنَّهم حيوانات عفنة تعيش في جحور قذرة, لو كانت هذه الجدران تسمع لعلمت عن مدى التهوّر الذي قامت به.

لم يفهم والده ذلك المغزى, لكن شعر حمزة بحرقةٍ في صدره, فقد علم أنَّه قصده بالجدران, قرّر أن يأخذ نظرة عن مظهر الرجل، فتفاجأ بما رأته عيناه! كان نفس الصعلوك الذي تبعه, فهو لم يكن غبياً بأنَّه أعلن عن مظهره عندما تبعه، بل هو عكس ذلك تماماً, لقد قصد أن يراه حمزة فيتكلّم عن الجدران لإيصال رسالة إليه.

– لِمَ لديك كلّ هذا الحقد؟ أسبق أن تأذيت بسبب ابن لك؟

– لا... لكنّي أرى الأمر طوال الوقت, رجل واحد جبان يُدمّر عائلته لعدم تضحية من أجلهم, بل الأسوأ من ذلك يُضحّي بهم كي ينفذ بجلده, أسمعت عن جمال باشا وما فعله بالمتمردين؟ يجب أن يُعامل الأوغاد كذلك، خصوصاً الكاذبون ومُفشو الأسرار.

مسح حمزة على جبينه بدل أن يلطم, ذلك الصعلوك يعرف عن آزر وبلال وما أخبر به حمزة, كيف علم عن كلّ ذلك؟ يبدو أنَّ الحياة أعطته لذة سعادة لعدة ساعات فقط, كأنَّها تقول: "ألن يكفيَكَ ذلك أيُّها الإنسان المنافق؟"

عندما غادر الرجل ذهب والده ليتحدّث إليه, سأل عنه والدته لكنَّها لم تعلم عن مكانه, ذهب إلى المخبأ الذي صنعاه لكنَّه كان فارغاً, وعلى فوهة الأنبوب تُركت رسالة كتب فيها:

"فلتسامِحْني يا والدي, أحياناً لا تَنْبُتُ الحكمة من بذرة الأعمال السيئة، بل تتطلّب تعويضاً عن تلك الأفعال، فتنبتُ جرأة المواجهة, ماذا لو لم يغفر الله لي؟ ماذا لو كان ذلك الضمير هو صوت الله يحدّثني عن غضبه منّي؟ أتقفُ لي يا والدي إذا أدار العالم ظهره لي؟ هل سأرى وجهك بين تلك الرقاب المُلتفتة؟ أنا لا أستحقّ ذلك، فأنا أسوأ ممّا تعتقد، وإذا وقفت لي فسأسمعُ صوتك في قلبي ينزل كالثلج على قلبي المحترق, لأول مرة في حياتي سأُضحّي بنفسي لشيء جيد، سأضحّي بنفسي للوطن".

(37)

"لا أرغبُ في الموت"

خطرت تلك الجملة في بال إيليا دون سابق إنذار, وقد مضت في طريقها كطائرٍ عَبَرَ السماءَ في يومٍ صيفي، حصل ذلك عندما كان ينتظر من الخيّاطِ إعطاءه البذلة العسكرية التي قام بتعديلها, كانت تلك المرة الأولى التي تساوره رغبة في الاستيقاظ والنهوض إلى الحياة, في البداية كان أمراً غريباً أن يقوم بتدريبي، وعلى قدر ما كان ثابتاً أمامي، كان التوترُ يجري في داخله, وبعد أن اكتشف أنّي من ترتدي قلادة والدته، لم تَعُدْ تلك الذكرى تُشعره بالندم, بل كان شاكراً على ذلك الموقف؛ لأنَّه أدّى إليّ, وفي تلك الفترة امتلك صداقة بلال، وبطريقةٍ ما ارتباط عاطفيّ لي يُذكّره بتلك الصفعة التي هوت من يدي على وجهه, ابتسم وهو يتذكر يومنا ذاك، وشعر بالحماس لرؤيتي مجدداً.

شرح الخياط لإيليا أنَّ ذلك أغرب عمل قام بصنعه، وقد اكتفى إيليا بطلبه أن يدعَ الأمر، ودفع له ضعف أجره كيلا يسمع استهجانه مجدداً, وفي الساعة المحددة قابلني في نفس المكان الذي اتفقنا عليه، إلّا أنَّه جاء متأخراً.

قلت: أَحَصَلَ مكروهٌ؟

– لا... لكنّي اضطررتُ للتأخّر, لن يحصل ذلك مجدداً

– حسناً... هل سنتعلّم إطلاق الرصاص اليوم؟

– سنرى لاحقاً, لكن الآن جرّبي هذه

ناولني من حقيبته البذلة العسكرية، وقد بدت ملامح الدهشة على وجهي, كيف خطرت له هذه الفكرة ولماذا, قال: "لقد خَمَّنْتُ حجمها"، ثم ألقاها إليّ.

ألقيتها إليه دون أن أنظر إليها أو أتفحصها وقلت رافضةً: "لا أحتاج إلى أيّ إضافات، فلنكتفِ بالصفقة, أنتَ تُدرّبني وأنا أعلّمك القراءة والكتابة.

ألقاها إليّ مجدداً

– لا تستطيعين التدرّب بثوب، فنحن لن نكتفيَ بالأسلحة

ألقيتها إليه وقلت: أليسَتْ تلك مشكلتي؟ ليس لديَّ شيء لأعطيك إياه في المقابل

ألقاها إليَّ وتلك كانت المرة الأخيرة

– أرجوكِ لا تلقيها! لا أريد شيئاً في المقابل، والحقيقة يا جودى أنَّكِ تثيرين إعجابي وأودّ لو أُعلِّمك كيفية حماية نفسك في هذه الأوضاع الخطرة

قلتُ ضاحكةً: لكنّي لا أهابك

– أعلم ذلك.. لكن هذه هي المشكلة بحدّ ذاتها، وهي أنَّكِ لا تهابين شيئاً والقليل من الخوف يجلب لك حياةً آمنةً.

– ماذا تعني؟

أخرج سيفين من حقيبته، ورمى إليَّ واحداً منهما، وقال: "لنَرَ ما قد يفعل رجل غيري أمامك". بدأ بضرب سيفي فما كان منّي إلا أن أبدأ بالمقاومة, وكلّما قاومتُ زادت ضرباته قوة وسرعة, بدأت أخسر في نظري تلك الضربات، ولم أَعُدْ أرى حَدَّ السيوف، بل باتت مجرد خطوط لامعة لا تكاد تُرى من سرعتها, وصرتُ أرجع خطواتٍ إلى الوراء إلى أن ارتطمتُ بجذع شجرة، ووضع إيليا سيفه على رقبتي.

– هل تخافين الآن؟

– منك؟ لا, من غيرك على الأرجح... لكنّي فهمتُ الدرس

– لستِ ممّن يجادلون

– ليس تماماً

التفت إيليا وقد قدّرتُ جهوده لتعليمي بتلك القوة, بل والاهتمام بما يجبُ أن أفعل، ولذا قرّرت في تلك اللحظة

– سآخذها معي وأرتديها غداً

– إنَّها مسألة طويلة، ارتديها هنا خلف الحشائش

– هل فقدتَ عقلك؟

– خُذي سلاحي وأنا سأحرس المكان النائي الذي لا يوجد فيه أحد

هكذا قال على سبيل السخرية

ذهبتُ لأرتديها ثم خرجتُ إليه، فنظر إليّ مذهولاً، وقال: "لم أرَ جندياً جميلاً من قبل".

– هل تسخرُ منّي؟

– بالطبع أسخرُ منك, لم أرَ أحداً بطول شعرك على أية حال

حملنا السيوف وبدأنا بالمبارزة, لم يكن ليتساهل معي، بل كثيراً ما ألقى سيفي بعيداً، وكان يأمرني بأن ألتقطه مجدداً, كانت ضرباته تبدو أنَّها ستصيبني، لكنَّه كان يعلم ما يفعل, وعلى قَدْرِ ما كان التدريب خطيراً، لم يُؤذِني في ذلك اليوم, بل تأذَّيْتُ بسبب سقوطي المفاجئ، الذي جعلني أرتكز بوزن جسدي بأكمله على حجر حادّ الطرف, نَزَفَتْ يدي بشدة وشعرتُ بألم هائل وخدرٍ في جسدي بأكمله, أنهضني إيليا وقام بمسح يدي وأجلسني بجانبه, كان وجهي مشتعلاً بالحرارة ورأسي يدور ببطء, قال: "لا بأس.. فأنا معتادٌ على هذه المواقف"، ثم أخرج إبرة وخيّط من حقيبته، فسحبت يدي بعيداً, قال: "اهدئي وفكّري بشيء آخر"، ثم جلب سائلاً وقطعة قماش مرتبة.

قلتُ له: كيف تحملُ كلَّ هذا بالصدفة؟

– ليست صدفةً، بل جلبتها عن عمد، ودائماً آخذها احتياطاً عند أيّ تدريب

– ما هذا السائل؟

– يُدعى كحولاً، حاولي ألّا تتحرّكي كثيراً

قام بسكبه فكتمتُ صرخةً دفنتُها بشدّ فمّي بجانب كتفي, شعرتُ أنَّ شخصاً ما يسكب ناراً على يدي، فاحمرّ وجهي وارتفعت حرارتي, لكنّي بالطبع لم أبكِ.

– الآن لن تشعري بالكثير أثناء تقطيبها

انتهى بعد عدة دقائق وأنا سرحتُ في طائر تابعته بنظري، وهو يطير من غصنٍ إلى السماء.

قال إيليا: إنَّه جميلٌ أليس كذلك؟

– فاتن, إنَّه يُذكّرني بعباس بن فرناس، وإن لم أفهم ذلك

– عباس بن فرناس! كيف خطرَ لكِ

– أتعرفُ عنه؟

– كيف لا أعرف؟! إنَّه أولُ مَنْ حاول الطيران، لكنَّه أخفق بسبب عدم حساباته الصحيحة لوجود ذيل

– وكيف تُفسّر ذلك؟

– الضغط, صحيحٌ أنَّ الأجنحة تُساعد على الطيران، لكنَّها لو كانت كافية لرأيتِ بِطريقاً أو دجاجةً تُحلّق.

– وما التفسير العلميّ؟

– التصميم الهندسي لشكل جناح الطائر يُساعده على الاستمرار في التحليق بسهولة بعد الإقلاع, فتتمّ عملية الطيران بأن ينحني الجزء الخلفيّ من جناح الطائر للأسفل قليلاً، ممّا يؤدي إلى اصطدام الجناح بالهواء المارّ من الأسفل، فينضغط بشدّةٍ، حيث إنَّ الجناح من الأسفل

يكون مستوياً تماماً، لكنّه مُحدّب من أعلاه، ممّا يؤدي إلى تبعثر الهواء في الأعلى، فيقلُّ ضغط أعلاه عن أسفله، فيرتفع الطائر في الهواء؛ بسبب زيادة هذا الضغط من الأسفل، ممّا يجعل الطائرَ يحافظ على ارتفاعه, كما تلاحظين أنَّ الطائر يخفي جسمه ويثني رجليه، ويبسط جناحيه، ثم يبدأ مباشرة بضرب الهواء بجناحيه مسبّباً هذا التفاوت في ضغط الارتفاع لأعلى أكثر وأكثر، وأثناء هذا التحليق تتماسك ريشات الجناح الكبيرة، حيث لا توجد بينها فجوات تسمح بمرور الهواء من خلالها، كلّ ذلك يعود إلى تصميم الريش المدهش، حيث تنبت من ساق الريشة شعيرات دقيقة تتصل بشعيرات أدقّ منها، تصل إلى ملايين الشعيرات الأكثر دقّة.

أبقى يدي داخل يده بينما كان يتحدث, بعدها أصبحت لقاءاتنا أكثرَ غرابةً، واجتنبنا ملامسة بعضنا, فقد تبادلنا الرغبة وعلمنا ذلك دون التحدّث في الأمر, ولذلك قضينا وقتاً طويلاً بالتحدّث عن أمور علمناها، وكان اتفاقنا على تدريبي قد انتهى منذ عدة أيام, وفي إحدى نقاشتنا انتقد عدم وجود روائيين عرب فاكتفيت بالقول:

– أنتَ تغفلُ عن الكثير

– لا يوجد رواية عربية

– وماذا عن أحمد فارس الشدياق؟ فهو أول عربي يضع روايةً، وكانت تدعى (الساق على الساق)

كان في بعض الأحيان يضع يده على وجهي، ويتردّد في أن يقوم بتقبيلي, بالنسبة إليّ لم أدعُ ما بيننا بالحبّ؛ لأنَّه لو كان هائلاً ومختلفاً كما تقول القصائد والروايات لما بعثرهم خريف الآلام, بالنسبة إليَّ كانت تُدعى بِـ(الحاجة) تماماً مثل الماء والهواء, لقد خلق شيئاً كي يرافق روحي وعقلي قبل قلبي، ولو جاء على هيئة مكان أو رجل أو طفل، أو أي شيء آخر؛ لنصبتُ عينيَّ عليه، وقلتُ إنّي أحبّه, عندها يمتلك قلبي, هكذا كان إيليا، لقد شكّله الكون، وجمعنا معاً من نفس غبار النجوم كي تتلاءم في سماءٍ تخصّنا, أحببتُ أن أدعوه بالمنطق الذي رسا على حياتي المُجدبة لينهض بها حياةً كاملةً.

قلتْ: أوليس ذلك منطقياً؟

– بل هو كلُّ المنطق

– ليس لأنّنا شابّ وفتاة نقع في غرام بعضنا, بل هي الحاجة التي جعلت ذلك, اتركْ أيَّ اثنين في العالم، ودعهما يتواصلان وحدهما، سيعتادُ كلُّ واحد منهما على الآخر.

نظر إليَّ بغرابة فقلتُ له بخجل: "إنّه المنطق"

– هل تستطيعين قولها؟

– لا

– ولا أنا كذلك

لم أُرِدْ أن يقولَها على أيّة حال, فقد بدت ثقيلةً، وكان الأمرُ غيرَ معتادةٍ عليه, وبجانب ذلك، هل سأترك والدتي؟ لا لن أتركها بعد كلِّ هذا التدريب الذي خُضْتُهُ لحمايتها, لكنّي أحببته وإن كان بصمت, يكفي أنَّه فهم صمتي، وما أردتُ التحدّثَ عنه, ذلك أفضلُ من أيِّ حوارٍ شاعري ومن عشرات الكلمات, لقد كسرَ الصمتَ بالتحدّثِ عن الحرب وعن وجوب دراستي للغة الإنجليزية.

(38)

"أنت لن تقتله ولن تنتقم من أجل عائلتك.. أليس كذلك؟"

قالها إدريس وهو يشعرُ بالحنقِ، ويبدو أنه على وشك مضغ خشبة الطاولة التي يقف بجانبها

قال بلال: حاولتُ... حاولتُ مراراً وتكراراً لكنّي لم أفلح

– لم تفلحْ أم أنَّكَ لا تريد؟ يوجد فرق في ذلك

– ما بالُكَ أنتَ؟ ولِمَ تهتمُ بما أودّ أو لا أودّ أن أفعل, هذه ليست مشكلتك

شعر إدريس بمهانة لا توصف، وامتلأ قلبه حقداً على إيليا، وإن لم يكن يعنيه الانتقام بشيء, إنَّها الغيرة! لكنَّه لم يختر الخروجَ من فمها، فإنَّ مواجهة العالم بأسلوب جيد هو محض استسلام بالنسبة إليه, لذلك كان من الأسهل أن يضغط على قبضة يده وهي تضغط بدورها على عقله الشيطانيّ, حتى وإن كان يدخل معاركه بصفة العدو وليس بصفة البطل، لذلك قرّر أن ينهيَ انتقام بلال بنفسه.

قال له بلال وهو يهمُّ بالخروج: "حتى إذا لم يسامح المرء، عليه التأقلم مع الحياة، وإلّا يعيش معذباً باليأس".

ألقى عليه إدريس نظرةَ شزرٍ وقال: "كنتَ مجرد شابّ يمثّل دورَ العجوز إلى أن أصبحتَ واحداً, ألا تظنُّ أنَّ هذا يجعل قرب موتك سريعاً؟"

نطق بتلك الكلمات ثم غادر في طريقه

ذهب إلى منزلي وطرق الباب، لكنّي لم أكن في الجوار, كنتُ في الجهة الأخرى بعد أن حاولتُ جاهدةً إخراج والدتي من المنزل كي تستنشق هواءً نقيّاً، لكنَّها رفضت في البداية، ثم طلبت منّي أن أسبقها وهي ستلحقني, علمتُ أنَّها لن تخرج، لكنَّها أصرّت وطلبَتْ منّي في النهاية أن أغرب عن وجهها، وبدأت بالبكاء، وقالت إنَّها لن تخرج إلّا إذا اجتمعت عائلتنا بأكملها, تركتُها في تلك العتمة كي تهدأ، وعندما أعود كنتُ سأجدها في صوابها كما تفعل دائماً، ثم تقبل في النهاية أن تخرج برفقتي.

لم أنتبه أنَّ ليلاف وإدريس وقفا معاً أمام منزلي, فقد جاء إدريس أولاً ومَدَّ قبضته لطرق الباب، إلَّا أنَّها أوقفته بصوتها, فلم يتمالك نفسه وفوجئ بزيارة تلك العثمانية, كانت ترتدي قفطاناً كمونيّاً بورود زرقاء انتشرت على آخره بلطف, وكان تضع نصف شعرها للوراء، وترتدي أقراطاً من اللؤلؤ، لم يحزر إدريس نوع قماشه، إلّا أنَّ فخامته لم تكن مبهمة.

"مرحباً بك أيها العربي!"، قالت له ثم تنحَّت, قال إدريس وهو يبلع مقته: "أهلاً بك"

– يبدو أنّنا في نفس الزيارة

خاطبته ليلاف وهي ترفع حاجبها الأيسر وتنزل جفنها، ثم تنظر إليه بثقة, وتَّرتْ نظرتُها تلك إدريس فما كان له إلا أن يقول: "أجل.. في الواقع الفتاة التي تسكنُ هنا هي خطيبتي".

أطلقتْ نبرة مبهجة وضربت كفّيها بصفقة واحدة، واتّسعت عيناها، قائلة: "جودى؟! آه.. تلك الشقيّة".

ندم إدريس على نطقه بذلك, فهي تعلم مَنْ أنا ولا تعلم من هو, يا لهول المصيبة التي وضع نفسه بها!! وفي ذلك الحين أراد التملّص بأي طريقه داعياً ربَّه ألّا تحصل أيّ شبهات عليه, فإذا دخلت ليلاف ولم أعلم من هو عند سؤالها سيثيرُ أمرُهُ الشكوكَ

ابتسم وقد لمع جبينه

– أجل.. أجل

اقتربت ليلاف لتطرقَ الباب، لكنَّها تركت سبابة أصبعها في الهواء وهي تنظر إليه

– ألا تريد الدخول لتلقي التحية على خطيبتك؟

– لا.. لا.. لا بأس سأغادرُ الآن

قال ذلك ثم ابتعد, التفّ في نصف الطريق ونظر إلى ليلاف من بعيد، وتمتم قائلاً: "عاهرة!"

دخلت ليلاف منزلنا بتواضعٍ ودهاء, أُضِيءَ وجهُها بابتسامة متكلفة، وحملتُ يدي إلى صدرها, ثم مثّلَتْ أنَّها لم تلاحظ الجرح إلا عندما حملته بيدها, قالت: "آه! ما الذي حصل ليَدِك؟"

أردتُ أن أنطق بردٍّ لكنّها قاطعتني: "من الرائع كيف... وضعتِ الضِّمادة، كم أنا فخورةٌ بك"، أردتُ النطق مجدداً لكنَّها استمرّت في مقاطعتي: "هل والدتك في الجوار؟"

– إنَّها نائمة في الغرفة الثانية

– والجميع؟

أخذتُ نَفَساً عميقاً وأنا لا أطيق صبراً بأن تغادر

– ماتت سلمى, أمّا أخيلة فتزوّجت وأخذت أولاد سلمى وأدهم لتعتنيَ بهم

حرّكت لسانها داخل فمها، كأنَّها تبتلع النصر، وقالت: "وبقيتِ أنتِ ووالدتك؟"

– أجل

– كم هذا مؤسف

– لِمَ ذلك؟

– من أين تأكلون في أوضاع هذه المجاعة؟

– لدينا ما يكفي

– وهل يساعد خليلك بذلك؟

– خليلي؟ ليس لديَّ خليل

رفعت حاجبها كما تفعل دائماً وهي تفكر

– ألم تقولي إنَّك عقدتِ خطوبتك؟

قلتُ بغرابة وأنا لم أفهم دافع تلك الخدعة: "كلّا... لم أقلْ ذلك قطّ"

عضّت على شفتها السفلية وأومأت برأسها

– اعذريني يا عزيزتي، حقّاً ظننتُ أنّكِ قلتِ ذلك.

– لا بأس

– أودّ لو أساعدك, تعلمين أنَّه ليس من الآمن أن تبقي ووالدتك هنا دون رجل, لا والد.. أو شقيق.. أو زوج لك.. وهذا المنزل والمزرعة كبيران عليكما الاثنتين, أنتما لا تحتاجان هذا الخطر كلّه، وأنتما تعتقدان بعودة أشقائك عَلّهم يتزوجون ويملؤون المنزل مجدداً.

بدأتُ تُثير أعصابي بغموضها وعدم تحدّثها عن سبب الزيارة, كانت تعبث بأعصابي وتحاول أن تجعلني أصنع سبباً أو موقفاً لهدف لم أعلم عنه بعد.

– شكراً لكِ, لكنّنا بخير هكذا

رفضَتْ بيدها كلامي وتحدّثت بكلمات سريعة: لا لا.. لستم بخير، هذه ليست حياة جيدة.

أبطئتْ من كلماتها وأكملَتْ: "ما رأيك أن تأتي إلى منزلي العائلي والدافئ, أريدُكِ أن تكوني مربّيةً لابنتي روسلين, أريدُ منك تعليمها القراءة والكتابة والشعر، وكلّ ما تعلّمتِهِ من كتب آزر... نحن نعرفُ بالطبع عن سرقاته في هذا المنزل.. أريدُكِ أن تعتني بها وتقرئي الإنجيل لها قبل النوم"

– يبدو عرضاً مغرياً لكنّي لن أترك والدتي

– فلتذهبْ عند أخيلة!

– ألم يكن رفضي واضحاً؟

– لم يكن كلامي طلباً, سَتُرغَمين على ذلك

– كم هذا مخيف! اخرجي من المنزل وإلّا حملتُكِ على أكتافي وألقيتُ بكِ خارجاً

– فلترميني إذن, لكنّكِ لن تَرَيْ آزرَ مجدّداً

– ماذا تعني؟

– يا عزيزتي ألم تقرئي يوماً عن الحرب؟ إنَّ الحربَ تماماً مثل حياة المتزوجين، فالرجال يحاربون في الخارج بينما النساء تحاربْنَ من الداخل, المسؤول عن الجنود في سجن القرية هو عمّي, وهو مَنْ أرسلني إليكِ بهدف تهديد آزر, لكنّي عدلتُ عن رأيي عندما وَجَدْتك تقرئين وتكتبين، وتفكّرين أيضاً, وكنتُ محقّةً عندما قلتُ إنَّكِ قرأتِ كتبَ آزر؛ لأنَّكِ لم تعارضي ذلك، قلتُ لعمّي إنّي أحتاج لمربّيةٍ لروسلين، وشاءت الصدفة أن ترتبطَ الأمورُ معاً.

بقيتُ صامتة من تلك الصدمة

قالت ليلاف: لِمَ البؤسُ يا جودى؟ افعلي ما أقول وأعدكِ أنَّك سترينه

– أريد رؤيته اليوم، وليأتِ لوالدتي.

– كلا, أنا سأغادر إلى إسطنبول بعد عدة أسابيع, ثلاثة أشهر أو أقلّ، جهّزي عدتك وسترينه قبل السفر.

– السفر!

أمسكت بيدي بحماس

– إنَّها جميلة، سَتُحبّين المكان هناك، أمّا والدتك فسأحاول جهدي أن أُعيد لها آزر، فيتزوج ويمتلئ قلبها بأجواء عائلية حميمة, أليسَتْ الحياةُ رائعةً؟!

قبَّلتني على خدّي ثم غادرت, لم تعد تهمّني رؤية آزر حقّاً، وكنتُ أسأل عن أشقائي بسبب قلقي على والدتي, فهو من وضع منزلنا في تلك الشبهات ظنّاً منه بأنَّه سيحرّر العرب، لكن لو لم يتملّكه الغرورُ، لربما أنجز شيئاً جدّيّاً دون أن يضع أيّ واحدٍ منّا في تلك المواقف, فقد غادر أدهم بسبب أفعال آزر, وغادرت أخيلة بعد ذلك كي تحافظ على حياتها وحياة الطفلين, أمّا أنا فتُرِكْتُ في منزلٍ كبيرٍ ومثيرٍ للشُّبهات، ممّا جعلني سيدةَ البيت, وقد كنتُ أسهرُ على حمايته دون أن أعرف شيئاً عن مصيري، لكنَّ الشيء الوحيد الذي أبقاني على أقدامي هي والدتي, فأنا لم أهتمَّ يوماً بصعوبة الاعتناء بها، بل علمتُ أنَّها في مكان ما في الداخل، تحمل قلبي بين راحة يديها كيلا يسقطَ متحطماً, ودونها لن يبقى لي سببٌ آخرُ للبقاء.

(39)

مرّتْ عدةُ أيامٍ لم يجرؤ فيها إدريس على أن يأتيَ حول منزلي، اكتفى بالاختباء ومحاولة أن يعرفَ إذا كان واقعاً في مشكلة أم لا, كان يختبئ تحتَ قبعته كلّما مَرَّ بجانبِ رجلٍ أو امرأةٍ, وعلم أنَّ أمرَهُ مشكوك فيه دون دليل قاطع يزجُّ به خلف القضبان، لكن ماذا لو انتهى مصيره مثل آزر؟

ومع مرور الأيام لم يَعُدِ الاختباء وتجنّب الناس مجدياً, فقد لمح أولَ مرةٍ رجلاً ينظر إليه بطريقة تفحّص، ثم التفت كلاهما معاً متجنبينِ بعضَهما, وفي مساء ذلك اليوم لاحظ رجلاً آخرَ يقفُ بجانب الحائط، وعندما لمح إدريس التفت كأنَّه ذاهبٌ ليخبرَ أحداً ما أنَّه وجده. وفي اليوم التالي قرّر الخروج من القرية، لكنَّه التفت هذه المرة لرجل ثالث، نظر إليه بنفس الطريقة, فما كان لهُ إلَّا أن يختبئ بين الهضاب، ومن ثَمَّ الوصول إلى النهر والأشجار, من حسن حظّي أن يدي كانت مصابةً، وإلّا وجدني وإيليا نتدرّب معاً.

نبضَ قلبُهُ بسرعةٍ من سرعة الركض، واختنق بحرارة الصيف، حيث كانت الشمس في أوجها وتحرق وجهه, خلع معطفه وهو ينظر من خلف غصن بعينين مفتوحتين على مصراعيهما, خلع معطفه وارتاح قليلاً، ثم غسل وجهه بماء النهر، وشرب منه القليل، وبقي هناك إلى أن حَلَّ الليل.

فكّرَ بالهربِ من كلّ شيء, من التدريب العسكري، وعدم العودة إلى القرية مجدّداً, فكّر في عائلته، فلا بأس لو قام بتركهم فلا بُدَّ أن يعطف عليهم أحدٌ ما يقول إذا شاهدهم: "يا لتلك العائلة المسكينة! فلنساعدهم في غياب والدهم البطل أثناء الحرب".

لا بُدَّ أن يكون للناس قلب، أجل فهم جيّدون, أما هو فكان يعتقد أنَّ المرء سيغفر له لو علم أنَّه سيّئ، ويعترف لنفسه بذلك, أليس من السذاجة والكفر أن نقولَ عن أنفسنا أنَّنا جيّدون ونحن شياطين لعينة؟

ارتفع عريرُ الصراصير، وغشّى على هدوء تلك الليلة, كان ذلك أفضلَ بالنسبة إليه كي يتحرّك بحريّةٍ دونَ قلقٍ من صوت أقدامه على العيدان والأوراق الجافة, كان مستعدّاً للمغادرة، ذهب ناحية الهضاب لكن سرعان ما عاد إلى مكانه عندما سمع صوتَ رجالٍ قادمين من بعيد, نظر من خلف نفس الغصن الذي وقف خلفه في البداية، وبقي هناك عدة دقائق إلى أن اختفت أصواتهم, انتصب في وقفته ورفع قدمه ليخطوَ خطوته الأولى للحرية، ثم سمع فجأةً صوتَ قدمٍ لشخصٍ ما داست على تلك العيدان والأوراق، ثم هدأت فجأة, أعاد قدمه ببطء إلى مكانها، وأخرج خنجراً من زناد خصره, اقترب ببطء بين الأشجار وقال وصوته يحاول الثبات: "من هنا؟".

ران السكون مجدداً وارتفع صوت العرير, تراجع إلى الوراء فشعر بشخص يسقط على الأرض ويحاول الفرار، فذهب مسرعاً لتفقّد الأمرِ بنفسه، وهناك كانت المفاجأة, وجد في المنتصفِ فتاةً مسكينةً تنظر إليه بذُعر, تراجعت إلى الوراء وهي تزحف، فبان وجهها تحت ضوء القمر, كان وجهها متّسخاً وثوبها كذلك, وكانت نحيلة وعلى ما يبدو أنَّها جائعة أيضاً, أعاد إدريس خنجره إلى مكانه وقال: "هل تَبِعْتِني؟".

قالت بصوت مرتجف: لا يا سيدي, كنت أتبعُ أرنبي وقد فَرَّ منّي هنا؟

قال إدريس بسخرية: أرنبك؟ ومن أينَ لكِ بأرنب؟

– لقد تبرّعت لي به امرأة جيدة، وطلبَتْ أن أطهوَه وأوزّعَه على عائلتي، فَفَرَّ منّي آخذاً هذا الطريق.

– أيقتلك الجوع يا فتاة؟

– أجل يا سيدي

ساعدها في النهوض على أقدامها، وعندما أمسك بيديها لاحظَ كم يسهلُ تكسريهما والتحكّم بها وبضعفها, وقد سمع صوتَ الشيطان في أذنه يقول له: "لقد غادرْتَ امرأتَكَ منذُ مدةٍ طويلةٍ تقارب العام، وربما هذه الفتاة هي رزقٌ من الله، كيف ترفض نعمة ربّك؟ شاءتْ أم أبَتْ فهي أُرسلت لتُعوّض عنك بُعدك وعُزلتك عن النساء.. هي لك.. لك".

قال لها: لقد ضاعَ أرنبك، ربما أرسلك الله إليَّ لأقوم بتعويضك عن تلك الخسارة

– ولِمَ ستقوم بذلك يا سيدي؟

– كي تأكلي وتعيشي, نحن البشر نناضل للحياة حتى في أسوأ المواقف, أليس كذلك؟

– لا أعلم كيف أشكرك يا سيدي

– ناديني إدريس

ابتسمت بحماقة قائلة: "إدريس.."

قال لها: لكن هناك شرط لتنجي من جوعك أيّتها الجميلة

– ما هو؟

– أن تكوني زوجتي هذه الليلةَ فقط

– لكنّنا لسنا متزوجين يا سي.. يا إدريس

أحبَّ إدريس وقعَ اسمه من فمِها, ودَّ لو تكرّره عشراتِ المرّات، فتغريه بصوتها، وتخيّل صوتها يتكرّر في إذنه "إدريس إدريس.. إدريس.."

قال: لن يعلمَ أحدٌ بالأمر

– لكن...

بدأَتْ براءتُها تُزعجه، وقد صبر عليها أن ترضى بنفسها، لكنَّه وجدها تراوغ, يَجِبُ أن تعلمَ أنَّه لا مَفرَّ من ذلك, وفجأةً تغيّر مزاجه من حبّ سماع صوتها إلى خنقها للتخلّص من تلك النغمة البريئة المزعجة, فما كان منه إلّا أن فرضَ نفسه بالقوة عليها, وكلّ ما كانت ترجوه وتبكي لأجله كان يُرغّبه بالمزيد, لقد أحبَّ رفضها، وكانت كلمة (لا) تزيده قوةً, شعر بالسيطرة الكاملة وكأنَّه يستطيع التحكّم بالعالَم كلِّه, وعندما انتهى ألقى بها بعيداً، ثم رمى إليها كيسَ قماشٍ صغير فيه نقود, نهضت الفتاة وهي تحمل طرف ثوبها والنقود دون وعي وفرّت بعيداً, أمّا هو فعدّل بنطاله والتفت للمغادرة مجدّداً, لكن دون أن ينتبه هجم عليه ثلاثة رجال، وتلقّى ضربةً خلفَ رأسه أفقدته الوعي.

استيقظ وهو يشعرُ بألمٍ شديدٍ في مؤخرة رأسه, لا بُدّ أنَّ رأسه قد جُرِحَ بسبب تلك الضربة، وجد نفسه في غرفة بسيطة وصغيرة، لكنَّها مرتبةٌ بعناية، ونافذتُها تغطّي أطرافَها ستائرُ نظيفة, طرق أحدهم الباب، ثم دخلت خادمة تقول: "سيدتي في انتظارك"

خرج من غرفته واقتيد إلى غرفةِ جلوسٍ مرتّبةٍ، تعلو حائطها ساعةٌ ذهبيّةٌ كبيرةٌ، يتدلّى منها قرصٌ يتحرّك مع العقارب, وقفت الخادمة في زاوية الغرفة وعقدت كفّيها على بطنها وهي تقف بانتصاب, ثم دخلت ليلاف وقالت بلهجتها المبتهجة والساخرة كالعادة

– إدريس! كيف تشعر الآن؟

بَدَتْ معالمُ المفاجأة على وجهه, فمن بين جميع المخاطر التي خاضها في السياسة وتلك المعارك مع جميع مَنْ ضِدّه من الرجال، وجد نفسَهُ أمامَ خطرِ تلك السيدة, أو كما دعاها في تلك اللحظة (بالحشرة)، فهي تستمرّ في العودةِ إليه كالكابوس الذي لا ينتهي.

جلست أمامه ثم دخلت الفتاة التي قام باغتصابها، وقدّمت لهم الشاي, كاد أن يختنق من هول الصدمة، وعَجَزَ لسانه عن النطق، فأخرج صوتاً خفيفاً كالأبكم يُحاول التكلّم, أعطته الفتاة كيس النقود الذي قدّمه لها في الليلة السابقة، وقالت: "أشكرك يا سيدي لكنّي لستُ في حاجة للنقود". انحنت إليه باحترام بينما كانت ليلاف مستمتعة بالنظر إلى ذلك المشهد, قالت ليلاف: "شكراً لكِ, يُمكنكِ أن تغادري الآن".

خرجت الفتاة

قالَتْ ليلاف: أظنُّ أنَّكَ تعرف تلك الفتاة، ألم تكن برفقتها الليلة الماضية؟ أو كما يجب أن أقول.. فرضتَ نفسَكَ عليها ليلة أمس.

وضع يده على جبينه وعينيه وهو يشعر بالندم

– كانت مكيدة

– بالطبع... أتصدّق تلك القصة التافهة لفتاةٍ يضيع أرنبها, أعني يحصل ذلك في القصص البالية, لكن أن تصدّقها أنت كم هذا غريب!!

نهض إدريس غاضباً وقد نجحت في استفزازه

– تسبّبت في أذيّة فتاة فقط لتوقعي بي

ضحكت ليلاف ملء حَنْجَرتها، ثم صفّقت بيديها معاً، وسخرت: "أنتَ مَنْ قام بأذية الفتاة والآن تشعرُ بالأسف عليها.. يا لك من شهم!"

شعرت ليلاف أنَّه سيلقي حِمَمَ غضبه عليها, فهو مغتصب ومجرم لا يهتمُّ لشيء، وكم كان يسهل تحطيم رأسها في تلك اللحظة, لذلك قالت للاحتياط: "يوجد حرّاس خارج ذلك الباب, أقول ذلك لمصلحتك فقط".

جلس بهدوء

– فقط لأنَّي فعلتها لا يجعلكِ ذلك أقلَّ شرّاً منّي

– احذرْ أيُّها البطل, لقد أسدَيْتَ لها معروفاً، فقد كانت تعمل عاهرةً في أحدِ المواخير، وقالت إنَّها تودُّ لو تغيّر حياتها، فهي تعشق التمثيل المسرحيّ، لذلك اقترحتُ لها أن تُمثّلَ لي دوراً، وبالمقابل أن آخذها خادمةً لي إلى أن أَجِدَ لها دوراً في المسرح, لو رأيْتَ سعادتها، فقد كانت لا توصف.. ويا لها من ممثّلة! لقد خدعتك وهي تردّد "أرنبي.. أرنبي".

– أتظنّين أنّي أصدّقُ هذا الهراء؟ هل سأصدّق أنَّ فتاةً تُعرّض نفسَها للخطر فقط لتنفّذ دوراً مسرحياً؟ لا إنَّها مجرد صدفة وأنتِ استغلَلْتِ ذلك.

– وهل هي صدفة إمساك أولئك الرجال بك؟

صمت قليلاً وهو يشعر بالهزيمة

– كانت الفتاة تعمل بجانب الماخور الذي تذهب إليه دائماً

– ماذا؟! لم أدخل قطّ ماخوراً في هذه القرية

– أعلم ذلك, لكنّي لو أردتُ أستطيع أن أجعل الأمر صحيحاً، وأقول إنَّك تذهبُ كلَّ يوم, أترى ما أرمي إليه؟

– ماذا يجب أن أفهم من ذلك؟

تابعت بسخرية: ثم يقولون إنَّ النساء أقلُّ فهماً! أنتَ ما نريد وتفعل ما نريد أيضاً، وإلّا ذهبت إلى حبل الإعدام بسبب التمرّد على الحُكم والاغتصاب

أصبح وجهه أحمرَ ويكاد ينفجر من الغضب

– ما الذي تريدينه؟

– أن أحصل على كلِّ ما يُخبِّئه آزر, لقد تذكّرت شيئاً.. قالت لي جودى إنَّكما لستما مرتبطينِ, هل تُخبِّئ المزيد؟

سيطر عليه الصمت

أردفت: لا بأس, اجلِبْ لي شيئاً قيّماً ممّا خبَّئه آزر من جماعة التمرّد، وأيضاً عليك أن تخيفَ جودى إلى أن تقرّر الذهاب معي إلى إسطنبول للهروب منك

(40)

هل تؤمنُ بما ينسجُهُ القدر؟

وهل تَعْدِلُ الطبيعةُ دون محكمة بين الغزال والأسد..

أتظنُّ أنَّ الأسد سيتدلّى من حبل الإعدام وتحيا المخلوقات الضعيفة بسلام؟

لكن ماذا عن مكر الثعلب؟ وشراسة الدبّ والنمر؟ ماذا عن أمثالهم؟

وهل من العدل أنَّ للصقر جريمة على الأرض وتحليق في أعالي الحرية؟

نحنُ البشرُ لسنا أقلَّ ولا أكثر, مهما كنتَ في هذا الكون ومهما كان نسيجك أنتَ هنا لتحارب للبقاء بطريقة أو بأخرى, أتودُّ التحدّث عن العدل؟

حسناً, أيُفترَضُ بالأسد أن يموت جوعاً كي تعيش فريسته بسلام؟ ولِمَ لا نتحدّث عن النمل القاتل الذي يتغذّى على غيره أيضاً, أهي المعضلة بالحجم وهما في نفس القوة؟!

نحن نأكل ما حُلِّلَ لنا من الحيوانات, نقطف الثمار عن أشجارها, وإذا عشنا في جوعٍ قاتلٍ أكلنا ما حُرِّمَ وما حُلِّلَ، وقد نأكل بعضنا إذا اضطررنا إلى ذلك أيضاً, إنَّه قانون النجاة الذي يلتفُّ حول العدل، ولن يقف ثابتاً على مركزه أبداً, هكذا هي الحياة.. وهكذا جلس آزر بسكون في غرفة سجنه المظلمة، يلتفُّ حول ماضيه قبل يومٍ من إعدامه.

في نفس يوم إعدام آزر صحوت من النوم في وقتٍ متأخرٍ من النهار, وشعرتُ بروحي تؤلمني كأنَّها عالقة في صدري وتُثقله, شعرتُ أنَّي أواجه هلاك الموت، وكان قلبي ينخرني كأنَّ هناك طعنةً مع كلِّ نبضة, لم أعلمْ عن سبب تشاؤمي وضيقي الجسدي، والغريب في الأمرِ أنّي نظرتُ من النافذة، وإذ بنومي تعدّى الظهر, كيف سمحت أمي بذلك؟ فأنا لم أتعدَّ حدود استيقاظي بعد الفجر من قبل.

على مدار أشهر فشلت محاولات بلال في تهريب آزر, بحث عن إدريس وكان يبدو كالمجنون، وكان يهذي: "قال له إدريس هدِّئ من روعك".

– آزر.. سيأخذون آزر إلى ساحة المرجة مع متمردين آخرين ليقوموا بإعدامهم

صرختُ وأنا أبحثُ عن أمّي، لكنّي لم أجدها أبداً, ذهبتُ إلى غرفتها وغرفة آزر وأدهم وسلمى.. لا شيء.. لا شيء, خرجتُ مسرعةً وأنا أركض في المزرعة وأبحث عنها، وإذ بي أسمع أناساً يصرخون ويركضون, كان صراخهم ينمُّ عن خسارةٍ وليس عن خوف, عدتُ إلى المنزل لأبحثَ عن المسدس الذي أعطاني إياه إيليا، وأخذتُ أيَّ شيء قيّم وجدته في طريقي لأُخبِّئه تحت الفراش, دخلت غرفة والدتي وتحت السرير كانت المفاجأة.

جلس آزر وطلب من الجنود أن يأتوا بنقيبهم إيليا, فجاء بناءً على طلبه, أدخل الحارس إيليا فأومأ إليه كي يغلق الباب ويتركهما وحدهما, جلس إيليا أمام آزر، فظهرت ابتسامة باهتة على شفتيه وقال: "كم أمهلك الموت, يخفق قلبي بشدة وأقنع نفسي أنّي شجاع لا أهاب شيئاً، لكنّي أهابُ اللهَ وأشعر أنّي أخطأت كثيراً في حياتي، وإلّا فلن تغادرَ روحي إلى الله مطمئنة".

– لِمَ تُخبرني بذلك؟

– لأنّي لا أستطيع تصحيح أخطائي، لكنّي أستطيع تصحيح خطأ رفيقي بلال, أتدري كم أحبّه ذلك العجوز، إنَّه كشقيقٍ لي, والآن سأخبرك بما حصل, قبلَ بضعة أعوام ذهبتَ أنتَ وكتيبةٌ إلى مزرعة، وشُيّعَ أنَّ فيها متمردين أرمن بأسلحة روسية, فذهبتم في الليل واخترقتم المكان، وألقيتم الرصاص والقنابل لتكشفوا عند الصباح أنَّهم مجرد أفراد عائلات يتشاركون حياة فقر, وفي تلك الأثناء اختبأ عجوزٌ فقدَ عائلته، ومثَّلَ أنَّه جثةٌ كباقي الجثث، وبقي هناك غيرَ قادرٍ على الهرب، إلى أن جلسْتَ أنتَ هناك تنظرُ إلى ما فعلته يداك بندمٍ, وإذ بجندي ينادي باسمك، وعندها أخذ العجوز اسمك في ذاكرته كي تُتاحَ له الفرصة للانتقام منك بعد أن قتلت عائلته, كنّا أصدقاء طفولة أنا وهو وإدريس وحمزة, وبعد أن عَلِمْنا أنَّ جمال باشا سيُلقي باتهاماته على زمرة من العرب، تتبعنا خطواتك عن طريق مجندين في الكتائب، وقيل إنَّك ستحضر مؤتمر باريس, فغادر حمزة وهو مشكوكٌ في أمره، وعَلِمَ أنَّه سيكون مُراقباً، خصوصاً مع ثقافته الواسعة, كنت تراقبه في تلك القاعة لكنَّ الحقيقة هو مَنْ كان يتّبعك ويراقبك إلى أن انتهيت بتتبّعه إلى قريتنا، وهنا بدأت الخُطّة بوضع كتاب تيودور هرتزل في حقيبتك، والبحث خلف الباشاوات ووضعها في خيمتك، كي ينقلب عليك الحُكم ويتّهمك بالخيانة.

لكنَّ العجوز صديقي بلال لم يستطع إكمال المهمة, وبعد أن عَلِمَ اللواء عن قصة بلال عرضَ عليه أن يقود بتوجيهك، وذلك بإصدار أوامر إليك عن طريق رؤسائك آمرين أن تقوم بتتبّعنا, وبعد فترة من الزمن أرسلوا الظاهر شغموم كي يقومَ بخداعك، لكنَّه كان أحمقَ وطمّاعاً، وبذلك انشغل في أخذ أموال القرية بسحره المزيّف ونسي أمرك, أمّا خطته فلم تكن أكثرَ ذكاءً وقد هدّده اللواء بكشف أمره، وبذلك غادر القرية خاوي الوفاض.. أترى يا إيليا الجميعُ امتلك دلائل عنّا، لكن خطّة الجميع كانت أنت! ولم يتمكّن بلال من قتلك على أية حال.

كان يستمع باهتمام وقد فاجأه أن جميع ما فعله كجندي كان ينقلب ضده

قال: لماذا لم يتمكّن من ذلك؟

– لقد أحبّك ومال قلبه إليك دون رغبةٍ منه, كان يقول يهمّ شعورك بالندم، فالقاتل قاتل، وكان مقهوراً أشدَّ القهر، حتى لتكاد تظنُّ أنَّه سيعضّ نفسه لتحمّل ألمٍ جسديّ بدل شعوره الداخلي, لقد

انتحب كالطفل وهو يقول إنَّه سامحك، ولا يدري لِمَ سامحك, قلتُ في خلدي إنَّ الله أنزل ثلجاً على حرقته التي عذّبت قلبه، لكنَّه قُهِرَ بسبب شعوره الهادئ، وظنَّ أنَّه خائن لعائلته، ولا يستحقّ أن يبقى على قيد الحياة.

– لِمَ فعلَ كلَّ ذلك وكان بإمكانه قتلني بكلِّ سهولة؟ لِمَ سافر حمزة وخطّطتم لكلّ ذلك؟

– لأنّنا قوميون قبل أن نكون منتقمين, أردنا الإطاحة بالدولة العثمانية، وظَنَنّا أنّك ستتصرّف حيال ما تقرأ وتتأثر بكتيبتك وجنودك، ثم هم يتمرّدون أيضاً وهكذا دواليك.. لم يخطر في بالنا إخلاصك وابتعادك عن المشاكل.

بُهِتَ إيليا وبدا كالأموات, قال بصوته الخافت المعتاد: لم أكن مخلصاً أو هادئاً, بل ندمتُ أشدَّ الندم على ثقتي واتّباعي لتعليمات اللواء، وجئت إلى القرية كيلا أدرّب جنوداً للحرب، ومنها كي أعرف مكان اللواء, كنت سأغادر إلى الولايات المتحدة وأُغيّر اسمي، وأبتعد عن كلّ ما فعلته في حياتي، ثم أرسلوني إلى هنا، وقلت هذه المرة سأحمي متمردين ولن أدرّب جنوداً على الإطلاق, لكنّي صادفت أن أدرّب جندياً واحداً، وأظنُّ من حقّك أن تعرفَ ذلك

– لماذا؟! مَنْ هو الجندي؟

– جودى

صمت آزر قليلاً

– هل آذيتها؟

– لا, في الحقيقة أنا مُغرَمٌ بها

– يا لها من نهاية لي!! أعلمُ أنّي لم أُخيّبْ ظَنَّ عائلتي فحسب, بل وضعتهم في خطر.

– ليسوا في خطر, إنَّها تستطيع استخدام أنواع الأسلحة والبارود أيضاً, وتستطيع أن تدافع عن نفسها بالسيف والخنجر، إنَّها قويّةٌ جدّاً وأحياناً أهاب عقلها.

تمتم قائلاً: "ذلك جيد, لكن ما بالُ عقلها؟"

– إنَّها تظنُّ أنَّ والدكم على قيد الحياة وتراه أحياناً

– أصبحَتْ مثل والدتي.. لا أظنُّ أنَّ أيَّ تهديدٍ منّي سيخيفك، لكن أخبرني ما هي نواياك تجاه شقيقتي؟

– كنتُ لا أرى من العدل الزواج بها لأنّي مجرم وهي مجرد فتاة لم تَعِشْ حرباً قطّ, لكنَّها تكون عاقلة برفقتي ولا تتوهم شيئاً، ولا أظنُّ أنَّها تشعر بالأمان إلّا معي, لذلك سأطلب منها أن تتزوّجني

– وإذا رفضتْ.. أتؤذيها؟

– سأبقى على حمايتها

– أنا خائر القوى لا أستطيع إلّا أن آخذ منك وعداً, عِدْني أنَّها ستكون في أمانٍ برفقتك، وأنَّك ستبعدها عن حَيَوانات الحرب.

– أَعِدُك بذلك

دخل جندي وقال: لقد حان الوقت

أخرج الجنودُ آزر والمتمردين, وقف بلال مع إدريس وباقي العائلات، وبدأ ينتحب على رفيقه, أمّا إدريس فكان قلبه يخفق خوفاً بأن ينتهيَ مصيره مثله, فعاد راكضاً إلى منزلي ليخيفني ويكسب الحماية التي وعدته بها ليلاف.

وُضِعَ بلال على حبل المِشْنقة وتـمَّ رميه وإعدامه, فسقط بلال باكياً كعجوز خسر ولده, وفي تلك اللحظة كنتُ قد وجدتُ جثّة أمي تحت السرير وهي تحتضن معاطفنا جميعاً, تراجعتُ بذعرٍ وأنا أزحف إلى الوراء وأريد الصراخ، لكنَّ صوتي لم يخرجْ ودموعي كذلك, عليَّ اللعنة! عليَّ اللعنة! لا أستطيع أن أُخْرِجَ مشاعري، بل كاد قلبي أن يتوقف، وتجمّدت أقدامي في مكانها.

جاء إيليا متأخراً، فوجد المتمردين مشنوقين وبلالاً على الأرض, قام بإنهاضه مسرعاً وأخذه إلى مكان هادئ.

قال له بلال: عائلته.. غادر إلى عائلته، سيقومون بتفتيش منزله ولا يوجد رجلٌ في العائلة.

جلستُ لوهلة وأنا أرتجف، ثم مَدَدْتُ يدي وجَرَرْتُها من تحت السرير, أخذتها إلى الحمام وخلعت ثيابها وأنا أنتحبُ ويؤلمني مظهرها, قمتُ بغسلها ومسحتُ جسدها بماء الورد وزيت الياسمين، وقمتُ بتنظيف أسنانها، ومشّطتُ شعرها, ألبستها ثوباً نظيفاً مُزهّراً بالورود، ثم وضعتُ يديها على بطنها, حضنتها للمرة الأخيرة وأنا أرتجف، وقمت بتقبيل يديها ورأسها وهمستُ لها كأنَّها تسمع: "آسفة! آسفة! لم نحصل على عدل يا أماه!"

خرجتُ لطلب المساعدة، بينما كان الناس مشغولي البال ومشتتين, انتبهَتْ إليَّ جارةٌ لنا، فساعدتني على جلب الناس لدفن والدتي بطريقة ملائمة والصلاة عليها، ثم غادرتُ مسرعةً قبل أن يتكلّم أحد عن وجودي وحدي.

أخذتُ المسدس وخرجتُ لكن لا أعلم إلى أين, أمّا أصوات البكاء التي في الخارج فلم أفهم سببَها، لكنَّها جعلتني أعيشُ في كابوس, فبدأت حرارة جسدي ترتفع، وبدأت أشعر بالدوار والغثيان, ولحظة خروجي من الخلف إذ بي ألتقي بإدريس

– جودى ما بكِ شاحبة؟

لم أستطع التكلّم فقال: "عليك أن تأتي معي الآن"

– لا

– لا تملكين خياراً يا عزيزتي

أراد أخذي من يدي، فأخرجت المسدس ووجّهته إلى رأسه, لكنّي خطوت إلى الوراء قليلاً كيلا ينتشله منّي.

ضحك قائلاً: لا تستطيعين استخدام السلاح, يا لكِ من شقيّة!!

– لا تجعلني أقتلُ للمرة الأولى

– المرة الأولى! لن تكون هناك مرة أولى، أنتِ امرأة لا تستطيعين حتى البصق في وجه رجل.. خصوصاً رجل عسكري مثلي, أعطيني السلاح يا عزيزتي، وتعالي برفقتي حيث السعادة والأمان.

– لن أذهبَ إلى أيّ مكان، تقبّل ذلك.. اذهبْ فحسب.. هيّا

اشتدَّ الصراخ مجدّداً بتلقي أخبارٍ جديدة

قال إدريس: ألم تعلمي سبب صراخهم؟ لقد تَمَّ إعدام المتمردين في ساحة المرجة، وكان آزر من بينهم، أما أدهم فتلقينا خبر وفاته قبلَ عدة أيام.

هل يعقل؟ هل يعقل أن تموت أمٌ وابنُها في نفس اليوم؟ أيعقلُ أنّي خسرت الجميع؟ نظرتُ إلى إدريس وأردتُ شيئاً أكثرَ من قتله, أردتُ تعذيبه وتحطيم رأسه لأرى الدماء الذي ترفض الأرض ابتلاعها, جاء إيليا من خلف إدريس وقد رأيته ورآني أحمل السلاح, أشار لي أن أبقى هادئة كيلا أقتلَ وأفعلَ أولَ جريمةٍ لي، أمّا هو فكان معتاداً على القتل, لكنّي لم أرد منه أن يأخذ فرصتي وغضبي, فأطلقتُ رصاصةً على رأس إدريس، وشاهدت دماءه تتناثر في الهواء، وشاهدته وهو يسقط إلى الخلف.

(41)

بعد أسبوع جلس بلال يحدّق في الخواء بعد أن جفّت عيناه من الدموع، واحمرّتا من فرط البكاء، فقد شاهد أعزَّ أصحابه يُقاد إلى حبل المشنقة ويُعدَمُ أمامه, زاد غضبه واستياؤه، وأصبح التآمرُ ضد الدولة العثمانية أمراً شخصيّاً وليس من أجل آزر فحسب، بل تذكّر مظهر إيليا عندما حَلَّ الصباح على جريمته، ونظرة الندم والحسرة التي ظهرت على ملامحه, هذا ما اقتنع به بلال بعد أن اعتبره رفيقاً له, وكانت قد ظهرت أوراق سرّيّة لقنصل فرنسي في سوريا، التي كانت تحتوي على نسخ تتعلّق بقضية الحرية العربية، التي جرت بينه وبين نادٍ عربيّ كان مألوفاً بسبب رابط جمعه بين أولئك المفكّرين, وذلك كان سبباً غيرَ كافٍ لإعدام المزيد من تلك الفئات، إلّا أنّه كافٍ بالنسبة لجمال باشا.

ما كان أمام بلال إلّا أن يخرقَ قوانين بحور الشعر من أجل رفيق روحه, ترنَّم بقصيدة متفاوتة البحور دون أن يعبأ بما ينطق, قال:

أردتُكَ للدّهرِ وليس للزمنِ... وخيطُ الحياة خادع الانقسامِ

بموتك أُلْقِيتُ إلى جانب الموتِ... فلازمتني قبري وجاء انعدامي

وقلنا: أنا وأنتَ من رحم تربةٍ... ومن نفثةٍ أعطت لنا الأجسامِ

يُقال بحور الشعر لا تندمج معاً... ومن شوقي الشجي يأتي انسجامي

فاعلاتن فاعلاتن فعلاتن... بحر رملٍ ينسج الحزن إليكا

لعنة كانوا العتاة الظالمين... أخذوا نصف حياتي فيكَ ظلما

فعولن فعولن فعولن فعو... أيا ربي اجعل بقبره دفئا

وخُذْ حسنتي عوض ذنبه... وهبه أناتي وهبني عذابا

لا شيءَ يعيش من أجله ولا أحدَ سيبكي خلفه, آخر ما سمعه هو تبادل برقيات بين الشريف حسين ومشتكين عن جمال باشا منذ بداية إعداماته للأفراد, وإذا لم يكن لديه سبب أو

أحد ليعيشَ من أجله، كانت لديه مئات الأسباب للموت, لذلك أخذ ما يستطيع حمله وغادر مع مجموعة رجال من ضمنهم الشاعر عمر، وعبروا طريق الصحراء ليصلوا إلى الحجاز.

خلال ذلك الأسبوع كنّا قد تزوّجنا أنا وجودى بشهادة عمّي خليل وعائلته, لم تكن جودى بوعيها معظمَ الوقت، اضطررنا للزواج كي أحميَها وأُعلنَ أنَّها ليست وحدها في تلك الأوضاع الخطيرة, أمّا هي فكانت قليلاً ما تستيقظ من الحمّى التي أصابتها بعد موت والدتها وآزر، ولم تكن تبكي مطلقاً في البداية.

أمّا ليلاف فلان قلبها قليلاً بعد أن علمت وللمرة الأولى أنّي مع جودى, فسارعَتْ إلى منزلها وساعدَتْ في حزم أمتعتها, أمّا أنا فكنتُ قد غادرت قبل ذلك وتخلّصت من أيّ دليلٍ أبقاه آزر في المنزل قد يدين ما تبقى من العائلة, لكنَّها انهارت بعد عدة أيام، وبكَتْ عوضاً عن كلّ تلك السنوات، ممّا زاد من حِدّةِ مرضها, وكان قتلها لإدريس يلعب دوراً كبيراً في انهيارها، فهي كثيراً ما كانت تنبذ القتل بعد أن اغتيل والدها.

قلتُ لها أولَ لحظة استيقاظها إنَّنا زوجان، ولا بأس في وجودي حولها، فقالت لي: "هل أخاف وبجواري نقيب حرص على تدريبي". كانت المرة الأولى التي تبتسم فيها منذ مدة، لكنَّها لم تُطِلْ كثيراً إلى أن اشتدّت عليها الحمى مجدّداً وعادت للسبات.

كنتُ أضعُ على رأسها كمّاداتٍ، لكن قليلاً ما كانت تهدأ عليها, أصبحتُ آخذها وأضعها في حوض ماءٍ باردٍ إلى أن تخفَّ حرارتها، لكن كان من الصعب ألّا أنظر إلى جسدها، فوجدتُ من الأفضل أن أجلسَ بعيداً عنها وأعودَ مجدداً لإنهاضها ومساعدتها على ارتداء ملابسها, كانت تلاحظ توتري وتتابعني بنظراتها، كأنّها تقول: "مع كلّ الرجال الذين قتلتهم والآن تشعر بالضعف أمامي".

لولا مقتها للحياة لكانت خجولةً وتختبئ تحت طبيعة المعايير البشرية, لكنّي مَقَتُّ الحياة كذلك، وكنّا معاً عبارة عن مجرمينِ لا نعلم نهايتنا, طلبَتْ منّي أن أقصَّ شعرها ففعلتُ, قصصتُ أغلبَهُ فأصبح يصلُ إلى حَدِّ أكتافها فقط, وبعد عدة أيام بدأت حالتها بالتحسّن، كانت تستلقي لتتحدّث وأنا أجلس بجانبها أستمع إلى حديثها.

قالت: "أتعرف كيف يكتبُ الشعراء قصائدهم؟ يَحيكون ما بأنفسهم فتخرج للناسِ على صورةٍ كاملةٍ، ويكشف فيها الشاعر سِرَّ حربه مع نفسه, يبكي المرءُ أحياناً على قصيدة أو يبتسم، لكن مَنْ يرى الصورة الكاملة يقرأ تناقضات ذلك البائس الذي حاول إرضاء نفسه بإخراج شياطينه على الورق, لكن لا يمكنك أن تثق بالشيطان يا عزيزي، فهو دائماً يُريك أجمل أوقاته... فتستلقي بجانبي وتضمّني بين ذراعيك".

استلقيتُ بجانبها وضمَمْتها إليَّ بقوة, كانت رائحتها كقطع ورد الياسمين التي وضعتها في حوض الماء، لكنَّها كانت ممتزجة مع رائحة المرض الذي لا أستطيع وصفه, فهو بدون رائحة، لكن أشعرُ بوجوده عندما ألمسُها وهي حارّة، فيبدو لي أنّي أشتمّه, وفي لحظةٍ من اللحظات شعرتُ بمدى صغرها وضعفها بين ذراعيّ، وبدت أنَّ جميع تدريباتي العسكرية لها لم تكن ذات فائدة, فلو شَدَدْتُ عليها وعصرتها لحطّمت عظامها بين ذراعيّ، فكّرت كذلك لأنّي مجرم، لم تكن تخافني لأنَّها رأت أنَّها هي مجرمة كذلك, كانت تقول لي إنَّها تشعر بمدى سهولة القتل الآن, وأنا حطّمت وعدي بعدم تدريبي لجنود آخرين، وفعلت أسوأ ما قد أفعل بتدريبي لها بذلك العنف, كنتُ أكرّر أخطائي حتى وأنا مغرم بها.

قبّلتُها خلف أذنها، وكانت تشدّ برأسي كي أفعلَ ذلك, ازدادت قبلاتي لرقبتها وحول أذنها، وضمَمْتُها لي بقوةٍ أكبرَ إلى أن شعرتُ أنَّها تتألم، لكنَّها لم تشتكِ أبداً, كان الألم الجسدي يغنيها عن ألمها النفسي، فكما قالت لي يوماً إنَّها كانت تجرح رسغها لتتنفس فقط, أمّا أنا فاحتجتُ إلى ذلك أيضاً، وعلى قدر ما أردتُ أن أفترسها كأسد، راودتني إرادةٌ كي أطلق النار على نفسي, وبينما هدأتُ قليلاً التفتَتْ ووضعت يدها على وجهي فقبّلتها, كانت تعبثُ في لحيتي وتعبثُ بضعفي وهي تنظر إليَّ بثبات.

قالت: لِمَ تشعرُ بالضعف وبالحاجة لخنقي في آن واحد

– ما نزال نرتدي ملابسنا لكنّي أشعر أنّنا مجرّدين من أجسادنا, ولو التقت لأصبحنا أسوأ مجرمين معاً

قبّلتني على شفتي وكانَتْ أشدَّ عذوبةً، قالت: "سنموت.. فليكن"

كانت تلك المرة الأولى التي نصبح فيها زوجين بشكلٍ رسميّ, لم يمضِ طويلاً وأنا ألاحظ أنَّها كانت تخسر عقلها وتغضب لأتفه الأسباب, كانت تدفعني عنها وتلكمني بجنونٍ على صدري، فكنت أحتوي هيجانها بتثبيتها بين ذراعيَّ، فتسقط وتستلم، ثم أحملها وأساعدها على النوم, وبعد حوالي أسبوعين تبعنا الجنودُ الذين رَأَوْنا أمام إدريس، كانوا في المساء يراقبون المنزل كما كنتُ أفعل لأناس آخرين في الماضي, وكنتُ بدوري أراقبهم، أدركتُ أنَّه يجب عليها أن تغادر بأسرع وقت، لذلك بعثتُ إلى ليلاف لتأتيَ وتأخذها.

فوجِئت جودى بتحدّثي عن ليلاف وغضبت قائلة إنَّ زواجي منها كان مؤامرة, أقسمتُ لها إنّي لم أعلم بالأمر، وعندما جاءت ليلاف شرحَتْ لها الأمر, لكنّي حقدت على ليلاف، فقالت: "ظَنَنْتُ أنَّها مجردُ شقيقةٍ لمتمرد، لم يخطر لي قطّ أنها ستكون لك".

– إذن ستأخذينها لتختبئ معك

كانت ليلاف وعائلتها سيختبئون عن طريق معارف لهم في السياسة, كانوا ذاهبين إلى قرية في تركيا تدعى (كارتبة), وهي تقع على جبل عالي يبلغ ارتفاعه حوالي 1650 متر، ويعني اسم (كارتبة) في اللغة التركية قمة الثلج، وقد سميّت كذلك بسبب برودتها الشديدة.

أخذ الإقطاعيون مزرعة جودى، أما هي فلم تسأل عنها قطّ، ولم تهتمّ لقيمتها وإن حصلت عليها, كانت تخاف أن أفارقها، وكنت أخاف ذلك أيضاً, لكنّي لم أستطع أن أضع الماضي وشأنه بعد أن تذكّرت فعلتي بسبب أمرِ ذلك اللواء, فقد أمرني بقتل أولئك البريئين؛ لأنَّهم لم يقبلوا بالعمل وخبّؤوا عائلاتهم في مزرعة مهجورة ليزرعوا، وكيلا يموتوا جوعاً, كثيراً ما كنتُ أنظر إلى يديَّ وأعلم أنّي رجل فظيع, ليس بسبب فعلتي تلك فحسب، بل أنا قاتل متوحش من قبل ذلك أيضاً، وامتنعتُ عن فعل الخير لأحد, لكن من أسوأ ما فعلت هو تدريبي لجودى بعد أن أقسمتُ على عدم إنتاج المزيد من المجرمين, وأنا أتذكّر رؤيتي لشرارة سعادة القتل في عينيها، وأعلم أنَّها قادرة على ذلك حتى إن لم يكن دفاعاً عن النفس.

خطّطت لجريمتي الأخيرة، وهي لتحرير نفسي وانتقاماً لأولئك المساكين الذين قمتُ بقتلهم, سمعتُ أنَّ اللواء سيأتي قريباً، لذلك قرّرتُ تسليم نفسي للحرب دون أن أقاتل, أردتُ أن أبحثَ عنه فقط، وأضعَ رصاصةً في رأسه، رجل كهذا لا يستحقّ العيش بعد أن كسب ثروته عن

طريق غيره، لذلك حان الوقت كي أعود نقياً مرةً أخيرة, وأخبرتُ ليلاف ألّا تُخبر جودى بالأمر، وإلّا اشتدّ خوفها, وبعد تلك الفترات الأولى عادت إلى رشدها وأصبحت متماسكة, قمتُ بتعليمها (شيفرة مورس) احتياطاً فقط إذا رغبنا بمراسلة بعضنا, بعد ذلك خَلَعَتِ العِقْدَ عن رقبتها وأعطتني إياه.

– لا أؤمن أنَّ غرضاً ما قد يجلب حظّاً، لكن لا أمتلك شيئاً لأعطيك إياه كي يمدّك بالقوة ويذكّرك أنَّك لن تستلم بسهولة للحياة.

نظرتُ إليها بريبةٍ

فقالت وهي تبتسم في شحوبها: أتظنُّ أنّي لا أعلم عن مكان ذهابك؟ لا تدرّب جندياً وتستهين به.

وضعتُ راحتي يدي على وجهها ثم قبّلتها

قلتُ لها: تراجعي قليلاً

تركتها قليلاً، ثم عُدتُ إليها بشيءٍ لم تفهمه في البداية, وضعتُ آلة التصوير على الطاولة، ثم وقفتُ بجانبها وطوّقت خصرها, أخرجتِ الآلةُ صوتاً خفيفاً فتراجعت جودى وهي تبتسم.

قالت: ما هذا؟

– إنّها آلة تصوير

ضحكت وهي تشبك يديها خلف ظهرها

– إذن لقد لقي بحث ابن الهيثم عن الضوء والبصريات ثماره, عندما تمّ سجنه وراقب دخول الضوء من خلال ثقبٍ في جدار السجن، وسقوطه على الجدار المقابل حاملاً معه صورة غير حادة الملامح، ومقلوبة لشجرة موجودة خارج الزنزانة.

قلت: ثم أكمل ذلك البحث روبرت بويل

التقطتُ عدة صورٍ لها وهي تضحك بخجلٍ وتلقي معلوماتها في الهواء, لم أقوَ على تركها، لكنّي شعرتُ أنّي سَأُعاقب بأعمالي عاجلاً أم آجلاً, وقد أُجَنّ لو حصل لها شيء، وبذلك علمتُ أنّي سأبقى مراقباً، وقد تُستخدم هي كوسيلة تهديد لي.

(42)

انطلق صوت البوق ومعه ارتفع رأس حمزة وهو يرتدي بذلته العسكرية، وشعر أنَّه على استعداد تام للمواجهة، اختلفت الأمور بالنسبة إليه، فقد توقّف عن الهرب من بلده، ووضع يده بيد الفرنسيين كارهاً ومدافعاً عن أبناء بلده ضد دول المركز, ومع كلّ تدريبٍ مرهقٍ من ركض وزحف وقفز، وحمل مختلف أنواع الأسلحة، كان يتجدّد مع كلّ درجة من ارتقاء جسمه للقوة, وغدا أكثر هدوءاً، وكان نادراً ما يتكلّم مع زملائه.

حَلَّ منتصف الليل وهو ما يزال مستيقظاً ويستمع لجنديين جزائريين يتحدثان, قال أحدهم: "أسمعتَ عن مأساة الجزائريين والتونسيين؟

– أخفِضْ صوتك!

– اسكت.. الفرنسيون لا يفهمون العربية

– وما أدراك بذلك؟

– حسناً.. حسناً

تمدّد على جنبه ليخاطب رفيقه وجهاً لوجه، ورفع رأسه فوق يده وقال هامساً: "لقد كانوا عبرة لمن يحاول الهروب، أو لمن رفض القتال، وقد كتبوا على أولئك كلمة خائن وقاموا بتعليقها على صدورهم, حدث ذلك في منطقة زيلبك zillebeke في بلجيكا, أردوهم بالرصاص ليكونوا عبرةً لكلّ رافض.

كان ردّ الآخر كصبي في العاشرة: "يا الهي! أيقتلون من جيشهم؟"

– يا لك من جبان.. انظر حولك إلى ما يحصل, أتظنُّ أنَّ المشرق يودّ أيضاً أن يقاتلنا؟ هناك من رفض قتال المشرقيين أيضاً وأعدموهم كذلك, وهناك أعدم العثمانيون العربَ لرفضهم التقدّم للحرب أيضاً.

– بل لإرادة استقلالهم

– أليس الاستقلال ما يحدّد مصير المرء.

سمع المراقب على المعسكر همسهما، لكنَّه لم يفهم شيئاً, ثم جاء يصرخُ بهم كي يعودوا إلى النوم؛ لأنَّ لديهم تدريبات مكثفة في الصباح, لكنَّ الأمرَ خرج عن المتوقع، فقد أيقظوهم في الخامسة صباحاً، ورموا إليهم أسلحة للخروج إلى القتال.

قال أحدهم: أيقومون باختبارنا؟

– ألم تسمع المدافع؟!

– مدافع ماذا؟

عندها أُخْبِروا بما حصل, فقد اقتربت في الصباح الباكر سفينتان ألمانيتان، وقد تقدّمتا إلى السواحل، وألقت القذائف لتحذّر الجزائريين بتحالفهم مع الفرنسيين, لكن لم يتوقف الأمر عند تحذيرهم، فعندما غادر حمزة مع الجنود إلى حيث أُطلقت القذائف، وجدوا الكثير من الخسائر البشرية, عندها أصبحت الحربُ حقيقةً رسميّةً, كانوا يعلمون عن اقتراب حرب هائلة، لكنَّهم لم يشعروا بخوفها إلّا عندما بدأت, وعندها أعلنوا أنَّها عالمية.

لم يكن أغلبُ الجنود مُهيئين للحرب، لكنَّهم تقدّموا بكلّ شجاعة، وقضوا وقتاً طويلاً في حفر الخنادق التي امتدّت من بحر الشمال إلى الجبال, وفي تلك الأثناء قُتِلَ الكثيرون بسبب عدم تهيئتهم وتجهيزهم، ومنهم من أنشأ صداقات وصرخوا لموت بعضهم.

كان عام الرابع عشر أسوأ ما رأوه في حياتهم, وأصبحت أيام الجوع التي فرضها الفرنسيون على الجزائريين أيامَ رغدٍ مقارنةً بما عاشوا وخسروا في الحرب, أمّا المشي بين الأعضاء البشرية الملقيّة هنا وهناك، فأصبح شيئاً طبيعياً، ولم يَعُدِ المشهدُ يؤثر في الكثيرين بعد أن أصبح اعتيادياً.

أمّا حمزة فلم يُنشئ صداقاتٍ، لكنّه كان مهيئاً أفضل من غيره، بسبب سفره وخبرته بكل ما تعرّض له في حياته, تذكّر عنترة, وتلك الرحلة الجنونية إلى طرابلس، وبدت أنَّها حصلت منذ مئات الأعوام، كثيراً ما كان يسرح متذكراً أصدقاءه, فبعد أن علم عن موت آزر دخل في كآبة وبؤس، وتمنّى لو رآه للمرة الأخيرة, في إحدى الليالي جلس خارج خندق بينما كان يستمع إلى الجنود وهم جالسون معاً, ثم جاءه جنديّ فرنسيّ يحمل بيده قدراً فيه شوربة, بدا أنه لم يكمل عامه الثامن عشر , ابتسم لحمزة وأعطاه القِدْرَ ثم سأله: "أتتكلّم الفرنسية"

ردّ عليه حمزة بالفرنسي: أجل

جلس الجندي بجانبه وقال: لِمَ تجلسُ في البرد وحدك؟

– ليس لديَّ الكثير لأقوله, شكراً لك على القدر

– لا عليك

صمتا قليلاً وكان الشاب يتفحّصه، ثم يجول بنظره بعيداً، ثم كسر حاجز الصمت

– ألديك زوجة وأولاد

– لا... ماذا عنك؟

ابتسم قائلاً وقد كان هادئاً بطريقة أثارت إعجاب حمزة

– لا فأنا ما أزال في السابعة عشر, لكنّي أمتلك عشيقة.. حسناً إنَّها خطيبتي تُدعى (إلينورا), لقد انهارت بالبكاء بعد أن تَمَّ تجنيدي ولم أحصل منها إلّا على قبلة قبل أن يغادر القطار, آخر ما أذكره هو وجهها الباكي من نافذة القطار، وهو يبتعد إلى الحرب.. أتعلم.. الفرنسيات ليس من السهل الاقتراب منهن، فهن يأملْنَ بالحصول على زوج وعائلة.

– ماذا عن إلينورا؟ أكان سهلاً الوقوع في غرامها؟

"مثل سرعة البرق!" قالها وهو يتلاعبُ بحجرٍ التقطه من الأرض، بدا أنَّ ذلك الحجر يساعده على تذكّر إلينورا, فكان يضغط عليه عندما ينطق اسمها، ثم يرخي أصابعه مجدداً.

أردف: أتعلمُ أنَّه ليس من الجيد أن أتكلّم عن فتاتي مع رجل آخر، لكنّي لستُ رفيقاً لأيّ جندي, فأنت منعزل، وقد تذهب إلى إحدى الجبهات في فرنسا, عِدْني أنَّك ستبحث عنها وتعطيها هذه الساعة إذا حصل لي شيئاً, ستفهم هي المغزى من ذلك.

أخرج من جيبه ساعة دائرية قديمة, تناولها حمزة منه وقال وهو لا يدري أين قد يلقاها، لكنَّه اكتفى بأن يعطيَه وعده.

– لِمَ تستلطفني وأنت جزائري؟

– لم ألقِ اللوم يوماً على حربٍ شعبية, أغلب هؤلاء الجنود وحتى أولئك الذين يحاربون الآن في العالم بأسره، لا يودّون إطلاق النار على بعضهم.

ابتسم لحمزة بتوتر وقال: أنتَ رجلٌ مثقف

– إنَّها الكتب يا رفيقي، وإلّا كنتُ متعصباً

– أتستطيع القراءة بأكثر من لغة؟

– الفرنسية والإنجليزية... ماذا عنك أيها الغلام؟

– لم أقرأ الكثير حقّاً، لكنّي تعلّمت عن السياسة من ميكيافلي

– أتظنُّ أنَّ الغاية تبرّر الوسيلة؟

– لا... ليس دائماً على أيّة حال.. لكنّه كان منطقياً بالنسبة لبلده، فقد شجّع على القتل إن اضطرّ للحفاظ على حُكم بلده، وهذا شيء جيد للدولة من جانب معين

قال حمزة: لم أوافِقْهُ يوماً على ذلك

– وما الدليلُ الذي تملكه؟

– جميع من أطلقوا القرارات على هذه الحرب كلّ واحدٌ منهم ميكيافلي بنفسه

صمت الشاب ثم غرق في أفكاره..

(43)

على لسان إيليا

وقف ميخائيل نعيمة ونظر إلى نفسه في المرآة، وهو يرتدي بذلته العسكرية, لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، وها هو يرتدي لوناً لا يتناسب مع دمه، ويستعدّ لمقاتلة جذوره, يا لذلك الحزن الذي استبدَّ به بعد أن قضى سنوات حياته غائباً عن عائلته في روسيا ثم إلى نيويورك، كان لا يزال يذكر قريته التي تدعى (بسكنتا)، وها هو يعود إلى أصله بصفته محارباً.

في الجبهة الغربية جُنِّدَ المغربيون من قبل الفرنسيين، وكانوا أول مَن استعدّ لخوض الحرب العظمى, أما عربُ المشرق فبدأت حربهم في الرابع عشر من تشرين الثاني عام ألفٍ وتسعِمئةٍ وأربعةَ عشرَ, وهو نفس اليوم الذي نادى فيه مفتي دولة الخلافة للجهاد.

ارتديتُ بذلتي العسكرية وأرسل إليَّ علي باشا برقيةً تُرشدني للعودة، ركبتُ القطار وكانت لديّ طوال الرحلة رغبة بعدم الوصول, خُيِّلَ لي أنّي خسرتُ احترام الجنود ومَهابتهم التي أبدوها تجاهي, فقد أيقنتُ أنَّ الأمور تغيّرت بعدَ كلِّ تلك الأحداث السياسية، وقد تظنّ الغالبية أنّي اختبأتُ عن تلك التدريبات والمواجهات, إلّا أنَّ جميع ظنوني كانت خاطئة، فلحظة خروجي من القطار هلّل لي الجميع، ووقفوا لي بتحية احترام عسكرية، التي بالطبع لم تعنِ شيئاً بالنسبة إليّ.

بعد جلوسي مع الرقيب علمتُ أنَّهم ظنّوا أنّي من تسبّب بإعدام المتمردين, فقد كان آزر يُعتبَرُ من أخطر الرجال الذين زرعوا الأفكار القومية، وراهن بعضهم على موتي قبل انتهاء المهمة، وقال آخرون إنّي وحشٌ قاتل ولا أقتل, لم يكن فخراً على أية حال.

كنتُ مجرد سببٍ في موت أحد, أولئك المتمردون الذين أُعدموا مع آزر وآزر بنفسه كان مراقَباً من خلالي، وبذلك كما يحصل دائماً أنال تهليلاً وترحيباً هائلاً بسبب أفعالي المشينة, وبدا أنّي كلّما حاولتُ أن أفعل شيئاً صحيحاً، ينتهي بأن يكون خاطئاً, وكلما ازداد حقدي على ذاتي كان يزداد أيضاً على ذلك اللواء الذي حلمتُ بتعذيبه, لكنّي قرّرت أن أكتفيَ بوضع رصاصةٍ في رأسه وأنهي الأمر بثانية واحدة، وإلّا أنشأتُ من الحاضر ماضياً جديداً, فكلما تقدّمت في هذه الحياة تزداد عدم رغبتي بالحاضر، كيلا أصنع ماضياً في المستقبل أكرهه.

قضينا عدة أيام في المعسكر قبل أن ننتقل إلى الجبهة الشرقية, كان بيننا عرب ملزمون على الحرب، ولم يمتلكوا خياراً بعد التهديدات والجرائم التي ارتكبها الأتراك لمن دعوهم بالخائنين, وقد جرت الأحداث بسرعة لم نتخيّلها، فقد جُهّزت الخنادق، وسرعان ما وجدنا أنفسنا نحارب المدافع ونختبئ بداخلها, كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها العرب طيّاراً حربيّاً، وبدأنا بردّ المدافع، ونحن نطلق المتفجرات بدورنا, كان دويّ الأسلحة عالياً، وكان الجنود يصرخون لبعضهم إذا أرادوا قول شيء, أمّا أنا فكنتُ على غير عادتي، ولم أقترب من أحدٍ، ولم تكن لي رغبة

بالتوحش، وتلك كانت المرة الأولى في حياتي التي أشعرُ فيها كذلك, كان تفكيري منصباً على اللواء، ولم تعنِ لي الحربُ شيئاً، خصوصاً أنها لم تكن تخصّ العرب والأتراك بشيء.

بعد أن قضينا أكثر من نصف يومٍ ونحن نُحارب، نزلنا إلى أحد الخنادق، فطلبت من كتيبتي أن يتناولوا شيئاً، وإلّا خارت قواهم, كانوا جائعين وسرعان ما بدؤوا بالتهام الخبز, أمّا أنا فذهبت إلى خندقٍ آخر، وعدتُ أحملُ لهم القليل من الجبن، فالتهموه أيضاً.

قال أحدهم: لم أعهدك بذلك اللطف يا سيدي

قال آخر: إنَّها حربٌ عظمى ولا بدّ أن نتكاتف

نسي عربي وجودي وكان يتكلّم سارحاً: "ليست حرباً عظمى، وما نحن إلّا كبشَ فداءٍ، أُفضّل لو أحارب مع الحلفاء وأن ألتقيَ الأمير فيصل".

صمت الجميع وأفواههم الممتلئة توقفت عن المضغ، وهم ينظرون إليّ وإلى الرجل بأعينٍ منفتحة من الصدمة, خافَ العربيّ ونهض ليشرحَ لي الأمر، أردتُ أن أقول له لا بأس، لكن سبقني ملازم خلفي وأطلق على رأسه الرصاص، ثم بعثر الطعام بقدمه، وقال: "اخرجوا للقتال فنحنُ لسنا في إجازة!".

وما أن أرادوا الخروج، أطلقت مدفعية قنابلها بجانب خندقنا، فانهال علينا التراب, دُفِنَ بعضنا وخرج بعضنا الآخر هاربين بين الغبار، وصوت أزيز المدافع يسبق صوت انفجارها أثناء هروبنا, كانت تصعب الرؤية، وأصيب رجلان من كتيبتي, رأيت الأول وقد فقد ساقيه، أما الآخر فلم أتمكّن من رؤيته, ذهبتُ إلى من استطعت الوصول إليه، فنظر إليَّ وهو خائف ثم فارق الحياة, ولم يكن لي خيار إلّا أن أغادرَ وأختبئَ في خندق آخر.

كان يزداد حنقي مع كلِّ خطوة، ولم أجد اللواء في أيّ مكان, وتقابلت مع الجنود في الأسفل، فكانوا يأتون ويغادرون مسرعين، ثم يعودون مجدداً, لم تكن لديَّ رغبة بالخروج للقتال، وصرخت بأحدهم طلباً بمعرفة مكان اللواء، فقيل لي إنَّه غادر إلى إسطنبول.

– ألم يتوجّب عليه أن يكون هنا؟

جاءني الرائد وقال: أتبحثُ عن مربّية أيّها النقيب!! اخرجْ وقاتل مع جنودك.

عندها جاءه أحدُ الجنود ليوصل برقياتٍ وأوامرَ من ضباطٍ أعلى رتبةً, سلّم للرائد مغلفاً ولي مغلف, نظرنا إلى بعضنا باستغراب، ثم فتحنا المغلفات في نفس الوقت، إلّا أنّنا كنّا نبتعد حوالي عشرين قدماً عن بعضنا, كانت رسالتي من علي باشا تحذّرني بأنّني مطلوب للإعدام، وأنَّ الشائعات بأنّي ساعدتُ على الإمساك بالمتمردين كانت مَحْضَ هُراء, والحقيقة أنّي ترجمت وساعدتُ المزيد من المتمردين للهروب إلى الحجاز للقاء مَنْ يُدعى بِـ(توماس إدوارد) الذي يتعاون مع الشريف الحسين بن علي لإنشاء ثورة تمتدّ من الحجاز إلى بلاد الشام, وكتب في آخرها: "سيقومون بتعذيبك إذا لم يجدوا بلالاً، فهم يعتبرونه خطراً دولياً بعد الوثائق المترجمة التي وجدوها في مضجعه, فليكن الله معك يا بُنيّ ولتغادر الحربَ تاركاً كتيبتك".

عندما انتهيتُ من قراءة الرسالة لاحظتُ أنَّ النقيب انتهى كذلك, نظر إليّ بطرف عينه وبدا أنَّ الأمر بإعدامي قد وصله في نفس اللحظة, أراد أن يخرج سلاحه من حزام خصره فسارعت وسبقته وأرديته في رأسه, أراد الجنود أن يفعلوا شيئاً لكن وقعت قذيفة بجانبنا جعلتنا نتراجع ونختنق بالتراب, وعندما امتلأ المكان مجدداً بالغبار، ركضتُ حيث أرديتُ الرائد، وأخذتُ الرسالة وإذ بها مُرسلة من نفس اللواء الذي أرسلني إلى بلاد الشام منذ البداية, كان الأمر برمّته خدعة، فقد قام باستغلالي وكان يُخطّط بالتخلّص مني بعد أن ينتهي الأمر برمّته, خرجت من الخندق فلحقني ضابط ألماني وصوَّب سلاحاً على وجهي, عندها سقطت قذيفة أخرى فأردتني وإياه، فسقطت ووجهي ممتلئ بالدماء, وعندها علمتُ أنّي أفارق الحياة.

(44)

احمرّت وجنتا جودى بسبب حرارة حطب المدفئة، وكان لون حجرتها مثل ضوء النيران المشتعل, فقد ذهبوا إلى كوخٍ منعزلٍ بين الجبال، كان يتألف من ثلاث غرف وغرفة معيشة متصلة بمنضدة مطبخ تفصله في الزاوية, بناه علي باشا احتياطاً إذا تعرّض لأي تهديد.

وعدت ليلاف جودى أن تعطيَها مساحتها الخاصة، وأَصبحت تعاملها بشكلٍ أفضلَ بعد أن أحبّتها روسلين وأبعدتها عن ليلاف, لم تفهم جودى كُرهَ ليلاف لروسلين، فهي والدتها ولا يعقل أنَّها لا تطيق الجلوس بجانبها, ومع الوقت أصبحت أيضاً تستلطف جودى فقامت بتعليمها بعقد شعرها بطرق راقية، وأعطتها فساتين تليق بمقامهم, وقد تقبّلت جودى تلك البادرةَ برحابة صدر، فهي كانت تفكّر في عودتي فقط.

كانت تستيقظ فتقرأ لروسلين وتعلّمها كلَّ ما لقّنته إياها, فعلّمتها الحساب والقليل من الإنجليزية والقراءة والكتابة بالعربية، والمعرفة بحركة الكون والمجرات وتحليق الطيور, ولم تنسَ بالطبع إخبارها عن مواهبها لتريها أنَّها تستطيع فعل ما يبدو مستحيلاً, وشرحت لها عن الأكسجين.

كانتا تركضان بين الجبال، ثم تجلسان قليلاً، فتروي لها جودى ما تحفظه من الشعر, وفي بعض الأحيان كانت روسلين تخاف من ارتجاج الأرض بفعل القنابل البعيدة, وفي الليل كانت تركض إلى غرفة جودى وتقفز إلى سريرها فتنام الاثنتانِ على رائحة البارود الممزوجة برائحة الأمطار, كان ذلك يعطيهما شعوراً كئيباً بأنَّ نهاية العالم اقتربت, كثيراً ما تساءلت جودى عن سبب عدم هروبها إلى والدتها، فقد كانت روسلين تحضن جودى وتغرق وجهها على كتفها ورقبتها، وكانت جودى تضع يدها على رأسها لتُطمئنها وتسمح لها بالنوم بين ذراعيها, وقد خفّف تعلّقُ روسلين بها حزنها على غياب زوجها, كانت تلقي إلى روسلين الشعر, ومن ضمن القصائد التي كانت تكررها لها:

دعي قطراتِ السهادِ لتغرقَ ليلَ جنودٍ على المحكّ

وسيري إلى حيثُ صوتُ الوغى هو صوتُ جمال الضحك

خذي من رجاج السهول حلا رقص طيرٍ تفادى وصول حجر

وكوني كمن عاش حلماً فطار إلى المُزنِ وانصبَّ مع المطر

ستلتفّ أغصانُ الورد حول ذراعيكِ مثل ظهور الزهر

ويأتي ربيع الحياة ليلثمَ فاهكِ الحلو والمزدهر

اعتادت روسلين أن تغفو بين ذراعيها, وكانت تقول: "أحبك كثيراً يا جودى، أرجوكِ لا تغادري بعد الحرب.

بدت راحةٌ غريبةٌ على ليلاف، كأنَّها تخلّصت من روسلين بدلاً من أن تغار أنَّ ابنتها تميل إلى غيرها, فهي لم تشعر بالأمومة، ولو ضاعت روسلين لما قلقت عليها كثيراً, وفي إحدى الأيام دعت جودى إلى غرفتها لتريها صندوقاً أخرجته من أسفل سريرها, وعندما فتحته كان فيه ثلاثة أسلحة والكثير من الرصاصات.

قالت ليلاف: أيُمكنك تعليمي ما تعلّمته من إيليا؟

– كيف تعلمين بذلك؟

– أتظنّين أنّي لا أعلمُ أنَّكِ أطلقتِ النار على إدريس؟ وأنَّ قِوامك مثل لوحة فنية منحوتة كتدريبات الجنود, ولا أظنُّ أنَّ إيليا وقع في غرامك بغير سبب، أعترفُ بأنّكِ فتاةٌ مميزةٌ

– ومن أين حصلتِ على هذه الأسلحة؟

– تركها علي باشا لنفسه احتياطاً، لكنّي أخاف أن نتعرّض لتهديد من الجنود، ويجب أن أحميَ والدتي.

– وماذا عن روسلين؟ ألا تهتمّين بابنتك؟

توقّفت قليلاً ثم نظرت إلى جودى بخيبة أملٍ وقالت: "كانَتْ لديَّ شقيقةٌ لم تكمل عامها الخامس عشر, وقد فعلت فعلاً مشيناً في يوم من الأيام، فتسلّلَتْ إلى المنزل، ووصلت إلى غرفتي وترجّتني أن أُخبِّئها عن والديّ, فاعتنيتُ بها طوال تسعة أشهر، دون أن يعلم أحد بذلك,

كانت تنامُ خائفةً وهي تسمع تهديدات والدي قائلاً إنَّه سيتخلّص منها إذا عادت إلى المنزل، فقد ظنّوا أنَّها هربت مع أحد الشبان, في نفس الوقت كنت في التاسعة عشرة من العمر، ومتزوجة من رجل جُنِّدَ في حرب البلقان، وقضى نحبه بعد عام من زواجنا, عَلِمَتْ والدتي بالأمر عندما وصلت شقيقتي في الشهر الثامن من الحمل، ولم تستطع أن تغضبَ منها بعد أن رأت مظهرها, فقد نحلت بطريقة مخيفة، وكانت شاحبة وتلهث أغلب الوقت, حاولنا إطعامها لكنَّ جسدها كان يُلقي بالطعام خارج فمها، كانت تبكي لي وهي خائفة، وتقول إنَّها لا تريد الموت، وكان قلبي يتحطّم وأخاف بدوري على خسارتها، فقد كُنّا مقرّبتين، وأحبَبْتها أكثرَ من أيِّ شيءٍ في العالم.

صَمَدَتْ إلى أن انتهى الشهر الثامن، ثم تحطّمت قدمها بعد أن أصابتها هشاشة عظام من قلة الطعام, فصرخت عندما كُسِرَتْ قدمها وجاءها المخاض في نفس اللحظة, سقطت وهي تصرخ وبدأت تنزف بشدة، فجاء والدي على صراخها وأرعبه مظهرها وحطّم قلبه, لم يتمكّن من النطق أو التفكير، لم يتخيّل أنّها ستعود وتتضرّع إليه بالمغفرة, لم يحتمل ما رآه فأصيب بجلطة قلبية وسقط بدوره وفارق الحياة, كانت والدتي تبكي بجانبه وأنا أبك بجانب شقيقتي وهي تلد ابنتها وتغرق في بحر دمائها، وعندها أخذتُ الفتاة وأسميتها روسلين، ولم يعلم أحد بتلك الحقيقة".

– كيف لم يلاحظ الناس أنَّكِ لم تكوني حاملاً؟

– بعد أن ظنَّ الجميع أنَّها هربت، اعتزلنا الناس ونادراً ما خرجنا, والناس تصدّق أيَّ شيءٍ يبدو منطقياً، على أية حال كانوا يطبطبون على كتفي حزينين لعدم تمكّن زوجي من رؤية ابنتنا، من حسن حظّي أنَّه غادر قبل تلك الحادثة ببضعة أشهر.

صمتنا قليلاً ونظرتُ خارج النافذة وأنا أنظر إلى روسلين وهي تلعب بالطين

– ليسَ لكِ أن تحتقريها

– أعلم ذلك، لكنّي كلما نظرتُ إليها تذكّرت اليوم المشؤوم الذي خسرتُ فيه والدي وشقيقتي.

في الليل أمسكت روسلين بإصبع جودى وقالت: "عديني أنّكِ لن تتركيني أبداً"، لم تتمكّن جودى من وعدها فاكتفت بحضنها وأمرتها أن تحاول النوم.

(45)

ما فعله الكيميائي (فريتزهابر) إنجازٌ علميّ بحت وجريمةٌ تجاه البشرية, ذلك الألماني الذي صنع أول آلة حرب كيميائية في التاريخ؛ لتشوّهَ مناطق الحلفاء وتقضيَ عليهم, وذلك ما دُعي بالغاز السامّ.

قَبِلَ حمزة حقيقة أنَّ ألبرت لن يدعه وشأنه, فذلك الشاب لا يندمج مع الجنود، وكان هدوء حمزة وانعزاله يعطيه راحة في البقاء بقربه, وشعر بدوره بالمسؤولية تجاه ألبرت، فأصبحا يتقدمان ويختبئان معاً, لكنَّ الأوضاع تحوّلت إلى الأسوأ، فغمرت الأمطار المنهمرة الخنادق، وكان المشي صعباً بارتفاع منسوب المياه فيها، ووصل ارتفاعها إلى الركب، فعانى الجنود من الآلام بسبب البرد والبلل المستمرّ, أما الخنادق التي تشرّب ترابها المياه، فقد امتلأت بالوحل، وغرقت أقدامهم فيها.

جلس الجنود بجانب أطراف الخناق، وكانوا يرتجفون وهم يتعرّضون لقطرات متناثرة من الأمطار, ولم تكن الأمطار المشكلة الكبيرة في تلك الأثناء، فقد عصفت الرياح فوق الأرض وصولاً إلى وجوههم، ممّا جعلهم يشعرون بأنَّهم يتعرّضون لصفعات جليدية, فوضعوا فوق رؤوسهم المعاطف وجلسوا يرتجفون.

رأى حمزة أنَّ ألبرت أشدُّ تأثيراً للبرد, فكان وجهه قاتم اللون، وبدا أنَّه يشعر بالدوار, قال لإلهائه: "هل فكرتَ أين تودّ العيش بعد أن تعود من الحرب؟"

قال ألبرت: أرغبُ في شراء مزرعة, وربما أمتلك إحدى العربات التي تعمل على الوقود.

قال أحد الجنود المستمعين وبدا في العقد الخامس من العمر: حياة كهذه تتطلب نقوداً, هل تمتلك حرفةً أيها الصبيّ؟

فتح فمه ليجيب لكن قاطعه جندي مكتئب: مَنْ يهتمّ بالمال وهو على وشك أن يحفر قبره!

قال الرجل وهو ينظر إلى ألبرت: لا تستمتع إلى ذلك الكئيب!

قال الكئيب: لِم تعطيه آمالاً بالية؟ أقسم إنَّ الفقر وحرفتي في النجارة التي كنت أتذمر منها تبدو لي جنة الآن.. استمعْ أيها الشاب, ما اسمك هاربر.

– بل ألبرت

– ألبرت.. حسناً يا ألبرت إذا أردت الخروج حيّاً إيّاك أن تفكّر في الفتاة, سمعتك تقول أنَّ اسمها إلينورا؟.. إلينورا إيّاك والتفكير فيها

– لكنَّها في انتظاري

– هل تدعو أن تعودَ إليها سليماً

– لقد دَعَتْ لي بالعودة قبل أن أغادرَ أصلاً

– يا لها من فتاة!

قال ألبرت: "ماذا عنك يا حمزة؟"

– سأعود إلى منزل والديّ وأرى أحوالهم

قال الرجل: لقد توفي والدي وأنا لم أكمل سن العاشرة بعد, أودُّ أن أقولَ إنّي سعيدٌ بعدم شهودهم لهذه الحرب المقيتة، وسعيدٌ أيضاً لأنّه ليس لي أحد لأقلقَ من أجله، فأنا عاقر! كم حزنت عندما عَلِمْتُ بذلك، لكنّي الآن مرتاح لأنَّه ليس لي فتيات يبكين على أزواجهن، ولا فتيان أخاف من تجنديهم ليموتوا ويُعدموا.

قال الكئيب: أتقولُ إنّي كئيب وأنتَ منتعشٌ بعقرك؟ يا لك من مسكين!

بدأا بالتجادل إلى أن أسكتهما رفاقهما, لكنهم قضوا عدة أشهر في تلك الجبهات خاسرين بعضهم بسبب البرد والأمراض، وكانوا يلقون حتفهم وأوجههم في الوحل فيدفنون في مكانهم، ممّا سبّب صعوبةً لأولئك الذين يناضلون أن ينهضوا بقوة لينجوا في حياتهم.

كان ألبرت يتحدّث عن حياته لحمزة، ولا يصمت أبداً، وكان يسأله عن ظنّه إذا كان سيعود إلى إلينورا وهو على قيد الحياة, فكان حمزة يُخبره أن يركّز وينتبه جيداً, وكان ما يزال

منعزلاً لا يتحدّث إلى الجنود، ويكاد لا يُخاطب أحداً, وبعد فترة من الزمان نُقلوا إلى منطقة فدان، وهي إحدى مدن فرنسا، وتقع على الجانب الشمالي على نهر ميوز على بعد نحو 80 كم من الحدود الألمانية, وعندها استخدم الألمانُ الغازَ السامَّ فتشوّهت أجسادهم، وكثيرون لقوا حتفهم, لكن من حسن الحظ أنَّ حمزة وألبرت كانوا بعيدين عن ضربات الغاز المباشرة، إلّا أنَّ عيونهم تأثّرت فامتلأت بدموع حارقة، وأصبحت حمراء تصعب الرؤية بها, وبعد أيام فقد ألبرت بصره تماماً، وكان يرجو حمزة أن يجدَ إلينورا، وكان يصفُ له القرية.

بعدها مرض ألبرت وكان يرتجف وملابسه مبتلّة، وأصبح حذائه متهرئاً, فأخذ حمزة حذاءً من إحدى الجثث وحمله على كتفه وخبّأه في أحد الخنادق, ووضع فوقه معطفاً رطباً وألبسةً، وحذاءً جافّاً، فوجد أقدامه منتفخة، ونظر إلى وجهه فوجد عيونه منتفخة، وحولها حُمرة، ولم يتمكن من فتح عيونه وهو يرتجف ويهذي, بقي بجانبه طوال الليل، وفي الصباح استيقظ حمزة فوجد ألبرت ميتاً, بحث في ملابسه عن ساعة إلينورا ورسالتها، لكن سقطت قذيفة على الخندق فدُفِنَ ألبرت مع الساعة والرسالة, خرج حمزة بشقّ الأنفس وعندها تعرض لرصاصة في كتفه, سقط على الأرض وعلم أنَّ قذيفةً ستسقط فوق رأسه, أغمض عينيه واستسلم للسواد.

(46)

مضت أشهرٌ على اختفاء إيليا، ولم نسمع خبراً عنه, كان علي باشا قد أرسل إلى ليلاف رسالة قال فيها إنَّه طُلِبَ للإعدام, خبّأتها عنّي ولم أعلم عن وجودها لأكثر من شهر، بعدها أرسل علي باشا رسالة لم تفتحها ليلاف بعد، وتُرِكَتْ على المنضدة, فما كان منّي إلا أن فتحتها وقرأت فيها خبر موت إيليا بسبب قذيفة أحرقت نصفه وشوّهت مظهره, دخلت ليلاف ووجدتني أُقف في صدمة، فأخذَتْ الرسالةَ وقرأتها بدورها، عندها غادرت إلى غرفتي وأغلقت الباب ورائي.

بقيتُ في هذه الحالة مدة ثلاثة أيام، قضيتُها في البكاء فقط, أيسهل على المرء أن يبتلع الحزن أم يبصقه إلى العلن؟ توقّفت عن الطعام، وبدأت أدخل في حالةٍ من المرض, كانت روسلين تأتي وتحتضنني وهي صامتة مثلي وتشعر بحزني, فأصبحَتْ ليلاف تُبعدها عنّي كيلا تثير إزعاجي، فتولَّتْ تدريسها وأصبحت تتقبلها بشكلٍ أفضلَ.

بعد أسبوع من تلك الصدمة، أخذتني إلى كنيسة قريبة لأنّها كانت تخاف أن تبتعد أكثر من ذلك, كنت أضع حول رأسي وشاحاً أسود غير معقود، وكأنّني أختبئ تحته, وكانت ليلاف تُخبرني أنَّ أيَّ دارٍ للعبادة، تُعتبَرُ داراً للسلام, كنت أقضي ساعات بين الأدراج فقط لأكون وحدي وأشعل الشمع الذي وضع تحت تمثال السيدة العذراء, أيسمعني الله وأنا أخطو في مكان ليس بمكاني؟ أيقبل المسيحيون وجودي بدل أن أنهي حياتي؟

كنتُ أرتدي ملابس الفروسية؛ كي أرتديَ بنطالاً وأتخلّصَ من الأثواب، وأذهب وحدي بين الجداول والأشجار، وأتذكّر بداياتنا معاً, كنتُ ما أزال أشعر بلحيته على رقبتي وبشفاهه عندما كان يقبّلني، لدرجة أنّي كنتُ أضعُ أصابعي على شفاهي ويُخيّلُ لي أنَّه هو مَنْ يقترب مني، فتراودني رعشة غريبة وناقصة. أمّا الكوابيس فلم أسلمْ منها، فوصلتُ لمرحلة أنّي سقطتُ على أقدامي أمام مريم العذراء باكية, كانت ليلاف تلحقني وتراقبني كيلا أفقد صوابي, أصبحتُ أجتنبها وآخذ أحد خيولهم فامتطيها، وأجعلها تركض أعلى الجبال إلى أن أصل إلى قمة عالية، فأنزل عن الحصان وأراقبُ خيطَ الدخان البعيد جداً، الذي يرافقه صوتُ مدفعياتٍ بعيدةٍ.

بعد عدة أسابيع ألهيتُ فيها نفسي بالبقاء مع روسلين، وأصبحتُ أتكلّم عن تعليمها فقط, وأصبحَتْ هي بخير بعد أن اعتنت بها ليلاف، ورأيتُ القليل من الحبِّ في عيونها تجاه تلك الصغيرة, عندها قرّرت الابتعاد وفعل ما أراده إيليا، بعدما انتهت حياتي؛ لأنّه لم يتبقَّ لي شيء أعيش من أجله, وهنا قرّرت إيجاد اللواء والقضاء عليه.

قضى إيليا عدة أيام فارّاً على قدميه إلى أن وصل بين الأشجار, لم يدرِ عن مكانه وقد أضاع طريقه، وبشكل ما تشوّهت ذاكرته, فقد قضى عدة أيام دون طعام ونوم، حتى التمس بلسانه الندى عن أوراق الأشجار ليخفّف من شدّة عطشه, ومن شدة جوعه شعر بدوار شديد في رأسه، كان يمشي متمايلاً ثم يسقط وينهض مجدداً, أما رؤيته فكانت رمادية، وقد خانته إلى أن سقط في حفرة من الوحل، حاول أن يخرج منها لكنَّ الوحل كان ثقيلاً ويجذبه إلى أسفل, حاول أن يطفوَ فوقه لكنَّ محاولاته باءت بالفشل, غرق رأسه داخل الوحل فدفع بنفسه بشهقة كادت أن تودي بحياته, والأنكى من ذلك أنَّ حرارة جسمه انخفضت وأصبح يرتجف من البرد, ثم في لحظةٍ ما استجمع قوته ودفع بنفسه خارج الوحل، ثم ارتمى بجانبه.

كانت أسنانه تصطكّ، ورؤيته شبه منعدمة بسبب الوحل, كانت تدور في رأسه حربٌ، وحياته بأكملها جالت أمام عينيه، فظهرت أمامه خيالات جنود يصرخون ويتراكضون, صدّق ذلك الوهم وظنَّ في أيِّ لحظةٍ ستأتي في رأسه رصاصة أو قذيفة وينتهي الأمر, ثم رآني قادمة مبتسمة وصدى صوتي يرتدّ على مسامعه دون أن يفهم كلمةً ممّا أقول, رآني أضع راحة يدي على وجهه، فهَمْهَمَ وغفا على تلك المخيلة.

استيقظ في منتصف اليوم التالي على مظهر السماء المغطّاة بالغيوم فوق بعضها، وحلقة من أعالي الأشجار, نهض من مكانه متضايقاً بسبب جفاف الوحل عن ملابسه، وقد تسبب التراب له بالحكّة، فاضطر إلى أن يخلع ملابسه الخارجية, نفض سرواله وارتداه مجدداً وبقي مرتدياً قميصه الداخليّ الأبيض، الذي كان مُلطخاً بدمائه وأسود بما مَرّ به, لكنَّ ذلك القميص الرقيق كان شبه شفاف، ولم يَقِه من البرد، لكنَّه ارتاح قليلاً في البداية, أمّا لحيته فوصلت إلى رقبته، ممّا جعله يبدو كرجل الكهف البدائيّ.

بعد أن استعاد وعيه وصوابه, بدأ مجدداً بالبحث عن شيء ليأكله, وخلال تلك الأثناء سد جوعه بالزواحف القليلة التي وجدها مثل السحالي، وفي النهاية وجد ضفدعاً فالتهمه كذلك, لكنَّ كلَّ تلك الأشياء أثارت اشمئزازه وتسبّبت له بتوعّك, وخاف أن يكون قد تسمّم أو تعرّض لمرضٍ ما بسبب ما أكله, وبذلك أسرع مجدداً ليبحث عن شيء مناسب يأكله.

بعد عشرات الدقائق من البحث، سمع صوت كلب يئنّ, ذهب إلى الصوت وإذ به يجد كلباً عالقاً بين الأغصان, وعندما رآه الكلب كشّر عن أنيابه وأخرج صوتاً مهدّداً, نظر إليه إيليا وهو يفكّر أنَّ ذلك الحيوان سوف يُشبعه لعدة أيام ريثما يتذكّر طريقه مجدداً, فحمل عصا من جانبه وأصبح الكلب يزفر ويهدر مهدّداً في آنٍ واحد, لكن شاء القدر أن يكون خلاصه من الأغصان المتشابكة بتقدّم إيليا, فقد أزاح بقدمه من غير عمد غصناً ساعد على تحرير الكلب, وعندما تحرّر لم يكن يظنُّ أنَّ ما فعله الإنسان الذي أمامه كان محض صدفة.. لا.. إنَّ إخلاصه جعله يشعر بالثناء، وبذلك بدأ بلعق الجروح عن يد إيليا، فلم يستطع إيليا أن يقتله, أمسكه من وجهه ونظر إلى عينيه قائلاً: "يا لك من ماكر!! لقد نلتَ شفقتي"، غادر الكلب المكان بينما كان إيليا يراقبه.

بدا أنَّ الحل الوحيد أن يقوم بتجميع زواحف، وأن يحاول إشعال نارٍ بالاحتكاك ليقومَ بشيّها, قضى عدة ساعات إلى أن بلغ الوقت بعد العصر, فتّش في جيبه ووجد أنَّ ما اصطاده مجرد ثلاث سحالٍ, لن تكفيَه للانتظار والراحة، بل عنى ذلك أنَّ عليه المغادرة في أسرع وقت, عندها جاءت أمامه نعجة ظهرت من العدم! أعطاه ذلك فكرة أنَّ مزارع توجد قريبةً من هذا المكان، وهذه هاربة من القطيع, لكن على أيّ حال يجب اصطيادها, وبذلك حمل في يده حجر بحجم يده وصوّب عليها كما كان يصوّب سلاحه في الحرب, ومثل فوزه على الجنود, فاز بتلك النعجة، فسقطت غارقةً في دماء رأسها.

بدأ يُشعل ناراً بينما وضع النعجة ملقيّة بجانبه, استمرّ في محاولة الاحتكاك إلى أن جاءت ذيول ظلام الليل, في النهاية نجح في إشعال بضع عيدان واستمرّ بإضافة المزيد، وعندما ارتفعت النيران وضع غصناً كبيراً وجافاً كي تدفئه حتى الصباح, وضع النعجة بصوفها وقام بشيّها, لكنه لم يحتمل شهوة الرائحة مع جوعه، فانزلها عن النار وبدأ بأكلها وتقطيعها بأسنانه واضعاً إياها في حضنه.

تمتّع بأكلها وأعطته راحة نفسية, لكن أثناء تناوله للطعام سمع صوتاً يأتي من خلفه، فحمل عصاه ومضى بهدوء في الظلام, هدأ المكان مجدداً لكنّه شعر بشخص ما يتنفس ويحاول عدم التحرك, قال بهدوء: "اخرج وستكون الأمور بخير, أمّا لو أمسكتك بنفسي فسأُهشِّم رأسك".

خرج شخص من الظلام فأمسكه إيليا من معصمه ودفعه بقوة ليراه على ضوء النار, فظهرت له فتاة بدت خائفة وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة.

قال لها إيليا: هل أنتِ وحدك؟

– أجل, أنا فتاة أرمينية وقد هربت بعدما تمّ اغتيال الأرمن

كان إيليا يتكلّم معها وهو يشير بعصاه أمامها بدل يده

– هل تَبِعْتني؟

– أجل, إنَّ النعجة التي تأكلها كانت ملكي وقد سرقتها من إحدى المزارع، فهربت منّي إليك

صمت إيليا قليلاً وأنزل عصاه.

– أأنت جائعة؟

– أجل... أرجوك

أعطى الفتاة النعجة بأكملها كي تقضم منها, نظرت إليه بغرابة، فقال: "لم أحتمل جوعي ولم يخطر لي كيفية تقطيعها".

أكلت الفتاة ولم تكن أقلَّ توحشاً منه, فلاحظ إيليا أنَّها لم تأكل من عدة أيام كذلك، وكان يراقبها كأنّه أفعى تنتظر أيَّ حركة خاطئة من فريستها, لاحظت نظرته بعد أن شبعت وهدأت.

سألته: هل ستقتلني؟

– لا

– وهل ستغتصبني؟

ضحك إيليا بسخرية دون أن يصدر صوتاً, وقد أخافها ذلك أكثر.

قال لها: لا

– إذن لماذا تطعمني؟

– بدوتِ جائعةً وتبدين صغيرة في العمر

– أنا في الثامنة عشرة, وأنت؟

هدر إيليا كما اعتاد أن يفعل دائماً

– في أواخر عقدي الثالث

– إنّك تستمرّ في فعل ذلك

– فعل ماذا؟

– تهدر مثل الحيوانات المفترسة

لم يجب إيليا، لكنّه قال إنَّه يجب عليه أن ينال قسطاً من الراحة, فردَّ نفسه لينام بجانب الحرارة، وفعلت الفتاة كذلك من الجهة الأخرى بينما كانت تراقبه, كانت تنظر إلى قسمات وجهه وهو نائم، وهابت مظهره القوي, لكنّها استسلمت للنعاس وغَفَتْ كذلك, لكن لم يدم نومهما كثيراً, فعند الفجر شعر إيليا بشخصٍ يقف فوقه، واستيقظ على صوت زنار بنطال شخص ما, فتح عينيه فوجد رجلاً نَتِناً يريد أن يتبول عليه, وقد أثار استيقاظه أيضاً صراخ الفتاة، بينما حاول رجلٌ معه الاعتداء عليها, حمل إيليا عصاه من جانبه، ونهض فجأة ليضرب بها الرجل، لكنَّ النتن أزاح مسرعاً ممّا جعل الضربة تأتي في صخرة, وقد سبّب ارتدادها ألماً مبرحاً في كتفه، فلم يستطع ضرب النتن أو الدفاع عن الفتاة, ضحك الرجلان وجلس النتن فوقه كي يعطيَه عدة لكمات, لم يكن إيليا يقوى على ضربه أو مقاومته، لكن مقاومة الفتاة وبكاءها لم تعطِه إلّا حلاً واحداً، جعله ينهض من مكانه, ويقوم بقضم رقبة عدوه كما فعل في الماضي, سقط الرجل وهو يضع راحة يده على رقبته النازفة، وحاول أن يلتقط آخر أنفاسه.

أمّا الثاني فنهض من فوق الفتاة بهلع، فأمسكه إيليا ولم يقوَ على ضربه بسبب ألمه من ضربة العصا المرتدة, لاحظ الرجل ضعف إيليا ووجّه خنجره في وجهه، فنهش إيليا يده ومن ثم رقبته مستخدماً أسنانه, ومن شدة غضبه استمرّ في نهشه وعضّه حتى بعد موته، ممّا جعل الفتاة تهلع وتسقط على الأرض من الخوف بعدما نهضت, التفت إليها وكان وجهه مغموراً بدماء الرجلين، وصولاً إلى قميصه الذي تحوّل لونه إلى الأحمر , اقترب منها بهدوء وخطر له أن يتمدّد فوقها، فبكى بين ذراعيها وهمس لها باسمي ثم قبّل شفاهها, أمّا الفتاة فتحوّل شعورها من الخوف إلى الشفقة بعد أن لاحظت أنّه فاقدٌ لنفسه وعقله, لكن سرعان ما استعاد صوابه ونهض عنها وتذكّر مكانه, قال لها بصوته الهامس بينما كان يمسح فمه ويده ترتجف: "على بعد عدة أميال يوجد معسكر سأوصلك إلى هناك".

مضيا بصمت متباعدين، وكان يتجنّب النظر إليها بسبب محاولته الاستمرار في تقبيلها إلى أن أوصلها إلى المعسكر, قال وهو يتجنّب أن تلتقي عيناهما: "ستجدين في الداخل خيمة إسعاف، حاولي تجنّب الجنود، وتسلّلي إلى الداخل, ستجدين هناك ممرضات نساء، سيقمْنَ بمساعدتك".

تقدّمت الفتاة ثم التفتت إليه بحيرة

– لقد أنقذت حياتي

– يسرّني ذلك

– من جودى؟ أهي الفتاة التي تخيّلتها فيَّ؟

– إنّها زوجتي

صمتا لبضع لحظات ثم سألها ورأسه منخفض

– ذلك الرجل, هل استطاع...؟

قاطعته الفتاة: كلا فقد تقدّمْتَ في الوقت المناسب

أومأ برأسه وهو ما يزال لا ينظر إليها، فتقدّمت إليه ووضعت راحة يدها على وجهه كأنَّها قرأت أفكاره، فقالت: "لا تقلقْ حيالَ الأمر".

أغمض عينيه وتنهّد، وعندما نظر إليها ابتسمَتْ له أخيراً، وابتسم لها كذلك, وقد أسعدته ابتسامتها، كأنَّها روّضت وحشاً هائلاً, ثم افترق كلاهما.

(47)

هل لأذيّة الجسد أن تجعلَ جرحَ النفسِ أقلَّ ألماً؟ كيف للأحياء أن يمشوا فوق أسِرّة أمواتهم؟! ماذا يحصل للقلب عندما يتألم؟ أيتباطأ عن ضخّ الدم أم يسرع إلى أن يحترق؟

إنّي أحترق, أتسمعني؟ إنّي أفقد عقلي، والوجدُ الذي مات أمله باللقاء يضع وقوداً في صدري, متى تحلّ ساعة الموت الظلام؟ وتخيّل لي فأبتسم.. اذهب من عقلي وإلّا تبعتك لطريق الكفن!

كنتُ شجرةً، وبعد موت عائلتي انقطعت جذوري كلّها، فجاء إيليا وأصبح العصا التي تنهض بي عندما كنتُ أبهت وأتساقط, بعد موته سخرت منّي الحياة وربطتني بخيط رفيع لتعذِّبني بين السقوط والبقاء، وجعلت من مظهري شامخاً كيلا أقطع خيطها, فما كان منّي إلّا أن أذهب إلى غرفتي وأشرطَ يدي بشفرة صغيرة، وأشاهدَ الدماء وهي تسيل حتى حافة أصابعي، لعلّي أصبحُ أقلَّ ألماً من الداخل، وأتلهّى بألمي الجسدي, لكنَّ ذلك جعلني أشعر بالشفقة على إنسانيتي، فقلتُ: "يا لنا من مخلوقات تافهة تختار الألم على الألم لتُشبع شهوة التحطّم التي بطريقة ما ترضينا، والشبيهة بشهوة جنسية، فنرغب بما لا نرغب فيه كي نشعر بالوجود فقط, لأقول أنا هنا وأحيا".

كنتُ أنزل يد الثوب على معصمي مجدداً، وأتصرّف كأن لم يحصل شيء، وفي المساء أضع خريطةً أمامي وأنظرُ إلى تفاصيلها كأنّي سأجد مكان اللواء، وأتساءل: "كيف كان سيجده إيليا". بدأت أغادر الكوخَ متذرعةً بالذهاب إلى الكنيسة، لكنّي في الواقع كنتُ أجلس بين الأشجار كما كنت أفعل في القرية, كان يُخيّل لي قدوم إيليا ومفاجأتي كما فعل في السابق, فأشعر بحماس رؤيته وأتساءل عمّا دار في رأسه في آخر لحظاته, أكان يُفكّر في ضحاياه أم في فشله بقتل اللواء؟ أما زال يشعر أنّي إحدى أخطائه التي قام بتطويرها؟

تلك الأفكار كانت تقتلني وتتركني في صيفٍ باردٍ، وكأنني في شتاء آخر, فمنطقة كارتبة ليست دافئة أو على الأقلّ لم تكن كذلك بالنسبة إليّ, وكان المكان مفتوحاً دون أسوار، لكنّي

شعرتُ أنَّ أسواراً تُحيط بي، فأين الذهاب في أحداث الحرب؟ ولو قرّرت الانتقام كيف سأبحث عن حبّة حصى بين ملايين الناس؟ كان عقلي مقفلاً ولو فتحته لوجدته فارغاً من أيّ فكرة كذلك.

عدتُ في ذاك اليوم إلى الكوخ، وفي طريقي وجدتُ روسلين تلعب في الخارج، فاقتربت مني وقالَتْ: "جودى ألن تجلسي وتتحدّثي معي كما تفعلين دائماً؟".

كيف سأدع هذه الصغيرة؟ قرّرتُ إنهاء حياتي بعيداً كيلا ترى جثتي, دخلتُ إلى المنزل ووجدت ليلاف ووالدتها تُخيّطان فستاناً صوفياً لروسلين, أومأت لهم وأنا أبتسم، لكن دون أن أنبس بكلمة، ثم دخلت إلى غرفتي وأغلقت الباب ورائي, قلتُ: "لتكن معي يا إيليا إلى أن نلتقي بعد عدة ساعات".

هَمَمْتُ بالخروجِ، وإذ بعربةٍ جاءت على غير المتوقع, خرج منها ثلاثة ضباط ولواء يرتدي ملابسَ أنيقةً، ولديه ندبة على رأسه, يبدو أنّي لن أبحث، فقد جاء بنفسه عندنا!

ركضت روسلين إلى ليلاف فحضنتها ورأيتُ خوفها عليها كأنَّها والدتها, أخبرَتْها أن تذهب إلى غرفة أخرى، لكنَّ اللواء اعترض وطلب حضور الجميع لإخافتنا.

قالت ليلاف: أعتذرُ.. لكن عمّا تبحث؟

– أنا أبحث عن إيليا

أخرجت ليلاف رسالة علي باشا وأعطتها للواء, قرأها ثم ضحك بهستيرية وشتم: "ابن العاهرة! لقد شوّه جندياً بعد أن بدّل ملابسه معه وأخذ أوراقه! إنَّه مطلوب للإعدام ومطلوب أيضاً بتهديده للواء أثناء الحرب.

ظهر جُبنُ اللواء وغباؤه, فلو التقى وإيليا بالحرب لقضى أحدهم على الآخر، لكن يبدو أنَّه لم يهتمّ للتفاصيل، فقد ظنَّ أنَّه يتكلّم مع مجرد نساء، نظر إليّ وقال: "تبدين عربية, من أنتِ؟".

جاوبت ليلاف مسرعة وقالت: "إنَّها خادمة! لقد وجدناها تتضرّع جوعاً في الحرب فأخذناها لخدمتنا".

أخرج اللواءُ مسدسه من جيبه وأطلق رصاصة على الطاولة، فصرخت والدة ليلاف من الخوف وبكت روسلين, قال اللواء: "إنَّها ترتدي ثوباً أنيقاً وتبدو أنيقةً مثلكن"، اقترب منّي وقال: "من أنتِ؟"

قلت: أنا زوجته

– حسناً إذن أيّتها الزوجة سأبقى هنا حتى مساء الغد، وإن لم يظهر سآخذ رأسك وأهديه إياه.

عدتُ إلى غرفتي مجدّداً، واستلقيت على السرير، فتألّمت بسبب شيء وضع تحت اللحاف, نهضت وقلبتُ اللحافَ، وإذ بي أرى العقد الذهبي, بحثتُ في كلّ مكانٍ عن إيليا كأنّي سأجده في تلك الحجرة الصغيرة, نظرتُ من النافذة ولم أرَهُ أيضاً, نبض قلبي بحماس وخوف؛ فقد أردتُ رؤيتَهُ وخفتُ ألّا أحصلَ على لحظةٍ أخيرةٍ برفقته, جلستُ على الحافة دون أن أدري ما العمل، وارتديتُ العِقد، ودعوتُ أن يعود بخير, ماذا كانت تعني أن يضعه هنا؟ إيليا يحبُّ المنطق... لا يضعُ شيئاً للمشاعر فقط, بحثتُ في الغرفة وكرّرت البحث في نفس الأماكن لما يقارب ساعتين, بعدها عدتُ وجلستُ دون أيّ فكرةٍ عمّا يفعل, خلعتُ العِقْدَ بسبب توتري وتساءلتُ كيف حافظ عليه أثناء الحرب, عندها وجدتُ أنَّ المفتاح معكوس، وهناك ما يُثبّته في السلسة, نزعته بصعوبة فطارت ورقة صغيرة ملفوفة بعناية, قفزت خلفها على الأرض وفتحت الرسالة، فوجدتُها مكتوبة بشيفرة مورس:

(·_·_)/(·_) (··) /(·_ _) (·_) (··) (·_) (··) (····)/(_ _) (··)/(_ _·_) (_·) (···) (····)(·_·_) (_·) (_··) (····)

حلّلتُ الرسالة وفهمتُ بداية خطّته، لكنَّه لم يشرح ما سيحصل لاحقاً, يَجِبُ عليَّ الإسراع والمغادرة، فكتبت تحليل الرسالة بالعربية، وعلّقتها على مفتاح العِقد كما فعل إيليا، وخرجت مسرعة.

قالت ليلاف: هل ستخرجين؟

– أجل

قال اللواء: ستخرجين ريثما يعود إيليا

– لا تأمرْني بما أفعل

حدّق بي اللواء ونهض من مكانه فلم أنظر في عينيه, رفع ذقني بيده وقال: "لديك نظرة كتلك التي يملكها إيليا، والتي سأمسحها عن وجهه ريثما أراه, بعدها ستكونين جاريةً لي".

وضعتُ يدي على صدري لأهدأ فوقعتِ الورقةُ من العقد, أردتُ أن ألتقطها لكنَّ اللواءَ أخذها ثم فتحها، وقال لضبّاطه: "إنَّه يختبئ في الكنيسة!"، صرختُ على اللواء وأنا أفقد عقلي فأمسكتني ليلاف، قال اللواء: "لا تقلقي سترينه للمرة الأخيرة, سيجلبونه لي على قيد الحياة، بعدها ستقومين بتوديعه، ربما تودِّعينه لعدة أيام أيضاً ريثما تسقط آخر قطرة دماء منه".

أراد تعذيبَهُ قبلَ التخلّص منه، وذلك عكس ما أراد إيليا لموت اللواء, وعندما وصل الضباط إلى الكنيسة دخلوها حذرين وهم يشيرون بأسلحتهم, بعدها أُغلِقَ بابُ الكنيسة بعنف، ووضع إيليا على الباب قفلاً كما أراد لخطّته, لكنَّه علم أنه لا يمتلك الكثير من الوقت، فسرعان ما سيفقد الضباط عقلهم ويحطّمون النوافذ العالية، لكنَّ ذلك سيتطلّب منهم وقتاً طويلاً, قال في سِرّه: "أحسنتِ يا جودى".

أخذ حصاناً وغادر ليصل إلى الكوخ, بينما كانت ليلاف تنظر إليَّ بريبةٍ، سمعنا صوتاً في الخارج, أخرج اللواء سلاحه وقال: "لا تتحرّك أحداكن وإلّا أرديتُها". وعندما خرج قلت لروسلين: "ستكونين بخير سأجلب الأسلحة من غرفة ليلاف"، قبّلتُها ونهضت مسرعة فأوقفتني ليلاف وهي توجّه السلاح إلى وجهي.

(48)

امتزجت الجثث مع التراب فعادت إلى أصلها, من الرماد إلى الرماد، ومن الأرض إلى الأرض، أمّا في الأحياء فحُفَرُ الألمِ وذكرى الشناعة والأحباب, كيف تمتزج البشاعة مع وجه مع نحبّ؟ إنَّ في ذلك أقصى درجات الألم، الكلمة الأخيرة، التعبير الأخير, كلُّ ذلك الذي يبدو شيئاً عادياً، لكنّه يصبح ذا قيمة، فتقول: "هكذا رأيتُه آخر مرة.. هذه آخر كلمة قالها.."، وبذلك كان فقدان ألبرت يحفر في قلبه ألماً بعد أن كانت ذكراه الأخيرة هي مرضه الذي حُفِرَ في ذاكرة حمزة، ولم يحصل على ذكرى لحظته الأخيرة إلّا قبل أيامٍ من موته, إذن فهو يذكر عذابه بوضوح.

كان الهدوءُ ينتشل رأسه ويسبّب له ألماً, يريد إلهاء ذكرياته بحدثٍ قريبٍ أو بإزعاجٍ يشغل عقله, كان قد أُخِذَ أسيراً إلى ألمانيا، إلى منطقةٍ لا تبعد عن برلين، تُدعى زوسن. كان الأسرى من مختلف الجنسيات يجلسون في الخارج، ويلتحفون جيداً عن البرد, جلس حمزة في إحدى الزوايا منعزلاً وهو يلتحف لحافاً كالخيمة, كانت معدته تقرقرُ من الجوع، وتؤلمه بسبب خوفه من القادم, فهو لم يعلم عن نهاية وجوده، أو إذا كان سيعدم أم لا, لكن لم يرسلوه كلّ تلك المسافة لإعدامه فقط؟ تحدّث مع عقله كأنَّه يتحدّث مع إنسان آخر، فقال في سرّه: "اصمتْ.. اصمتْ.. اصمتْ"، لكنَّ رأسه ازداد ألماً كأنَّه يُخبره ألّا يصمتَ أبداً, ثم قاطع جدلَهُ مع عقله أحدُ الأسرى، وجلب لحمزة صحنَ حساء وخبز.

– تبدو في حالةٍ مُزريةٍ.. خُذْ هذه من رفيقك المغربيّ

كان لسانه أثقل من أن يتكلم، فأومأ له برأسه شاكراً، ثم بدأ يأكل بنهم, جلس الرجل بجانبه فقال: "أأنت مغربي؟"

– جزائريّ

– معظمُ الأسرى هنا من تونس والمغرب, وهناك انظر إلى الهنود والكوريين

– أتعرفُ أصلَ الجميع هنا؟

– هم إخواننا شئنا أم أبينا, جميعنا تمرّدنا ولم نرغبْ في قتال بعضنا, انظر إلى الهنود فقد تمرّدوا على الجيش البريطاني في سنغافورة، ورفضوا محاربة الأتراك، وعرب المشرق بعد أن أُمِروا للذهاب إلى العراق، وها هنا التَّتر، كان الرجل يتكلّم وحمزة سارحٌ في دفء صحنه, أراد فقط السلام، السلامَ لعقله وبلده, وهنا سمع صوتَ أذان آتياً من مسافة ليست ببعيدة, قال: "أيوجد مسجدٌ هنا؟"

قال الرجل: لقد بنوا أولَ مسجدٍ في ألمانيا لنا

– ولم يفعلوا ذلك ونحن أسرى؟

– يُريدوننا في صفّهم، فقد جاء لمساندتنا بعض المثقفين العرب, رجل يدعى شكيب أرسلان، ومحمد فريد، البعض يقول إنَّهم هنا لتحرير مصر، والبعض يتكلّم...

تمنّى حمزة لو يصمت الرجل ويجاوب على سؤاله فقط

قال مقاطعاً: أين يُمكنني الذهاب؟

– هيّا... سآخذك

وصلوا مع أسرى إلى مسجدٍ خشبيّ أنيق, وبسبب عددهم الهائل اضطرّ بعضهم للصلاة في الخارج, همس أحدهم لرفيقه: "لقد سمعتُ أنَّ فيلهلم الثاني بناه من ماله الخاص!"

كان حمزة ممّن وجدوا مكاناً في الداخل، فسجد وهو يشعر بثقلٍ في رأسه، وبالدماء تتخثّر في جبهته، فكان ألمه كتعرّضه للسع, سجد مجدداً باكياً من ثقل همّه، ودعا لعائلته ولجميع رفقائه القدامى بالرحمة وبالتوفيق, وإذ بدعوته تصل في اليوم التالي إلى قلب بلال, فاستيقظ بعد شكوكه وخوفه من المُضي مع الأمير فيصل في ثورةٍ عربيّةٍ ضدّ الأتراك, وفجأة اختفى كلّ ذلك، وشعر أنَّه جاهز لتحقيق حلمه, فكما كان يقول لحمزةَ دائماً: "الحريةُ تأتي لمن يولدون جديداً، ويجلبها لهم الأبطال الذين يرقدون تحت الأرض, وأنا على استعدادٍ لفعل ذلك لأبناء بلدي".

ولم يكن بلال الوحيد الذي يطمح لذلك الحُلم, فكما حارب ميخائيل نعيمة بجانب الجيش الأمريكي, قال عن أبناء وطنه:

أخي ! إنْ ضَجَّ بعدَ الحربِ غَرْبِيٌّ بأعمالِهْ

وقَدَّسَ ذِكْرَ مَنْ ماتوا وعَظَّمَ بَطْشَ أبطالِهْ

فلا تهزجْ لمن سادوا ولا تشمتْ بِمَنْ دَانَا

بل اركعْ صامتاً مثلي بقلبٍ خاشِعٍ دامٍ

لنبكي حَظَّ موتانا

كان أغلب الأسرى أميّين وحافظين سوراً بسيطةً من القرآن, لكن ابتسم حمزة عندما سمع أحدهم ينشدُ بعمق:

أرَاكَ عَصِيَّ الدّمعِ شِيمَتُكَ الصّبرُ أما للهوى نهيٌّ عليكَ ولا أمرُ؟

بلى أنا مشتاقٌ وعنديَ لوعةٌ ولكنَّ مثلي لا يذاعُ لهُ سرُّ!

إذا الليلُ أضواني بسطتُ يدَ الهوى وأذللتُ دمعاً منْ خلائقه الكِبرُ

تَكادُ تُضِيءُ النّارُ بينَ جَوَانِحِي إذا هيَ أذْكَتْهَا الصّبَابَةُ والفِكْرُ

*مقطع استماع حقيقي

ذهب حمزة إلى الخارج وابتسم للسماء ببرودٍ وهو يضع لحافاً حول جسده، قدّمه إليه أحدُ الجنود, وعندما نظر حوله إلى جميع أولئك الرجال ومن ضحّوا بأنفسهم من أجل بلادهم، أراحته تضحيته الأخيرة واختياره عدم الاختباء, وكان الوقت قد حان كي ينشئ أماكن تعليمية بعد الحرب، ويُحقّقَ حلمَ آزر, فقام بتقديم وعدٍ أنَّه لن ينتهي أمره إلّا بعد أن يفتح المدارس ويفعل شيئاً نافعاً لجيلٍ جديدٍ قادمٍ.

(49)

استلقيتُ بجانب إيليا ممسكينِ بيد بعضنا, كان يضغط على يدي بعمقٍ، فشعرتُ أنّي أفوقه قوةً, نهضتُ وجلستُ على حافة السرير، فنهض بدوره وقام بحضني من الجانب، وأغرق رأسه في كتفي ثم أجهش بالبكاء, بكيتُ بدوري لكنّنا لم ننبسْ بكلمةٍ، وكان الصمتُ خفيفاً كأنّنا نتحاورُ عقلياً، ويُعْلِمُ أحدنا الآخر بما يودّ التحدّثَ عنه, وضعتُ يدي على وجهه وكانت لحيته طويلة تصل إلى رقبته, قبّلَ يدي ووضعها داخل يده واستمرَّ في تقبيلها، فنهضتُ وتركته في مكانه كي أنظرَ من النافذة, كان الضبّاط يحملون أسلحتهم ويحرسون المكان كأنَّه سجن، واللواء يجلس على كرسي أمام الكوخ كي ينظرَ حوله, أمّا ليلاف وروسلين ووالدتها فكانوا يغادرون في عربة.

بعد أن وجّهت لي سلاحاً كانت تنظر إليَّ وهي تشعر بالذنب، وتقول: "لقد قيل لعلي باشا أن يختار إمّا عائلته أو إيليا، وما كان منّي إلا أن أقوم بخداعه".

– متى كتب لكِ البرقية؟

– قبل أن يغادر إيليا إلى الحرب, صحيحٌ أنّي أردتُكِ لروسلين، لكنّي لم أصرَّ على ذلك إلّا بعد أن قام بتهديدنا.

كنتُ قد صمتُّ بعد أن صرخ اللواء لإيليا على أن يخرج؛ لأنَّ هناك سلاحاً موجهاً إلى وجهي, فَشِلَتْ خطّتنا وخرج مستسلماً، ودخل إلى الكوخ فرأينا بعضنا وترقرقت عيناناً, هُرِعَ إليّ ووضعني بين ذراعيه وهو يتنفّس بعمق, همس لي: "سأحميك حتى النهاية!".

أراد اللواء فصلنا لكن قاطعته ليلاف وهي تذرف الدموع

– لقد حصلتَ على مبتغاك, دعهما يودّعان بعضهم إلى أن يصل علي باشا

قَبِلَ اللواء على مضضٍ، وسمح لنا بالبقاء وحدنا, كانت خيبتنا كبيرة، قلتُ له باكية: "ظننتُ أنّنا قد نخرج برسالتك"، ضَحِكَ بصعوبةٍ ترافق دموعه، وقال: "لكنّكِ ذكيّة يا جودى، لا أصدّق أنّكِ كذبتِ بشأن رسالة مورس".

– وُجِبَ عليَّ أن أجعلَهم يذهبون إلى الكنيسة، وذلك اللواء الأحمق صدّق أنَّ ورقةً خطيرةً كتلك سقطت منّي.

ضحكنا معاً ونحن نرتجف خوفاً لخسارة بعضنا، بعدها استلقينا معاً ونحن نعلم أنَّه لا مخرجَ لنا من ذلك، وبعد أن نظرتُ من النافذة قلت له: "أمتلكُ ثوباً أنيقاً أهدتني إياه ليلاف".

– ارتديه

– هل جهّزت لخطّتنا الاحتياطية؟

– بالطبع إنَّه في جيبي

– حسناً سأجلبُ العصيرَ أولاً

جلبتُ عصير التفاح ووضعته في الحجرة، بعدها ارتديتُ الفستان الأسود، بينما كان إيليا يعمل على تشغيل الفونوغراف, كان يراقبني ويحضنني أحياناً, أرخيتُ شعري والتفتُّ إليه، فأمسكني من خصري ورقصنا معاً على موسيقى هادئة امتزجت مع صوت أنفاسنا التي ترتجف, عَلِمنا أنَّ اللواء سيقوم بتعذيب إيليا لعدةِ أيامٍ ويصفّيه حتى آخر قطرة منه, أمّا أنا فكان سيأخذني جاريةً ثم يلقيني لأحد المواخير انتقاماً كما قال لنا.

استمرَّ في تقبيلي إلى أن خارت قواي، وقلتُ إنَّ ذلك سيجعل خطّتنا أصعب, صَبَبْتُ كأسين من العصير، وأخرج إيليا من معطفه سُمّ السيانيد القاتل، واقتسم العلبة بين كأسي وكأسه, شربنا معاً ثم عاودنا الرقص مجدداً إلى أن بدأنا نشعر بالدوار, استلقينا مجدداً على السرير، واحتضنّا بعضنا كأنّنا سنخوض عاصفة.

قلتُ له: كيف تخيّلت حياتنا؟

– مزرعة صغيرة مع اصطبلٍ لحصانين، وبئر وبركة ماء كي يسبحَ البطُّ وتلعبَ الأرانبُ حوله

– خمسة أولاد؟

– بل خمسة عشر

ضحكنا بتثاقل ونحن نختنق ونشعر بألم رهيب في جسدنا وكأنَّ صدرنا ومعدتنا تحترق

قال: ونشيخ معاً

– حتى النهاية

– حتى النهاية

– ستكون حيث نُدفنُ معاً

كنّا نبكي بتثاقل فضمّني إليه بعمق أكبر, وقال: "لم أكن يوماً رجلاً جيداً يا حبيبتي, لقد عذّبْتُ رجالَ عائلاتٍ من أجلِ معلومات سياسية، وكنتُ مخلصاً لبلدي حتى عند الظلم, كنتُ أسمعُ أصواتهم وهم يصرخون بعدد أولادهم، وقولهم إنَّ زوجاتهم في انتظارهم، أترَيْ يا جودى؟! لا يهمّ أصلُ المرءِ, فالأتراك ليسوا جميعاً سيئين، ولا العرب كذلك ولا الفرنسيين، تلك الدماء الثلاثة أصولٌ في عروقي، وعرفتُ فيهم أشخاصاً مخلصين وجيّدين, وأنتِ أفضلُ ما حصل لي، الجميعُ يريدون رؤية الله ويتساءلون عن مذاهبهم، وأنا كنتُ منهم إلى أن وجدتك، عندها علمتُ أنَّه أرسلكِ إليَّ، والآن نغادر معاً، عَلَّ الله يسامحني على أفعالي وتفكيري، أمّا أنتِ فسيُسامحك، أنا على يقينٍ من ذلك"

– سنكون معاً... لا يهمّ الوقت، ولا يهمّ لو حلمنا بالموت معاً, لقد كنّا تائهين أنا وأنت، وحلمنا بالموت معاً، وها نحن نحقّق حلمنا, برأيك أين يضيع التائهون؟

– العقلُ يا جودى... إنّه حيثُ يجولُ التائهون.